Tele: @Arab_Books

واسيني الأعرج

ضمير الغائب

(الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر)

منشورات الجمل

رواية

واسيني الأعرج

ضمير الغائب

(الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر)

رواية

منشورات الجمل



واسيني الأعرج. مواليد ١٩٥٤ بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

إن قوة واسيني التجريبية التجديدية تجلت أكثر في روايته الكبيرة، المبرمجة اليوم في العديد من الجامعات العالمية، **الليلة السابعة بعد الألف** بجزءيها: **رمل الماية والمخطوطة الشرقية**، التي حاور فيها ألف ليلة وليلة لا من موقع ترديد التاريخ ولكن من هاجس الرغبة في استرداد التقاليد السردية الضائعة.

- في سنة ١٩٩٧ اختيرت روايته **حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر)** ضمن أفضل خمس روايات صدرت بفرنسا.

- تحصل في سنة ٢٠٠١ على جائزة الرواية الجزائرية.

- اختير في سنة ٢٠٠٥ كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

- تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.

واسيني الأعرج: ضمير الغائب، رواية

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com



اللّي مضيّع ذهب، في سوق الذّهب يلقاه.
اللّي مضيّع محب، يمكن سنه وينساه.
بسّ اللّي مضيّع وطن، وين الوطن يلقاه؟




Arab_Books

فاتحة الراوي

ماذا نقول بعد الذي جرى!!؟؟

بحسب الذين يقرؤون الطالع وعمق عيون الناس، أن الرعية انتبهت للخبر الذي كان مرمياً في إحدى زوايا الجريدة المهملة:

لظرف قاهر وخاص مرتبط بحالة مرضية، غادرنا الزميل الصحافي الحسين بن المهدي بن محمد إلى باريس في إجازة قد تطول. نُطمئن القراء الأعزاء الذين راسلونا مستفسرين عن حالته الصحية، أنه في صحة جيدة والحمد لله. نؤكد لهم بأن زاويته «شيء من الأرشيف» والتي استبدلت بزاوية «تعال معي»، ستعود إلى الظهور مباشرة بعد عودة الحسين سالماً معافى من دائه الذي أصابه في الدماغ بشكل فجائي. (. . .).

الناس لم يعلقوا على الخبر لكنهم كانوا يعرفون البقية جداً. الحسين بن المهدي ابن محمد قد لا يعود أبداً والزاوية احترقت مع عيون الأطفال.

ماذا نقول بعد الذي جرى؟

قبل أن يتغير اسم المدينة والجريدة ووجوه الناس والأشكال الآدمية، كان قد نزل إلى قلب المدينة ملايين بل مليارات الزواحف التي تشبه العلق. علق أسود مثل القطران. بعضهم يقول مثل الكسوف. تسلّط على أوراق الجرائد فقضمها، وعلى الحيطان فخرمها، وعلى أفواه الناس فزمَّها، وعلى الوجوه المتعبة فحفرها واستقر بين تجاعيدها وقتاً طويلاً.



وعلى الأرض فأفسد تربتها ولم تعد تنجب إلاّ اليباس. علق أسود لاعيون له ولا أرجل.

يقول الذين يقرؤون الطالع وعيون الموتى إن صراعاً يشبه صراع الموت يدور بينه وبين جرذان المدينة. الدم يملأ صمت الشوارع ووجوه المارة، والبنايات الشاهقة ولا أحد يعلم متى تنتهي المجزرة. كل الذي تعرفه الرعية هو أن الريح الساخنة اندلعت وأن خيبة الأمل بدأت تزحف بشهوة نحو قبور الشهداء التي غطتها الأعشاب الضارة ولا أحد يستطيع أن يتكهن بالعواقب الخطيرة.

حدثت الوقائع المروية بتاريخ عشية شهر العواصف وقبل ذلك بكثير، من سنة بدء الكسوف الأكبر، الموافق، في التقويم الإفرنجي، لليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر ١٩٧٨.



الفصل الأول

العلامات الأولى




Arab_Books

أبواب الجنون

ـ ١ ـ

ما معنى أن يكون الإنسان مجنوناً في وطن يعتقد كل ناسه أنهم عقلاء؟ وما معنى أن تكون عاقلاً في وسط لا يدري أنه مجنون؟

على كل أستطيع اليوم أن أشهد بأن مستشفى المجانين ليس أمراً سيئاً. شهادة العارف والمختبر. يجد المرء فيه راحته الكبيرة وحالات صفائه التي تجعله أرق إنسان على وجه الكرة الأرضية. أكثر من ذلك كله، يصبح هو سيد نفسه وبالطريقة التي يشتهيها.

الكسوف بدأ وما يزال قائماً، يأكل ما تبقى من جمال المدينة المدهشة. الناس، كل الناس صاروا كالعميان، لا أحد يبصر جاره ولا حتى نفسه.

قبل أن تغيبني تفاصيل الحياة ورماد الأنجم المحترقة، أريد أن أُذكِّركُم بي. ربما تكونون قد نسيتم. الظلام أحياناً يعمي الأبصار. عذراً، فالمدينة استأصلت ذاكرة الآلاف من عشاقها.

اسمي الحسين. اسم أبي المهدي بن محمد أحد شهداء هذه البلاد التي احترق من أجلها لكنها نسيت عظامه مرمية في وحشية الأحراش والوديان. لم يسأل عنه حتى أقرب أصدقائه. طولي لا يتجاوز المتر والتسعين، فيما أعتقد، لأني منذ أيام الدراسة الثانوية لم أقس قامتي.



عيناي عشرة على عشرة مع احمرار خفيف في العين اليسرى بسبب الضغط الدموي. صحافي متواضع مكلف بالتحقيقات في إحدى الجرائد الوطنية التي بدأت تنهار كلية منذ عزل طاقمها القديم (المدير ورئيس التحرير). ولا أخفيكم سراً إذا أكدت لكم أن لدي قناعاتي الخاصة حول كل ما أسمعه، ولدي ردود فعلي في كل ما يقع من حولي ولكني لا أجهر بذلك دائماً لظروف تتوقعونها. في أحيان كثيرة أركب رأسي مثل أمي عندما تكون متأكدة من شيء ويأتي من يناقشها في نقيضه. الله غالب، مسيردي وزاد راسه قاصح كالشاوي. كارثة.

حكايتي ليست طويلة، لكنها عجيبة بعض الشيء. سأحكيها لكم مع إهمال جزء مهم من التفاصيل الثانوية، مع علمي المسبق أنكم لا تصدقون إلاّ البداية وتلصقون الباقي بحالات الجنون التي تنتابني من حين لآخر. وإذا صدقتموها فسيكون ذلك بصعوبة كبيرة، لأنكم تفكرون بمنطق والمدينة التي بدأ الكسوف يمحوها، تفكر بمنطق آخر.

العقلاء والراسخون في العلم وبعض المنجمين، يعلمون أن الكسوف قد بدأ لكن لا أحد يعرف متى ينتهي. وحتى قصتي بدأت لكن نهايتها ليست مرهونة بقدراتي العقلية والجسدية حتى ولو كانت خارقة.

بعض الأصدقاء المقربين جداً، يجدون شبهاً كبيراً بين بؤس الحسين بن المهدي وبؤس الحسين بن علي كرم الله وجههما وأبعدهما عن هؤلاء الخلق، لكني أرفض دوما هذا التشبيه. فأنا فخور بأن أكون ثمرة النصف الثاني من القرن العشرين، الذي ينام على برميل نفط سريع الالتهاب، لا أحد يستطيع أن يتكهن متى يشتعل ويحرق الأخضر واليابس بل ويبيد الأمل في بناء وطن عربي نتنقل فيه بدون هوية، وطن كلما صادفنا فيه جمركياً في جولاتنا السياحية في أية عاصمة عربية، أو على الأقل هكذا أتخيل، أخذنا معه صورة سياحية لأنه من السلالات المنقرضة. وطن



تنعدم فيه الجمارك ويندثر الهزية والقتلة والمجرمون السياسيون والبلطجية الذين يعملون لأسيادهم وتجار العملة... أعذروني عن حالات الهذيان، فقد يلتبس علي أحياناً الواقع المر بالحلم المرتبك.

اسمحوا لي مرة أخرى أن أذكركم ببعض التفاصيل حتى لا أبدو أثقل من الرصاص. قبل أن أبدأ، يحدث معي وأنا أحكي، أن أتذكر مريم. تحملوني قليلاً، فقد كانت عرشي الكبير وحليب البلدة وعنفوان الطفولة قبل أن تدفنها سيارة عند قدميّ بقسوة. لا أتذكر شكل السيارة لكن الذي أعلمه جيداً هو أن السيارة كانت سوداء ولم تكن تحمل رقماً أبداً. لم ألتقط إلا لونها وخواء لوحها الخلفي ولون دم مريم التي أرجعني غيابها إلى حنين البلدة وأثداء أمي التي أذبلها قيظ البؤس والشمس الحارقة.

الأيام تمر بسرعة، مخيفة وتكاد تكون في عقم واحد.

حين فقدت مريم وسط المدينة وسرقها مني قبر بارد، لم أبك كثيراً ولكني في لحظة انهيار، تعريت من جلدي المنتهك حتى شعرت بتفاهة العالم وببداية انهياره وبالديدان القزحية التي بداخلي تتحول إلى كائنات دقيقة سوداء مثل الفحم. قالوا لي وقتئذ في الجريدة إنها لحظة وتمر. لكنها لم تمر، على الرغم من أني بدأت حياة أخرى مع امرأة جديدة. مازلت أشعر يومياً بانهيارات تأكل ما تبقى من هذه العلاقة المقحمة وهذه الأمطار التي كلما بلّلتني، تذكرت مريم وآلام القلب.

آه يا الحسين يا خويا. مريم كانت تفاح البلاد البعيدة ورائحة تربة القرى المعلقة في القلب وحبات المطر الربيعي ونسمات الفجر. هل تعرف قدر الكارثة؟

وجودي في هذه الزاوية السوداء من المدينة، وبهذا الوضع المخيف ليس مصادفة أبداً. بعد أن عذبتي هذه الشوارع أصبح من الصعب عليّ تصديق المصادفة. كل شيء تخططه أيد خفية، في تواطؤ دائم مع



الحكام والقتلة الصغار، حتى الرب أحياناً يغمض عينيه لكي لا يرى المقتلة وهي تحدث عند أقدامه المرتخية على تربة الصحاري.

ـ ٢ ـ

كل شيء بدأ ببساطة كبيرة.

كانت البلاد منغمسة في تحضير احتفالاتها وكرنفالاتها. ومنهمكة في ترتيب شؤونها. لكن في المدينة الواسعة كان الناس والإذاعة والتليفزيون وباقي المؤسسات ينتظرون بداية الكسوف الذي يطمس عيون الأمكنة إلى أجل غير مسمى.

في قلب أهم شوارع المدينة، ينتصب المستشفى التجميلي أو المستشفى الجديد، كقبة أحد الأولياء المخيفين. يحكي بعض العارفين أن سعته قد تتجاوز هذه الحدود الصغيرة وسيلتهم في وقت قريب، الشوارع والبنايات والأزقة القريبة.

وحمو؟ حمامة المدينة المذبوحة، لم يتوقف عن ترتيل نشيده اليومي وأغنيته القديمة التي لم تتآكل بفعل الزمن الرديء وبرودة الطقس والغيون الغامضة.

«خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع».

عدت من إجازتي في البلدة بعد أن تركت ورائي العيون البريئة التي صفقت حزناً لسفري وأمي والدروب الموحشة ودخلت متاعب المدينة من جديد. إنها تشبه بلاد الواق واق إلى أبعد حد، بطقوسها وأعمالها وسِيَر ناسها والأساطير التي تعشش في دماغها.

يحدث معي أحياناً وسط هذا الموت، أن أشعر بأني تحولت إلى ذبابة. مجرد ذبابة تحوم بلا رجاء، أحرقت أجنحتها وضاق تنفسها. ومع ذلك، ما زلت أصر دائماً على حقي في الحياة وفي الاحتفاظ بتفاصيلي الخاصة التي تختلف حتماً عن تفاصيل غيري. مثلاً، أنا أكره يوم الجمعة



لا لشيء سوى أنه يوم فارغ من المعنى، ولهذا، عطلتي في الجريدة هي بشكل دائم يوم السبت، حتى ولو اتهمني البعض بالتهود والتطبيع والتفرنج والتعامل مع أعداء الأمة. بالنسبة لي يوم السبت لا يعني الشيء الكثير سوى أنه يوم تغص فيه الشوارع بالبشر، أنسى فيه همومي وسط أتعاب الآخرين، ما عدا ذلك، فأنا لا أعرف شيئاً.

هذه المرة، كان السي بلقاسم طيباً وكريماً. قدم لي أسبوعاً بكامله هدية. أسبوع لم أطلبه ولكني طلبت العمل على التحقيق. قال لي. نريد أن نراك مرتاحاً. هذا همنا. كنت أشعر بإرهاق شديد ولهذا قبلت بهذه الإجازة لأعود باقتراحات حول التحقيق الذي يفترض أن أقوم به بالمناسبة الاستثنائية التي ستعيشها البلاد. لكني حين عدت. كنت حزيناً ومنكسراً كغصن زيتون.

شعرت بمدخل الجريدة واسعاً على غير العادة المألوفة مثل فم الغول. منهكاً ومنتهكاً في كل الأشياء الجميلة، كنتُ. تذكرت أني، كنت قد طلبت قبل هذا التاريخ أن أقوم بتحقيق حول المستشفى التجميلي الجديد الذي بني فجأة في عمق المدينة، لكنهم رفضوا بقوة وبرفضهم زادوا من فضولي. قلت في خاطري لا بد أن يكون دافع غامض لهذا الرفض عليَّ كشفه؟ شعرت كأن شيئاً ما يحدث تحت جلد المدينة المتلبسة بالمحبة، لا يريدون أن نعرفه. ماذا يكسب الواحد وسط هذا الدمار غير هذه التفاصيل التي يصعب ذكرها، وهذا الأنف الطويل الذي لم تستطع بلاد الواق واق تحمله. حالة وفيها استحالة، لا أدري من قال هذه الجملة الدقيقة، ربما وردة الجزائرية؟ غير مهم. في طريقي إلى الجريدة، شاهدت بقايا الكلمات الجميلة تلفظ أنفاسها الأخيرة والأشجار تنتحر جماعات جماعات وتحرق أغصانها بنفسها. شاهدت



الشمس تتفحم والعصافير تتحول إلى قطط والقطط إلى فئران والفئران إلى فيلة، والفيلة إلى غيلان، والغيلان إلى أشياء تشبه الخوف والغموض. مع أن كل شيء في المدينة كان يسير بشكل روتيني وعادي. المؤسسات. الجرائد. الإذاعات. الناس. المستشفى التجميلي الذي استُبدِل فيه الختان الطبي بقطع الأنوف ونخر الأدمغة، كان يشبه المقتلة. بعض الناس خرجوا مذهولين مما سمعوا. عمت احتجاجاتهم كل زوايا المدينة المظلمة. في البداية أسكتوهم بالكلام المعسول. في المرة الثانية فرقوهم بخراطيم المياه، لكن في المرة الأخيرة غابت وجوه كثيرة عن شوارع المدينة. وبعد أيام من الغلق، عاد المستشفى إلى ممارسة نشاطه بكثافة ودهاء. يقال على أطراف الأزقة الموبوءة إن شخصاً غنياً قام بتمويل جانب منه ابتغاء محبة الله والفقراء وترحماً على أمه التي طحنتها أقدام الحجاج والطوافين لحظة رمي الجمرات. ويقال أيضاً إن أيادي طويلة تسهر على تسييره، تمتد أصابعها حتى البحور السبعة وتسرق خضرتها من الربع الخالي.

الملف الذي عدت به من رحلة الأسبوع، كان مثقلاً بالأرقام والكلمات والخطوط والملاحظات. حاولت على الأقل أن أشعر نفسي بأني مازلت على قيد الحياة في مدينة حين تداعب أذنيك بمحبة. تشعر كأنها تستأصل قلبك. الآن وهذا التعب يأكل خلاياي واحدة واحدة، أشعر كأن أسبوع العطلة الذي تكرم به بلقاسم علي (على فكرة، بلقاسم لا يرفض لي أي طلب على الرغم من تعارفنا الجديد.) لم يكن إلا لعنة مضافة إلى هذا الممل وهذه الهامشية التي استبدت بجميع أوقات يومي. في الواقع لست مجبراً على القيام بأي تحقيق، لكن هذه السوسة التي انتفخت في القلب تجعلني أحياناً لا أفهم تفاصيل ذاتي بدقة. بإمكاني أنا كذلك الجلوس على هذا الكرسي العتيق الذي ورثناه عن أزمنة الدمار



وانتظار دورة الشهرة التي تقصر وتطول بحسب الحالة المادية والنفسية، وأفعل ما يفعله معظم الناس في هذه الجريدة.

انزلقت من الباب الخلفي بعد أن حييت عمي البخاري البواب الذي كان منهمكاً في حك عينيه المعمَّشتين. في يده اليمنى نظارته البيضاء القديمة التي كسرت أطرافها فشدها بمطاط أسودً من كثرة اللّمس.

حاولت أن أصعد الدرج بسرعة لأنه بدا لي طويلاً، طويلاً كطريق من دون نهاية. انزلقت نحو غرفة المدير. حين رآني، جرى نحوي وعانقني كعادته بتواضع.

- هه. هذا أنت يا السي الحسين. غيبة. اشتقنا لك يا أخي.

كلماته جميلة. لكني في زاوية سوداء في داخلي، صعب عليّ ابتلاع هذه الكلمات.

- كيف كانت إجازتك. إن شاء الله ارتحت؟

- والله سيئة. سيئة جداً يا بلقاسم خويا.

- خير إن شاء الله؟

- طريقنا سيء يا بلقاسم. المدينة تقتل حموّ من جديد ونحن نتفرج.

- أوف حمو مجنون. وستجن إذا حاولت أن تفهم ما يقوله.

- رأسي تحول إلى كابوبا. لم أعد أفهم شيئاً.

- قل لي. بماذا جئتنا. هل فكرت في التحقيق الجديد؟ قريباً سنحتفل بالذكرى الخامسة عشرة لاستقلال البلاد.

وقبل أن أحرك لساني دخل أحد الصحافيين، يحمل بين يديه كومة أوراق، انهمك مع بلقاسم في حديث خافت برقت له عيناه. كل ما سمعته هو رفضه التحقيق الذي تقدم به الصحفي عن المستشفى التجميلي وعن معالم المدينة القديمة التي بدأت تفقد رئتيها وقريباً ستفقد عينيها وأحبابها.



التفت نحوي مع ابتسامة اصفرت حتى تحولت إلى قشرة ليمون.

ـ أتعبونا بحماقاتهم. هه. يديروا من الحبة قبة. مستشفى تجميلي ومن بعد؟ كثير على البلد مستشفى من الطراز العالمي؟ الله يسامح صحافيينا. خلّنا من همهم، قل لي ماذا وراءك؟!

ـ لا شيء. لم تعد قصة المستشفى تعنيني. في القلب شيء آخر.

لو كان تعرف يا بلقاسم؟ بالصح ما تعرف والو. ربي هنَّاك. المدينة تموت والناس يرقصون على جثتها.

بعد عشر سنوات من التحقيقات في هذه الجريدة، عن شهداء المدينة وخارج حدود هذه المدينة. عن أناس لا تجمعني بهم غير الذكريات وكلمات كتب التاريخ، والمحبة وصورة أبي الذي فقدته في هذا الزحام المخيف ولم أعد أتذكر من تفاصيل وجهه الخطوط المتبقية التي أشاهدها كل ليلة في إطاره الذي يصاحبني في حلي وترحالي. بعد عشر سنوات من خدمة البلاد والعباد أعتقد أنه أصبح من حقي أن أطلب من هذه البلاد أن تنصت إلى أشواقي الدفينة، وأن يكون تحقيق هذه المرة عن المهدي. فالمهدي نبتة هذه البلاد الطيبة، لحمه من لحمها ونبضها من قلبه. وليس خطراً على راحتها. لقد تذكروه قليلاً وبنوا له نصباً تذكارياً في شارع ضيق يحلم يومياً بأن يتحول إلى ثعبان أسود، يحمل اسمه. سنتحدث عن هذا الشارع فيما بعد. لم يبق من المهدي إلا إطار صغير يصاحبني في حلّي وترحالي. زاد حقيبة السفر مع هذا القلب الحزين ومع بعض التفاصيل التي ورثنها من أمي التي محت قسوة الدنيا، سواد عينيها. استفدت كثيراً من ملف نساء الشهداء الذي أحضرته الوالدة. حول أوصافه. سماته. ميلاده. حول يوم وفاته الغامض مثل عيون نساء البلدة. تعرفت على بعض الشهود الذين كانوا معه. عمي البوحفصي



الذي تحول إلى حطبة اشتعلت في الصيف الماضي، ساعدنا كثيراً في إعداد هذا الملف. كان يقول دائماً مع حسرة تتمترس في الحلق:

ـ إنها عشرة السجن والعمر يا ولدي.

تصور يا الحسين. يقول عمي البوحفصي. في سجن السواني، كنت مع والدك. عاقبونا بالعزل الكلي والتعطيش والتجويع، خصوصاً المهدي الله يرحمه. حين يعطش، كنت أمرر له الماء من وراء ثقوب الشباك الضيقة بواسطة قطعه قماش مضمّخة بالماء يرضعها كالطفل. وأما قطع الخبز والأوراق السرية والأخبار المخيفة التي كان يبتلعها بمجرد الانتهاء من قراءتها، كنا نربطها على ظهر الخنافس والجرذان. نشدها بخيط رفيع ثم ندق على الحائط وندفع بها إلى الغار المؤدي إلى الحجرة الأخرى التي كان يتآكل فيها المهدي بن محمد. أحياناً تصله بعد انتظار الساعات الطويلة. على ظهر الجرذان والخنافس التي كانت عزيزة. وأحياناً لاتصل أبداً.

هذه المرة سآخذ المسألة بجدية أكثر.

آه يا ربك يا بلقاسم لو تعلم؟ لكنك لا تعلم شيئاً.

الذي آلمني أكثر هذه المرة وزادني تصميماً على إنجاز هذا التحقيق هو رئيس البلدية. يوم واحد قبل تدشين القرية الجديدة كنت فرحاً، عصفور قتلته شهقة السعادة. لأول مرة بعد احتراق عشرات السنين سأرى اسم أبي يرتسم على لوحة شوارع القرية: شارع المهدي بن محمد. أو على الأقل هكذا سمعت في البلدية. توافد الخطاطون من المدن الكبيرة وبدأوا يرسمون ويكتبون في انتظار ولائم التدشين. شعرت بفرح غير محدود يدغدغني وبشموخ غريب يتطاول في أعماقي وبأنفي يطول أكثر من اللازم. صارت البلدة كلها نوارة بطعم الشهد ورائحة أمطار الربيع.

سحبتُ أمي العجوز من فراشها وأخي الصغير الذي تركه الوالد في



البطن قبل أن يستشهد في ظروف غامضة. كان جمع من الناس يحيطون بالقرية الجديدة، لم أعد أتذكر منهم إلا وجه عمي البارودي، ما تبقى من نقاء تراث هذه البلدة. فاجأني تجهمه، فهمت من بعد سره. حين وصل الخطاط حملقت بعين طفولية إلى يديه وهما ترتعشان. انتظرت أن يخط اسم المهدي لكن الذي حدث هو أنه خط اسماً غريباً لم أشعر تجاهه في أية لحظة بأي تعاطف. ربما كان الموقف ذاتياً، لكن هذا هو الذي حدث بكل دقائقه ولست أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة يوم الجمعة وصوامع المدينة وأخي الصغير الذي لا يعرف وجه أبي وطيور النورس التي كنا نقص أجنحتها ونحن أطفال وندفع بها نحو الطيران اليائس. حتى قبة المستشفى التجميلي غزت مخيلتي. حاولت أن أغمض عيني لكنني لم أستطع. شعرت بعمي البارودي يتحول إلى كتلة لحم محروقة، ويذرف دموعاً مثل المسامير، تفحمت على وجهه. كان يعرف القضية جيداً بكل تفاصيلها.

ـ إيه يا وليدي كل شيء غيروه في البلدية. هذا اسم أحد أفراد عائلة رئيس البلدية. أعرفه جيداً، لا صلة له بالثورة. كل الأسماء التي خطوها هي أسماء أقاربهم. عِشْ تشوفْ.

سألتني أمي التي أفقدتها نار المهدي بصرها وبعضاً من سمعها:

ـ ماذا كتبوا يا الحسين؟

ـ المهدي يا يما.

قلتها مجروحاً من الأعماق. وقبل أن أمسح دمعة حرقت عيني.

شكرتِ الله بصوت عال وسارت على امتداد الشارع تبحث بعصاها عن الممرات الواصلة إلى قلوب الناس وتتحسس الحيطان.

ـ لقد تذكروا المهدي أخيراً. أسموه المهدي يا ناس.. المهدي بن محمد. الله ينصر الحق.



دشنت القرية وبدأت حركة الدواب تصم الآذان والأسواق والشوارع. ناس البلدة حتى الآن لا يعرفون للشارع اسماً غير المهدي بن محمد.

في مساء ما بكيت بشكل طفولي. ليس مهماً. المهم في كل المسألة، أني خرجت من هذه الإجازة بضرورة الالتفات إلى هذا الرجل الذي أكلت هذه التربة من لحمه ودمه وعظمه، وإلى نبض هؤلاء الناس البسطاء الذين جف دمهم على رقابنا.

حين التفت إليَّ بلقاسم مرة أخرى بعد أن انتهى من قراءة إحدى مواد الجريدة، صارحته بالحقيقة وبعزمي.

- صدقني يا بلقاسم سأكون موضوعياً إلى أقصى الحدود.

- لكن القضية... مسؤولية.

- أعرف ذلك وأقدر موقفك. الرجل ليس مغضوباً عليه كما هو معروف عن الكثيرين. فقد تكلم لي عنه بعض المسؤولين باحترام كبير وكتبت عنه كبريات الجرائد الرسمية وغير الرسمية.

في البداية لم ير مانعاً لكن خوفاً ما استقر فجأة في حلقه بشكل غامض.

- في كل الأحوال، موضوع مثل هذا يجب أن يُزكى من فوق.

- أطلب من هذا الفوق أن يزكي المشروع.

صمت ولم يقل كلمة واحدة.

في لحظة ما، لا أستطيع ضبطها، شعرت برائحة كريهة تنبعث من فمه أو ربما من كل جسده. بدأ يتكور على نفسه حتى تحول إلى قنفذ في ساحة ملأى بالحشائش والحشرات. بدا لي مثل عروس مصرية محنطة، من بقايا عرائس الفراعنة لا تتحرك من مكانها إلا لترمم ثم تعاد إلى تابوتها المتآكل الذي تنبعث منه روائح لفائف التحنيط.



ـ تعال إلي غدا وسندرس الموضوع مع بعض. وأكون أنا من جهتي قد قمت بالإجراءات الضرورية.

قبل أن أشعر بتوعك وبمغص في الأمعاء، رأيت في عيني بلقاسم خوفاً ملتبساً وغامضاً ربما هو نفسه لم يكن يعرف مصدره بدقة. حملت أتعابي على ظهري وأتعاب القرية والأسماء الغريبة التي تجتاح البلاد والشوارع وتتسلط على شهدائها وصممت أن أضع كل القصة بين يدي بلقاسم. في ذلك اليوم نسيت كل شيء ولم أرَ إلا الوجوه التي غيبتها الحفر. لم أعد أفرق بين الأيام والساعات والأزمنة ووجوه الناس.

عندما زرته للمرة الثانية، كانت عيناه منطفئتين. شعرت كأني غبت عن المكان مدة عشر سنوات. احتياطاً، كانت الاستقالة في جيبي.

ـ يصبحك بالخير السي بلقاسم.

ـ لا أدري لماذا تصر على المشاكل. كلهم شهداء. ونحن في غنى عن التعقيدات. يبدو أن حالة المهدي مزعجة قليلاً لراحة بعض المسؤولين وأنت تعرف البقية. لياقة الأدب تجبرنا على طي الملف مؤقتاً.

لم أقل شيئاً كنت أتأمل وجهه الذي تكاثرت انثناءاته التي كانت تخبئ بينها تقاسيم رجل مهزوم حتى العظم.

أصررت على الاسم. وأصر على تغييره.

ـ أنا أصر على المهدي. أريد أن أعرف هذه الحقيقة الغريبة التي يتغامز بها الناس. إذا كان خائناً سأكون أول من يمحوه من الذاكرة وإذا كان شهيداً، على هذه الدولة أن تقول الحقيقة عن ظروف اغتياله وأن تكف عن الكذب والزيف.

اقترح عليّ أسبوعاً آخر للراحة والتفكير. ذكّرني بالشائعات التي تدور في الجريدة والمرتبطة بتحويلي من صفحة التحقيقات إلى صفحة



الإعلانات والوفيات. كان التهديد مبطناً. وكنت أعرف مسبقاً أنه سيأتي اليوم الذي أُخيَّر فيه بين الشارع أو الموت البطيء على صفحة الإعلانات والوفيات.

تمتم.

ـ أنا عاجز أن أدافع عنك.

وضعت استقالتي على مكتبه. لم أر حسرة كبيرة تفسد صفاء عينيه وتعكر هدوءه الدائم.

الاستقالة يا السي بلقاسم. قلبي متعب وأجنحتي مكسورة والداخل فارغ ومحشو بالطين والتبن. الرأس سينفجر كالبركان. إذا بقيت يا بلقاسم سأخسر ما تبقى من وجهي وأخسر حمو، الشهيد الذي يمشي على أظافر رجليه. سأتحول إلى مجنون يملأ شوارع المدينة بهذيانه المميت.

حاول للمرة الأخيرة أن يقنعني:

ـ أنت تتهور بهذا الفعل. ربما كان ذلك بسبب انزعاج متراكم. خذ أسبوعاً آخر وعد لنا ممتلئا بنشاطك القديم. كن رجلاً مثل جميع الخلائق.

ـ لم أقتنع بهذا الرفض.

ـ في الجرائد يا صاحبي مثلما في الثكنات العسكرية، ننفذ وبعدها نناقش.

رفضت كلامه. ربما كنت مخطئاً، لكن الشيء الوحيد الذي أعلمه هو أن المهدي كان يملأ كل خوائي. ذاكرتي وحضوري.

ـ أنت تجبرني على أن أكون قاسيا معك.

ـ «افعل ما يمليه عليك ضميرك».

ـ أرفض أن أصل معك إلى هذا الحد من السوء.



ـ أشكرك.

بسطت الاستقالة مرة أخرى أمامه ثم توجهت إلى النافذة المطلة على الشارع. شعرت بحركة الناس تتحول إلى بحر متلاطم. الدم يغير دورته. مخي يتوقف عن التفكير. من وراء هذه النافذة التي غابت عنها الأطيار الملونة التي كانت تزورها كل صباح. كانت المواسم الجميلة ترحل وفصل الشتاء يزداد قسوة. تأملت الباصات المكتظة والشرطة وأطفال المدارس وكسالى الشوارع والمقاهي.

حين التفت نحو بلقاسم. كان المكتب خالياً والاستقالة موقعة وقلبي في يدي يأخذ آلاف الأشكال ويتلون بملايين الألوان.

الدم كان يجري عكس دورته.

والعين لم تر إلا اللون الرصاصي الداكن الذي كان يخيم على المدينة.

» ـ أوف، الاستقالة ولا تحويلي إلى دابة في صفحة الإعلانات والوفيات. «

تمتمت وخرجت.



شارع المهدي بن محمد

الله الله يا يما يا حنّا،

دوار العجب راني فيه،

إذا كليت ما يبان عليّ،

وإذا شربت نندم عليه (. . .)

امشِ يا الحسين يا ابن المهدي بن محمد. امشِ ولا تلتفت. وراءك المتاعب اليومية وصفحة الوفيات والصفقات التي تعقد على رأسك. أنت، وهم، والليل الذي يمتد في دمك كالمدية ويجري في عروقك كالسم.

امشِ ولا تلتفت وضع أنفك الطويل بين يديك وتحسس رقبتك قبل أن يفاجئك مقص عملاق ويضع رأسك بين قدميك.

الشارع متعب، امرأة حامل مثقلة حتى العظم بهمّ الغادي والرائح. مكتظ بأرجل الناس وبالروائح النتنة التي تلهب الأنوف. طويل، طويل، كهذا اليوم الذي يأكل دقائقه بنهم. كنت وسط هذا الضجيج أمشي جيئة وذهاباً بدون مقصد واضح، كمن يحاول أن يحرث أرضاً جافة وتربة ميتة.

اختلطت أصوات النساء، والأطفال والدواب وعجلات السيارات القديمة والسارقون وصليل سلاسل ثقيلة كان يأتي من بعد غامض. شارع



تتوالد فيه العصافير المنكسرة والأشياء التي يغلب عليها اللون الداكن. يتكاثر فيه التجار والمشترون والقوادون والسماسرة والذين يحلون ويربطون ويأكلون بالأصابع العشرة وينامون على الريش. ألسنتهم طويلة طول ساعات أيام الحشر. خالوطا يا لطيف.

كنت مصراً على الذهاب وراء المسألة حتى النهاية. تذكرت كلمات بلقاسم كلها. شعرت في لحظة انكسرت على امتداد هذا الشارع، كأن بي خللاً ما في الدماغ أو كأن حركة دمي تمشي بحرارة وعلى غير العادة. فجأة مرّ برأسي أني بدأت أجن. بعد تأمل، فكرت أن آكل نفسي لكنني حرت من أين أبدأ؟ من الرأس، الرجلين؟ الذراعين؟ كل الأعضاء عزت علي، فعدلت عن فكرة الأكل وواصلت تدحرجي.

ما معنى كل هذه الإجازات المجانية؟ هل هي كرم من بلقاسم الذي لا يفعل شيئاً إلا بأمر يأتيه من فوق؟ ما معنى كل هذا السخاء في جريدة في حاجة إلى ساعات إضافية من كل واحد لتبقى حية؟ ربما لو طلبت سنة بكاملها لمنحها لي بدون تردد. شيء غريب.

واصلت تيهي في شارع المدينة كجندي هزم في أول معركة مع نفسه. رفعت فجأة رأسي، رأيت **دوش الهناء**. تذكرت أن لي جسداً لم يلمس الماء منذ أيام ومع ذلك لم أفكر ولا لحظة واحدة بالاستحمام. بيني وبين الحمامات كراهية تقليدية ورثتها عن البلدة التي ما يزال صداها في القلب.

أيقظتني مع سهوي تمتمة رجل شعرت بخطواته ورائي.

ـ عمي الحسين، عمي الحسين، يخصك شوية كيف. السبسي ولارزين.

حين التفتُّ، كان طفلاً صغيراً. جرذاً ما تزال عيناه مغمضتين. لم



أكن متفرغاً للتأمل في تفاصيله. لكني في كسور ثانية ما، أحسست بحزن كبير أكثر من حاجتي إليه.

حاولت أن أستعيد دقائق إجازة الأسبوع. ألم مريم الذي ينمو بالداخل كالنار، أمي. رئيس البلدية الذي لا يعرف من الكلام إلا الشهداء، والبيع والشراء. أخي الصغير الذي كان أكثرنا إحساساً باليتم. فتح عينيه على أب التهمته الغابات وأم فقدت بؤبؤ عينيها وأذنيها وتكاد تفقد لسانها وأحاديث عمي البارودي ووجه عمي البوحفصي الذي لا يتوقف عن ترتيل أحزانه كلما ورد ذكر المهدي: الله يرحمه، كان سيد الرجال. يتألم عمي البوحفصي كالقط الموجوع.

ـ خسرناك يا المهدي. تعلم فيك الأنذال وأبناء الكلب.

لم أفهم سر هذه الجملة إلا وأنا أقدم إلى المحاكمة بعد زمن طويل:

تذكرت المستشفى الذي ركب آذانا طويلة لرئيس البلدية بطلب منه.

آه يا حمو خويا وينك؟ هل تعرف سر ما تقوله؟ كلامك كبير. مدينتنا بدأت تفقد ما تبقى من عرضها.

استوقفني من جديد صوت بائعة البيض والخبز والحشائش التي يتغذى بها أغلبية سكان الأحياء الشعبية. منذ أن دخلت هذه المدينة مرغماً وأنا أصبّح وأعشّي على وجهها المخدوش بآلاف الحفر التي تعمقت مع مرور الزمن. يقال أنها أرملة شهيد. زوجها سقط في مكان ما أو في ظروف غامضة وليس لديها ما يثبت استشهاده مع أنها تقسم برأسه أن هذه الأرض شربت من دمه. تعوزها الأوراق يا ماما حنّا، فمن يأتيها بالشهادة وهي الآن لم تعد تطلب إلا عظام صالح لتعيد ترتيبها وتدفنها باستقامة وتحكي لابنتها التي هربت قصة أبيها الذي حورب في دمه وفي حفرة قبر تتسع لشبر من خمسة أصابع. كانت بجانبها طفلتها الصغيرة تلحس أصابعها المتسخة. الناس هنا يتساءلون عنها كثيراً. هي



تقول إنها تبنتها بالتبني، عوضت بها رحمة التي هربت في إحدى البواخر ولم تعد. لكن وجه الطفلة وعيونها تشبه إلى حد الدم بائعة الخبز والحشائش. بينهما تقارب الهم والنجوم التي بدأت ألوان السماء الرصاصية تأكلها. في بداية الأمر، حين وضعت أثقالها على حافة هذا الشارع، تساءل الناس كثيراً، لكن بعدئذ كل واحد انهمك في خوفه، ولم تعد تهمه السيدة إلا من باب التهكم أو الذكريات. هكذا عندنا، في هذه المدينة. الأشياء تبدأ ساخنة، لكنها تخبو مع الزمن مثل الجمر الميت لتتحول في النهاية إلى بقايا تربة محروقة سرعان ما تبعثرها الأرياح الشتوية. الشيء نفسه وقع للمستشفى التجميلي في بدايات تأسيسه والإشهار له. رفض بقوة لكن بعدئذ زكت وجوده الإذاعة والتلفزيون والجرائد اليومية التي عادت إلى ورقها الأصفر ولافتات الإشهار الضوئية.

آه يا حمّو خويا. مدننا ثقيلة، الأثقل منها جروحنا التي لم يعد شيء يحركها. مرة واحدة تذكرنا الشهداء بحسرة، يوم زلزلت إحدى المدن التي استشهدت مرتين. يومئذ فوجئت بأمي تسلخ عنقها من اللويزات السبع وتقدمها إلى صندوق المنكوبين. أعز ما تبقى لديها من ذكريات عرسها مع المهدي. قبل هذا الزمن، وعدتني بها عندما أتزوج.

« ـ هذه اللويزات لك ولأخيك يوم تتزوجان.

و عندما ذكرتها بوعدها. ضحكت.

ـ المصيبة فوق كل وعد. المحتاج الحزين أولى من الفرحان. رحمة ربي واسعة. أحيني اليوم واقتلني غدوا.

الزلزال ذكرها بابن محمد كما كانت تسميه. في ذلك المساء بكت كثيراً وهي تعلم في أعماق أعماقها، أن هذه اللويزات السبع قد يتقاسمها رجال البلدية ولن تصل أبداً المدينة التي استشهدت مرتين. سينامون بها



في أحد المواخير البعيدة، أو يشترون بها قنينة وسكي. يسكرون بها، ثم يتضاحكون بأفواه الكلاب ملء أشداقهم. لا يهم. لا بد أن يوجد ناس خيرون في هذه الدنيا وإلا ستصير هذه الأخيرة جحيماً.

صوت بائعة البيض والخبز والحشائش أعرفه من بين آلاف الأصوات. يأتيني حاراً مثل رياح صحراوية.

- اسمع يا ولد الناس. يا صحافي آخر زمان. ماذا تخبئ لنا هذه المرة في جيبك المثقوب؟ وقفتك ما تعجبش وإلا جاي تقوم بتحقيق عن حسناوات سيدي الهواري؟

التفت نحوها مرة أخرى. كانت طفلتها ذات العينين الواسعتين تبتسم وتمتص الشكولاطا الرديئة. شعرت بخجلي. الطريق الذي كنت أتمترس فيه يؤدي إلى ماخور المدينة الأوحد. ابتسمت بدورها. ظهرت أسنانها المذهبة من وراء شبه تكشيرة فيها من السخرية والخجل ما يعري رئيس بلدية أو والي ولاية. حاولت أن أصارحها كالعادة.

- ضايعين يا يمّا خيرة. ورحمة صالح ضايعين.

لست أدري هل كلمتها بصوت مسموع أم تمتمت في خاطري. ولست أدري هل سمعتني أم لا. كل ما أعرفه هو أنها نسيتني وسط حركة الناس وانهمكت برجل آخر كانت تمازحه ليأخذ منها خبزاً وبيضاً مسلوقاً.

- المطلوع. الله يخرب بيتك لا يوجد أحسن منه. تسألني أنا عن البولانجي. من وين نجيبو لك؟

وقبل أن تقوم وتعريه من حيائه وغبائه. كان الرجل قد اختفى بين الناس، بدون أن تتحسر عليه. وعادت عيناها تتثبتان من جديد ببداية الشارع وبوجوه الناس المتعبين.

بدأت الأمطار تتساقط بقوة. يعجبني وقعها في قلبي لدرجة الخوف.



يذكرني هذا الجو بمريم التي أكلتها الأزمنة التي مضت. كانت كلما رأت السماء تتغيم، تنام كقطة أليفة تحت معطفي. يأتيني ضحكها وقهقهتها العالية التي تختلط بنقرات الأمطار على الأسطح الزنكية والقرميدية. تصعد إلى أنفها رائحة التربة. تشعل سيجارتين رديئتين. تناولني واحدة وتطلب مني أن أضع الأخرى بين شفتيها. ابتسامتها الطفولية تأسر العالم.

ـ نحبك ونموت عليك. من الصعب أن تجد امرأة مهبولة عليك مثلي. أحرق الدنيا يا صديقي. وانس الهم ينساك. دخن وخلِّها على ربي.

نتضاحك عالياً. نتلون كالعصافير ثم نركض، نركض، تتكسر تحت أرجلنا برك المياه الباردة. نركض حتى يغيّبنا ضباب المدينة وأصداء الفرح والقهقهات التي لا حد لها.

وقبل أن تعود إلى بيتها الصغير في سفح جبل يكتظ بالناس الفقراء، أتأمل عينيها الواسعتين كالأيام الرائعة. تتمتم في شفتي. أشعر بحرارة أنفاسها.

ـ هل تحبني يا الحسين؟

ـ أحبك.

ـ قد البحر. قد السماء.

ـ وسع ما تراه عيناك، ووسع الأحلام الجميلة التي لا تحد.

ثم تختفي وأختفي معها في منحدرات المدينة. يوم سرقتها مني عجلات سيارة سوداء، كانت الشوارع في حداد. تحولت إلى توابيت تضم بين أخشابها آلاف الخلق. عدت إلى البيت وحيداً، منكسر القلبِ. كل ما كان يحيط بي فقد بسرعة معناه.

وسط الهرج والمرج سمعت صوت ماما خيرة يلاحقني ويمتد كالخوف أمامي:



ـ أكتب عنا يا صحافي آخر زمان. الله يلعنها صنعة. لا تعرفون إلا الكذب وقحبات سيدي الهواري. روح. الله لا يردك. آمين يا رب العالمين.

الناس ضاعوا في هذه البلاد. رعية بدون راع. فوضى عارمة لا أحد يتكهن بنتائجها. بدأ الجنون يصعد إلى قلوبهم وأدمغتهم.

بلعتها ساخنة وواصلت سيري وتيهي.

يا لله! هل تعلم هذه السيدة بأني مهموم أكثر منها وأني قدمت استقالتي وأنا الآن عاطل وفارغ من أي شيء. هي على الأقل قطعت علاقتها بالحياة، لا تحمل المسؤولية التي تأكل قلبي.

أتساءل أحياناً، ألم تتعلم بعد هذه الشوارع التي تلد البؤس والموت والغيران والأشياء الغامضة أنها تربي بهدوء وطمأنينة من سيأكلون رؤوسها بعد سنوات قليلة صارت اليوم على مرمى البصر؟

كانت القرحة قد بدأت تفرز حوامضها. شعرت بآلام البطن تزداد أكثر فأكثر. حاولت مرة أخرى أن أنسى همي وأتسلى بوجود الناس وبهذه الحركة التي لا تموت وهذا الشارع الذي أعرفه منذ أكثر من عشر سنوات. لم يتغير كثيراً إلا الوجوه الغامضة التي تتكاثر على أطرافه كالديدان، والأطفال الذين يعدون بحبات الرمل، اليتامى وغير الشرعيين الذي يرمون بهذا المكان في سن مبكرة. يجلسون يومياً على حافة الطرقات. يعدون المارة ويحاولون تذكر وجوههم عند الحاجة، والخيول التي تشبه في أشكالها الخارجية البغال والسيارات العتيقة التي يصم صريرها الآذان. وينتظرون.

الكل ينتظر ولا يعرف ماذا ينتظر. كانت المدينة في خفاء ما تصنع ألد أعدائها الذين يأكلون رأسها ويلوكون كبدها بلا تردد ويمسحون الأخضر واليابس.



ينتظرون شيئاً ملتبساً في أفق أكثر التباساً وغموضاً.

وحين يندفن قيظ الشمس بين الغيوم، يقومون بعياء مثل شيوخ في سن السبعين. بعضهم يدفع عربات الزريعة والكاوكاو. بعضهم يبيع أوراق الحظ، والويسكي والمخدرات. وآخرون احترفوا صنعة قنص الجيوب، عيونهم مثل عيون الطير، لا تستقر في مكان. يعرفون القروي من عينيه ومن شكل ابتسامته ومن حركة يديه وتلوينات وجهه. متوحشون كالقطط. لا تعلم من أين يفاجئونك بتوددهم: عمي تحب الويسكي. الكاوكاو والزريعة. عمي تحب نرفد لك الحقيبة. تحب نورِّي لك الأوتيل وإلا الحمام وين تبات. أو بكل بساطة يمارسون القوادة علانية.

ـ لك يا المسكين، اللي تحب تزها. امرأة جميلة بعشرة دنانير فقط. الرخاء يخلع يا محاينك؟ ممو العين وسالف لونجا. ونزيدك من عندي حفنة لوز باش تقدر لها.

التفت. شعرت بألفة. فجأة تذكرت بأني أعرف هذا الصوت.

ـ هذا أنت يا كريمو. واش راك تدير هنا؟ أمك مع من تركتها؟

ـ يمَّا مدبرة رأسها. وأنا هنا أحترف هذه الصنعة.

ـ كريمو!! هذه صنعة سيئة.

ـ القوادة. قلها. يا سيدي عمّر لي كرشي وخليني قواد. الناس صنفان يا قواد أو يقود عليه. وأنا لم أجد إلا هذه الحرفة... الناس يا صاحبي صار عقلهم بين أفخاذهم لم يعد يهمهم شيء آخر ولست قادراً على تغييرهم. الله غالب.

وقبل أن أدقق في تفاصيل وجهه الطفولي. كان قد غاب بين الناس والسيارات والباعة المتجولين.

حاولت أن أعض أصابعي. أن أنتف شعري شعرة شعرة. أن أصرخ بأعلى صوتي، لكني شعرت بلساني يغيب داخل حلقي كالخازوق.



«وين رانا رايحين يا ربي سيدي؟ حتى كريمو. طفل البلدة الطيب. لحقه غبار المدينة. يا محمد!».

في منعطف آخر. التقيت به للمرة الثانية. تكلم معي وكأنه لا يعرفني. بدوت له غريباً عن المحيط:

ـ عشرة دنانير فقط. وتقبض عليها بقوة. زينة كالنور بيضاء كالشمعة. مش بعيدة. مد يديك فقط. هناك.

ثم أشار بأصبعه نحو بناية عالية تطل من شرفتها العليا امرأة في سن أمي.

ـ رخيصة وحلوفة. وتمارس الحب بشكل مدهش.

مع أن باب البناية كتب عليه، عند المدخل بالضبط بالخط الفرنسي المعوج: بيت شريف. Maison honnête

بلقاسم يخاف على منصبه ولا أدري لماذا لم أنتبه لهذا منذ البداية. يتشبث به كالعلقة. حين اقترحنا عليه أن نقوم بتحقيق جماعي عن هذا الشارع قال إن المسألة جد معقدة، وإذا فتحنا الباب على مصراعيه سيأتينا كل لقطاء المدينة وعاهرات الشارع ويطالبوننا بالكتابة عنهم. أصرّ حتى بدت المسألة أكثر تعقيداً مما كنا تتصور بل ومستحيلة التحقيق. ركبها على بعضها بشكل استعصي علينا فهمها.

لست أدري لماذا أشعر بكل العيون مصوبة نحوي وبالقيامة ستنزل على دماغي. الشارع ليس جديداً عني. عشر سنوات وأنا أحرثه جيئة وذهاباً. بالفعل، بدأت أشك في قواي العقلية. اليوم، داخل هذه العزلة كأني أكتشفه للمرة الأولى. بدا لي كل الناس مجانين. قلت في خاطري، حتى أنت يا الحسين بن المهدي بن محمد، لا تقل جنونا عن غيرك. الفرق بين مجنون حقيقي عاقل مفتعل، واحد لا يتذكر حتى أمه، وآخر يتذكر حتى أدق التفاصيل المؤلمة. حمو الوحيد من المجانين الذي



يتذكر كل شيء. يحمل في دماغه وجوه الشهداء، شهيداً شهيداً. في قلبه توابيت مصفوفة كل بإشارته واسمه. ويحكي تفاصيل حياتهم التي لا يفهمها إلا القلة القليلة.

- خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع.

- مساء الخير أو صباح الخير، عمي حمو.

- نهارك زين يا ولدي. ضاعوا. كلش ضاع. ما بقى والو. كلش مشى. الله يرحم الشهداء.

- عمي حمو، أنت جوعان؟

- عينك ميزانك.

كان وجهه أصفر. نظر إلي بحدة، ثم رجع لينهمك مع الناس الذين يلعبون الورق. اربح يا الرابح. الصفراء تربح. الصفراء تخسر. أنت وزهرك يا المسكين.

الروائح الكريهة تحرق أنفي. تملأ المكان بشكل يدعو إلى التقيؤ. لست أدري ما الذي ذكرني باستقالتي. ترى هل أخطأت بتقديمها. أوف كنت سأتحول إلى دابة هرمة. لا أعتقد أني أخطأت أبداً. لا أعتقد.

«آه يا الحسين يا ولد المهدي بن محمد، عيبك أنك حين تخطئ تبدأ في البحث عن مبررات لموقفك، فتسقط في خواء الذي لا يملك شيئاً غير تبرير كل ما يقوم به ويخرجه على الوجه الذي يقنع فضوله».

أوف. أنا لا أبرر. أنا منكسر ومخي معطل. أنا أقر واقعاً ما زال غامضاً برأسي. وحتى لو لم أقدم استقالتي كانوا عزلوني أو أحالوني إلى الصفحة الميتة. لم أخسر غير ترددي. سأقوم بالتحقيق. سأبحث في كل التفاصيل حتى ولو كلفني ذلك رأسي. سأبحث في حياة هذا الرجل المبهم الذي يعيش بيننا ولا أحد يتجرأ على سؤاله عمن يكون؟ هل علينا



أن نحبه أم علينا أن نكرهه؟ وسأدخل المستشفى التجميلي ولو اضطررت إلى ركوب الحيطان العالية. هل بقي أمامي شيء آخر أخسره؟ لا شيء.

قبل أن أنتهي من عبور كل الشارع بمختلف امتداداته، انعطفت نحو زقاق يتفرع عنه شارع المهدي بن محمد. تأملت مرة أخرى اللوحة الحديدية التي تحمل اسم الزقاق والشارع. بدأت تبيضّ بفعل الزمن، وبعض الكلمات تمحى. ربما بعد سنة أخرى لن يعود هناك شيء اسمه شارع المهدي بن محمد. المدينة ستفقد ذاكرتها.

تأملته بعناد ضامر. شعرت بدموع محرقة تفضح عيني، وبالريح الصحراوية تعصف في دمي وبالأناشيد الوطنية التي تنمو على طرف اللسان، تموت كالعصافير المشلولة.

عبر الزقاق الممتد بآلامه وأوساخه، رأيت نساء تبعن اللذة بأتفه الأثمان وتصنعن أناشيدهن.

آه يا يمّا يا ميما

أنا عييت من كلام الناس.

أرواح لي قبل النعاس،

وديرني في قلبك حميمة.

يا يمًا يا ميما.

يا مريم الجميلة، ماذا يحدث الآن لهذا القلب المنهك؟ تقتلني المساءات الفارغة. لست أدري ما الدافع الذي جعلني أتذكر طفلتي التي تمزقت على حدود المدينة وعيون الناس وغموض الأشياء التي تطوقنا. مقهى المرج الأخضر مازال يتذكر عيوننا الطفولية وهي هاربة من ذعر يمشي في كل الشوارع. أنا دائماً أقول لك، عندما تعدينني بالمجيء، تعالي يا طفلتي أو اعتذري. لا تتخلفي دقيقة واحدة. فانتظارك في هذه المدينة ألم. وحبك ألم. والفرح معك ألم. ومع ذلك كله، فأنت مثلي،



مازلت تحبين الناس الطيبين والبحر والأفق الجميل والشواطئ والجبال التي تلون خضرتها كل الفصول.

أنت تهذي يا الحسين كالعادة. تهذي. متأزم في الشغل. مع الأصدقاء. صديقتك أكلتها المدينة وأنت مازلت كالأبله منتصباً في قلب شارع فج وبدون أدنى الأحاسيس. يداهمك صوت مريم في كل التفاتة. فقد كانت تقرأ الطالع في عينيك.

- لا تقوم علاقة صحية في هذه البلاد إلا إذا كنا أصحاء من الداخل. وكلنا مرضى.

تبعن اللذة وأجسادهن مقابل كسرة محروقة على تنور قديم. حين يرونك في نهاية الشارع تتدلى أعناقهن. بعضهن يسألنك: كيف أحوالك يا شباب؟ كيف أولاد البلدة الشقية؟ واش جبتنا معك من عند أمك؟

أتذكر كهذا اليوم العصيب، رقية خادمة عيشة الطويلة. دخلت إلى الماخور، ذات مرة كما يدخل جميع المرضى في هذه البلاد إلى مستشفى. كنت مرهقا حتى العظم. جسدي مفكك. كل عضو ينام في قارة. شعرت بالحاجة الملحة إلى الكلام والجلوس والبكاء. حكيت لها بنية طيبة عن هذا الشارع الذي يحمل اسم أبي. ضحكت حتى تعبت.

- ما زلت صغيراً يا حسيسن.

- لماذا؟ لأني بغباء سألتك.

- بالعكس. إذا كان هناك شخص أحبه، هو أنت. لا أنا مندهشة لأنك ما زلت تأخذ الدنيا بجدية.

شعرت بنفسي شجرة عجوز أجبرتها الرياح القاسية على التعري من أغصانها. ثم حكيت لها مرة أخرى عن صديقتي التي اختطفتها مني المدن الحجرية. ضحكت من جديد. قهقهت بأعلى صوتها. ثم أخذت تبكي وتصرخ، وكأنها طفل صغير أبعد عن ثدي أمه الذابلين. لست



أدري لماذا، لكن الذي أعرفه جيداً هو أني لم أعد لها منذ ذلك اليوم. وكلما مررت بالشارع، أتأملها قليلاً في أعلى البناية بألبستها الشفافة صيفا وشتاء لمدة خمس دقائق أتحمل فيها دفع الناس وصراخهم ومتاعب المارة الذين لا يرحمون. تتأملني بدورها بعيون طفولية. لم يبق من جمالها إلا عيونها الدافئة. ثم أنزل بعدها مباشرة نحو النصب التذكاري. أحضنه. أقضي ساعات طويلة هناك قبل أن تلتهمني إحدى خمارات المدينة.

شعرت في لحظة ما وأنا أتحمل الرفس والوطء، أن علامات الجنون بدأت تدخل دماغي. سأنتهي نهاية حمو بدون أدنى شك.

المدينة ضاقت حتى أصبحت تشبه عين إبرة.

حمو خويا، هل حدث لك أن أحببت حلماً ثم جاءت يد خشنة ليلاً وسرقته منك؟ حلمك الطفولي يا حمو. هل حدث ونمت على صدر امرأة رائعة سكران ومت وأنت ترضع نهديها الممتلئين؟ هل حدث أن عانقت عيني امرأة شقية مثلك وحين فتحت عينيك، وجدت نفسك في عالم لا تدري هل هو الجنة أم بداية الجنون. أنا متأكد يا حمو من صدق تجربتك التي خرجت منها. اصح مرة واحدة في حياتك وقل ما بقلبك صراحة وبعدها مت إذا شئت. مت وستبقى في القلب وفي العظم حتى تغمض هذه الأرياح الصحراوية عيوننا.

رقية كانت حزينة.

رقية كانت مغمضة العينين. معلقة في أعلى شرفة البناية كقطعة قماش رخيصة غسلت عدة مرات ثم وضعت على أحد الأسلاك الشائكة في انتظار ريح قوية تأخذها معها في رحلتها الدائمة.

عندما وصلت إلى نصب الشهيد كنت منهكاً ومنتهكاً في أحلامي.

كل شيء تلمسه أيدي البشر أو تراه أعينهم يذبل ويتهاوى. على مدار



نصب الشهيد، كان أحد الخضارين الجوالين، يربط حماره هناك ويصيح بملء أشداقه: طوماطيش يا المسكين. الكابويا. الخبيز. الباذنجان. القسبر. الكرافس. المعدنوس (...). هنا كلش رخيص.

فوجئت مرة أخرى بحمو يمسد على رأس النصب التذكاري، تشتعل في قلبه نيران ملتهبة وغابات من الرماد ومسامير صدئة.

- خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع. هاهم حولوك إلى مربط للحمير والبغال؟

يا الحسين ولد المهدي بن محمد؟!! أين كانت كل هذه المصائب مختبئة؟؟ أين كنت مختبئاً؟ هل بدأت أسترد عقلي، أم بدأت أفقده؟ هي ذي المعادلة يا الحسين خويا التي أشعر بعصيانها عليّ.

الخضار مازال يرفع صوته عالياً وحماره يدور ويبحث عن الظل عند أقدام نصب الشهيد. أصحاب الطوابق العليا نزلوا من فوق وتحلقوا حوله كالجرذان كأنه بياع يناصيب، وحظوظ وأرقام. رأسي تكاد تنفجر. لم أشعر باختلاف كبير بين الخضار وبلقاسم مدير الجريدة. كلاهما يبيع ويشتري بحسب شطارته. ومع ذلك، ظل في صفحة الجريدة التي ألصقتها الريح بوجهي، هذا الخبر بارزا بخطوط كبيرة. شعرت بها تستفزني فهي ما تبقى من أشيائي الجميلة التي تنام في عمق الأعماق بداخلي: «**استجابة لرغبة زبائننا يسرنا أن نخبركم بأن الخطوط السعودية تتشرف باستقبالهم على طائراتها تريستار TRISTAR** من هنا حتى مدينة جدة ثلاث مرات في الأسبوع. السعودية تتمنى لكم سفراً سعيداً على خطوطها وتضمن لكم نقل بضائعكم. مرحباً بكم في عالمنا. للاستفسار اتصلوا بمكتبنا الجديد. (...)». في زاوية أخرى من نفس الجريدة: «**نبشركم بميلاد شركتنا الجديدة أحلام للسياحة الوطنية والعالمية. إذا أردتم السفر إلى الجنة لا تترددوا في الاتصال بمكاتبنا القريبة من مكان سكناكم**».



هذه الإعلانات باتت تخيفني. جاءت مع السي بلقاسم في إطار التحولات التي مست كل مناحي الحياة.

ربما كان حمو بفيضه وعنفوان جنونه، أكثر إحساساً بالمخاطر المحدقة بالبلاد.

- الطريق خويا. الطريق. اشتر وإلا خلينا نفوت.

كنت وسط الزقاق كصخرة قذفها جبل بركاني.

متعب حتى القلب. الأمطار زادت من قوتها وأصبحت تجلد كسياف خليجي. الصحيفة ابتلت في يدي أكثر فأكثر ولكني لم أرمها، لست أدري لماذا؟؟ نظرت إلى وجه النصب التذكاري. بدا لي متجهماً وحزيناً. قرأت عليه العناوين الكبيرة التي استطعت التقاطها بصعوبة. التفت برأسه نحو أفق غامض. لم يقل شيئاً ولكنه بصق.

كان الناس يتقاتلون عند أقدامه مع الخضار.

نظر إلي بقوة. أحنيت رأسي ثم واصلت تدحرجي نحو **خمارة الإيمان** التي كانت تفتح فاها بكامل اتساعه.

كنت مبتلاً. بارداً وحزيناً.

ثبتت داخل بؤبؤ عيني حركة النصب التذكاري وهو يلتفت بكامل جسمه نحو جهة غامضة.

حاولت أن أتأكد من صحة ما رأيت، لكن **خمارة الإيمان** كانت قد سحبتني إليها فبدأت أتلذذ بوجوه الناس والدفء، الأدخنة المتصاعدة هنا وهناك ورائحة البيرة العتيقة.



عودة المهدي بن محمد من منفاه

الحزن يتكور في القلب كالدودة.

أتذكر وجهك النبوي الذي لايبرح مخيلتي. أول قبلة ارتجف لها القلب وشعرت بعدها ببرودة غريبة تسري في دمي. لست أدري كم مر من الزمن على تلك القبلة. كانت جميلة وشقية مثلي ومثلك يا مريم. تبدأ الأشياء المحيطة في التشكل الغريب. تدخلها روائح ما يصعب على المرء تحديد طبيعتها. كل رائحة تذكرني بحادثة ما في حياتي. حتى صديقتي التي غيبتها المدينة كانت لها رائحة كلما شممتها انسحبت نحو أفراح الطفولة والتربة الساخنة والقرى الملتصقة بالقلب وبوقع الأمطار الموسمية.

لست أدري ما الذي كان يقذف بي من حالة إلى حالة. لكن المؤكد، هو أني كنت أفتح عيني بصعوبة كبيرة لتواجهني بشكل استفزازي صفحة الإعلانات والوفيات، ووجه بلقاسم الذي أصبح بدون ملامح والمستشفى التجميلي الذي تمركز في وسط المدينة والحامض الذي بدأ يثقب المعدة بقسوة وألم ولون الشارع الداكن مثل الرصاص والنصب التذكاري الذي شاح عني بوجهه لا أدري لماذا، في اللحظة التي دخلت فيها إلى خمارة الإيمان.

كل شيء احترق وتحول إلى رماد تعجن بجوفي.

يالطيف! صاحب هذا النزل مزعج. أشعر بتفاهته. تنتابني رغبة في التقيؤ. نظر إلي بعينين قذرتين. عيناه نافذتان كالنار ومخيفتان. جحوظهما



يعطى حجماً صغيراً لوجهه ويظهر لحيته الطويلة الدقيقة كلحية جدي هرم. لم أعره انتباهاً كبيراً. فأنا أقيم هنا منذ أكثر من خمس سنوات، وأدفع له تعويضه قبل نهاية كل شهر بانتظام حتى لو اضطرني الأمر إلى الاستدانة من عند الأصدقاء الذين أكلوا ملحنا وأكلنا ملحهم. لا يستطيع أن يقف في طريقي على الرغم من أني أشعر أحياناً أن بقلبه غرباناً مخيفة لا تنتظر إلا اللحظة المناسبة للانقضاض. قلبه ليس طيباً ولكنه يخاف من الصحافيين بشكل دائم. يسميهم، أو لنقل كان يسميهم بحقارة كبيرة، كلاب المدينة Chiens de la Ville مغرم حتى العظم بالحديث باللغة الفرنسية. يحكي بعضهم أن جده كان حاخاماً يهودياً، حاول أن ينفذ من الحريق فتفحم هو ونجت الخزانة الحديدية المغلقة بشكل سري. لم تفتح إلا بصعوبة. جاء من منطقة مجهولة واستنب به الأمر في قلب هذه المدينة. بعضهم يقول من سيدي بلعباس وآخرون يذكرون بأن أجداده الأوائل من تلمسان وكل سنة يقوم بحجته هناك. عيناه لا تعرفان من الناس إلا جيوبهم وألبستهم. ويقال في المدينة كذلك، إنه ينوي أن يوسع مملكته، ليصبح فندقه من الدرجة الرابعة أو الخامسة.

تعثرت على الدرج. شعرت بالغثيان لكني قاومت. دفعت الباب بقوة. بدا لي خشنا وثقيلاً ومرهقاً. فوجئت بالسطح ينزل شيئاً فشيئاً، والحيطان الهرمة تتلاقى فيما بينها وبأحشائي تتقلص لتتحول إلى قطعة مطاط أحرقت عدة مرات.

تهالكت على كرسي خشبي عتيق أرى شبهاً كبيراً بينه وبين الجدة التي رحلت في السنة الماضية. تخرمت مثل قصبة يابسة. هذا الكرسي كان لا شيء في هذه الحجرة. أنا الذي قمت بإصلاحه، على الأقل حتى أتمكن من استقبال الأحباب عند الضرورة. هذه الأيام صاروا قلة. كلهم بدأوا يشيحون بوجوههم في الفترة الأخيرة كما فعل معي تماماً النصب التذكاري. حتى حميد شعلة هذه المدينة بدأ يمشي نحو أكثر الطرقات اختصاراً.



عدت أتأمل الحيطان. مخرمة كانت، من بقايا حرب مجهولة. حتى الطلاء بدأ يتكور وينتفخ في بعض الأماكن من فعل الرطوبة. الأرضية متسخة. رائحة كريهة جداً، تنبعث من زاوية ما من زوايا هذا البيت الذي بدأ يضيق على أهله. زاد دوار رأسي على غير العادة وعاد الغثيان يهددني من جديد. أغمضت عيني، ضغطت عليهما بقوة. رأيت فيما رأيت. الأطياف من الغزلان تهرب مذعورة من بندقية لا اسم ولا عيون لصاحبها. رأيت آلة كبيرة، أراها للمرة الأولى في حياتي، تطحن أجساد العباد الهزيلة. رأيت صورة هتلر، لست أدري لماذا مع أني أكره وجهه كدم الأسنان، وقد نبت الشعر على صلعته وحلق شواربه الصغيرة. شاهدته في جلسة جنوبية يقف وجها لوجه مع أمه التي ما لبث أن أكل رأسها، ثم التهمها كاملة. وظل يتألم كالكلب المسعور بعد أن استعصى عليه هضمها، فأصيب بحالة إمساك مزمنة، حتى يوم اختفائه.

شيء ما بداخلي كان قد بدأ في تغيير حركته المألوفة. هناك رغبة كبيرة في البكاء والحنين تنتاب وحدتي هذه. ربما كانت هي نفسها تفاصيل الوضع الذي يسبق حالة الجنون. كبرت واتسعت حتى شعرت بالعالم يضيق بي ويعجز عن تحمل جثتي. في لحظة ما لا أستطيع ضبطها بالدقائق والثواني، تحولت إلى نصف حصان خرافي، امتدت إليه آلاف الأيدي لخصيه. أخرج، أحدهم شفرة حلاقة حادة، كان يغطي وجهه بقطعة قماش سوداء ولزجة، . قلبوني على قفاي ممسكين بقوة بالجزء السفلي من جسدي. كانت الصدمة قوية. صرحت بأعلى صوتي، لكن صوتي كان مكتوماً وكأنهم وضعوا داخل حلقي قطعة قماش أو قطناً مبللاً بالماء والملح. فتحوا رجلي عن آخرهما. صرخت بأعلى صوتي. تساقط الصراخ بداخلي أوراقاً خريفية ميتة. وجدتني وحيداً. أين أنت يا الله؟ إنها اللحظة الحاسمة لكي تظهر وتقلب كل شيء على رؤوسهم وظهورهم. زادت وحدتي أكثر. أخرجوا شفرة جيلات، بيضاء ناصعة وحادة، من غمدها المزدوج ثم أخذ أحدهم خصيتي بقبضته القوية وبدأ يلوي ويشد،



يلوي ويشد ويحاول دفعها بقوة حتى صار الجلد أرهف من هذا الشعور الذي أحمله لأناشيدي الميتة. حاولت أن أتملص من بين أيديهم لكنهم كانوا أقوى من مقاومتي. صرخت مرة أخرى بيأس: يا الله أين أنت. أين أنت يا حميد، يا شعلة المدينة. قل لي ماذا أفعل. إني أعيش حالة الموت بعينين مفتوحتين عن آخرهما. وحيدا كنت. مع الأصداء المخيفة التي كانت تأتي من أبعاد مجهولة. في تلك اللحظة بالذات، فكرت أن أتراجع عن الموضوع. لو تعلم صديقتي ساسافندا بهذه المغامرة سترفضني. إنها تكره المشاكل ووجع الرأس. الله. المهدي بن محمد، كغيره من الشهداء، فليكن الرجل الذي اقترحه علي بلقاسم هو مدار البحث والتحقيق. ماذا يهم. من سيعرف بأني تراجعت. وحدي صممت ووحدي تراجعت. حتى ساسافندا لا تعرف شيئاً. لكن بأي وجه سأقف أمام المرآة. لا وجه يبقى لي أبداً. حاولت أن أقنع نفسي عبثاً. طلبت منهم أن يضيفوا لي يوما واحداً. أرجوكم اتركوني وغدا سأذهب عند بلقاسم وأقبل رجليه. ثم ترددت. ياه. أنت مجنون ولا تستحق تسمية الحسين ولد المهدي بن محمد. لا. لا. سيقبل بعودتي إلى الجريدة، لكن سأتحول في نظره إلى مجرد جرذ صغير لا قوة له بين يديه كما فعلها مع غيري. سأبدو في عينيه إنساناً هزيلاً، منهوكاً، شيخاً هرماً، يقبع في إحدى زوايا مكتبه القديم في انتظار أن يفاجئه الموت. وأنت يا المهدي كيف أقابلك بهذا الوجه الذي فقد ملامحه؟ لا.

كان المهدي يرنو إلي بعينين هادئتين من إطاره، في صدر البيت. كان يتأمل الصغيرة والكبيرة من حركة أشياء البيت. في لحظة ما، انتابني شعور بأنه ما يزال على قيد الحياة. لا قبر له. لا عظام له. لا بلدة ولا اسم له. لا. لا يا الحسين إنها حالة الهذيان واليأس التي احتلت مخك. المهدي سينكسر لو فعلت ذلك. الشهداء هم أنبياء هذا الزمن. إلى اليوم مازلنا نخرج عظامهم من الحفر المهملة، في الغابات والمغارات القديمة، لإعادة دفنهم.



حتى الآن يا الحسين. ما تزال عظامهم تنزف بقوة.

كل شيء فيّ كان ينزف مثل النهر. أخرج أحدهم قطنة بيضاء، وبحركة خفيفة فتح الجلد فتطايرت الخصيتان كلعبتي أطفال. سمعت أصداءهما في بهو البيت. صعد الدم حتى لامس السقف. فتح الرجل الغامض جيوب الجلد وحشا الجرح بشيء أبيض وبدأ يخيطه تماماً كمن يخيط قطعة قماش ممزقة.

كان صراخي يصل أركان الربع الخالي.

حين فتحت عيني بتثاقل بحثت عن خصيتي، فلم أجد إلا جلداً فارغاً مغرزاً ومخاطاً مثل شكارة خيش قديمة. شعرت بالخوف يحيط بي من كل مكان. ذعرت. غزالة سرقتها مخاوف برية خالية. آه يا يما الحنانة، ماذا أقول لساسافند؟ ماذا أقول لمعشوقتي المقحمة التي تآكلت كحيطان هذه المدينة الرثة. فتحت عيني أكثر، لمحت البرادات والتليفزيونات الملونة وأخبار المساء، والفيديوهات تهاجمني دفعات دفعات في محاولة منها لاستئصال ذاكرتي التي صارت مزعجة.

كنت هائجاً مثل حيوان أسطوري.

حين تركوني. ضحكوا معي. قهقهوا. مسدوا على ظهري وشعري، تغامزوا ثم خرجوا متجهين إلى مكان مجهول. كانوا قد حاولوا مع حمّو العمل نفسه لكنه قاوم بشراسة ولم يستطيعوا لأنه في لحظة حلول غريبة تحول إلى غول قادر على أكل المدينة بأكملها. بناسها، وباراتها، ومقاهيها، ونسائها وحماماتها ومقرات جرائدها ومؤسساتها.

شعرت بطعم الملوحة القوي على طرف لساني. حين انتبهت إلى وضعي جيداً، وجدتني آكل نفسي عضواً عضواً، وقطعة قطعة. ومع ذلك شعرت بنوع من الاطمئنان للحالة، فبدأت أبكي وأنتحب كطفل ترك وحيداً في أحراش معزولة عن الحياة.

آه يا يما لو كان تشوفي ولدك الحسين؟

أجهدت نفسي من جديد لفتح عيني، تراءى لي من وراء ملوحة



الدمعة، وجه المهدي مع ابتسامته الهادئة، والإطار الصغير الذي حملته معي من أمكنة بعيدة ومنذ زمن أبعد من الزمن الذي نعيشه مرغمين في عذاب. هذا ما تبقى من ذكريات هذا الوجه الذي أكلته تربة القبر والغموض. المهدي، تقول أمي لم يمت ولا يمكن أن يموت. سيعود ذات فجر. وربما ذات مساء بارد. لكنه سيعود، لأن الدم الذي شربته خضرة الغابات لن يخصب إلا بعودته المؤكدة. بعضهم يقول ويقسم، إن المهدي سينزل على صوامع المدينة مع بداية الكسوف. سيتسلل مع جيش من الشهداء إلى هذه المدينة الهرمة كذئبة عجوز. يؤكد الحكاية، حمو بتراتيله الضائعة.

استيقظ يا المهدي أو قل لي ماذا أفعل لإيقاظك أيها الوجه النبوي الذي حارب الموت بالموت وأحب الحياة بالحياة. استيقظ لم تبق إلا أنت في هذه المدينة. خسرت كل شيء، وربما خسرت شعلة المدينة، حميد الذي بدأ يسقط ضحية تفاصيل الحياة اليومية التي أغرقته في رتابة الموت. وغدا ستطير سسافندا كما طارت مريم مع النوارس البيضاء التي هجرت المدينة. فقدت كل شيء: الخصيتين، العمل والبلدة البعيدة التي تحملت حماقات طفولتي وحماقاتي الصغيرة. صدقني، إني أتمنى أحياناً أن أغوص وسط التفاصيل كالغيمة ولا أعرف ما يدور في هذه الدنيا وأعود من جديد إلى أصلي الأول، إلى حنين الطفولة، الحسين، ابن البلدة الطيب الذي لا يفلسف الحياة كثيراً. يشتغل بحماس كبير. وفي المساء حين يعود متعباً، يتلذذ بالحالة التي يصعب تفسيرها. يسخن الماء. يغسل جسمه بكامله من عرق اليوم، ثم ينام قرير العين وحين يغمض أبناؤه عيونهم (أولاد الحرام لا ينامون، يتلصصون) يتزحلق ليعترف على صدر زوجته بكل دفء، بحبه لها وبالحماقات التي مارسها قبل أن يعرفها.

آه يا مريم محكوم علينا بالموت والتنفيذ فقط مؤجل إلى ما بعد الكسوف. ويا المهدي يا بن محمد، لو تعرف. لو تعرف ماذا يجري



باسمك في جحور هذه المدينة المنتهكة في عرضها. سأجعلك تعرف كل شيء لأني أدرك جيداً كل التفاصيل والحماقات التي يحملوننا مسؤوليتها. سأجعلك تندم على موتك.

قمت بصعوبة من مكاني. اقتربت من صورة المهدي أكثر. الأرض تموج بي كالبحر. الإطار يغيب ويظهر. لا يستقر على حالة. الوجه متلف والصورة غير واضحة. تتضح قليلاً كلما حاولت فتح عيني إلى أقصاهما. قم يا الحسين. لا تقم. قلت لك قم يا ولد الحرام وقف بإجلال أمام هذا الرجل غير العادي. ثم ولا تكن مثل الشيطان فتفقد الجنة والنار لتعيش في اللامكان. قمت من جديد. وقفت لكن قدمي لم تتحملاني كثيراً. الأرض سديمية. شعرت بنفسي صخرة كبيرة قذفت من جبل واستقرت على حافة ما من منحدر كبير لا يوجد تحته إلا الفراغ. تدحرجت في مكاني. حاولت مرة أخرى. شعرت بالألم بين رجلي. تأملت الإطار من جديد. هذه المرة بانت لي عينا المهدي صافيتين على غير العادة، واسعتين ورائعتين كفجر ربيعي، المهدي. آه يا بن محمد. عليك أن تنزل من برجك. لقد تعبت من انتظارك. عليك أن تنزل قبل أن تنزلني المدينة إلى إحدى حفرها ولا أراك إلا في الأحلام.

في تلك اللحظة لست أدري ما الذي وقع لي وما سر الحالة التي شوشت دماغي وأذني وعيني. سمعت صوتا شق الأرض التي كنت أقف عليها حافي القدمين. بدأ كل شيء يتحرك، حتى أدق الأشياء الصغيرة التي تملأ أطراف البيت. أغمضت عيني برهة من الزمن في محاولة مني لاستجماع ما تبقى من قواي الضائعة، وحين فتحتهما أشفقت على حالتي كثيراً. فقد كان قلبي قد تحول إلى قطعة خشب يابسة من الدهشة. الله؟ المهدي بن محمد يتحرك؟ تلمسته. اهتزت يداي. حق محمد إنه يتحرك. شفتاه تنفرجان. تتسع ابتسامته الجميلة أكثر. عيناه تنفتحان بشكل جميل وترمشان بحنان. الإطار يتسع أكثر فأكثر حتى يصل رأس الخزانة القديمة. حرك يديه. كانتا هزيلتين، متعبتين، عليهما بقايا البارود



وآثار الكلاليب الصدئة. اهتزت ثيابه العسكرية مع النسمة التي نفذت من شق النافذة. سقطت قبعته من على رأسه. انحنى بهدوء ليرجعها بعد ثانية واحدة إلى مكانها الأول. تأمل علم البلاد الكبير الذي كنت أزين به صدر البيت. اعتدل في وقفته بشموخ. رفع يده إلى جبهته. مكث أكثر من دقيقة على وضعه، ثم ابتسم ابتسامة عريضة بانت من ورائها أسنانه العاجية الجميلة. تقول أمي إنه مات ولم يفقد سنا واحدة، ظلت كلها سليمة. مدّ يده إلي، دافعاً في الوقت نفسه بالإطار الفارغ إلى جهة الحائط، في أحد الزوايا المهملة. تأملته لحظة اندهاش صعب عليّ تصديقها. قرصت نفسي حتى أخرج من الحلم لكن حركة المهدي لم تتوقف. شعرت من عينيه بمسحة حزن عميقة رغم الإشراقة التي فاضت على وجهه.

مسحت عيني من جديد لأتفرغ للمشهد أكثر.

سمعته يتمتم أو على الأقل هكذا بدا لي الأمر: لا يا الحسين، أنت في صلب الواقع. أنت لست في حلم يا بن أمي. إنها الحقيقة يا ولد عيشة المنورة.

تلمست يده بخوف في البداية. ترنحت في مكاني ثم بدأت أقبلها وأبكي حتى شعرت بأنه لم يبق بعيني إلا المحجرين الفارغين. هزني من كتفي. واش بك؟ تشجعت ثم انتصبت أمامه وأنا أصطنع توازناً مستحيلاً. شاهدت الابتسامات تتراجع من شفتيه. تحول وجهه إلى قطعة حديد ساخنة. ربما رأى بقع الدم بين رجلي من جراء عملية الخصي، لأن نظرته ظلت مثبتة على حجري. خفت منه في لحظة ما. خُيل لي أني بدأت مرة أخرى أسمع صوته الحزين: لا يا الحسين، مازلت ابن المهدي بن محمد، وابن عيشة المنورة. أنت لم تفقد شيئاً. قامتك شامخة وعيناك حادتان كعيني الطير الحر. ارفع رأسك، نحب نشوف وجهك.



أخذتني شهقة دفينة. آه يا المهدي أيها الرجل العظيم. لو تعرف ماذا وقع بعدك. لو كان تعرف واش داروا فينا.

عاودني البكاء من جديد.

انحنى بقامته العملاقة علي وقبلني على وجهي ويدي. كانت قبله حارة مثل الجمرة. هو كذلك كان حزينا. تحمل عذابات أكثر من عشرين سنة من النسيان. ربت على كتفي ثم هزني بقوة. واش بك يا الحسين؟ مازلت ابن البلدة، ومعدناً ثميناً. إنهم يريدون أن يقنعوك بأنك رجل مخصي. إنه الحلم الدموي المشوه الذي أسكنوه بدماغك منذ أن فتحت عينيك في هذه البلاد الواسعة. لا تستسلم. الشهداء لا ينامون. ما تغلطش.

بدأت الأشياء الصدئة تتحرك في رأسي.

ومع ذلك يا المهدي فقد خصوني وهذه بقع الدم تملأ سروالي. لقد فكرت في لحظة ما أن أخون دمك، وأن أتراجع. ومن يفكر في شيء مثل هذا معناه أنه قادر على القيام به حين يتوفر له الظرف المناسب. رأيت فجأة وجهه يتجهم ويصير داكناً مثل غبار الرماد. قلتُ لك مازلتَ قادراً على الوقوف على ركبتيك بقوة. لا تكن صغيراً يا بن المهدي بن محمد. لا تكن ساقطاً في زمن صعب وكاذب كهذا.

فجأة بدأ الصحو يدخل قلبي وعيني.

شرعت النوافذ كلها وحاولت أن أتذكر تفاصيل اللحظة. هاه، كنت حزيناً حين غضب مني النصب التذكاري وأشاح بوجهه عني. كانت الأمطار قاسية حين انزلقت إلى إحدى الزوايا الدافئة في حانة الإيمان. شربت كثيراً أنا وعمي حمو. حكي لي كثيراً عن الناس الذين عرفهم قبل أن يستشهدوا. كان مثل المحموم. أدخلني عالم المجانين الذين تقيم في عيونهم رفات الشهداء. كان حمو في كامل صفائه ولم يكن مجنوناً أبداً. لم يتلعثم مرة واحدة وهو يتكلم، لكنه في النهاية قبل أن تتقيأنا الحانة بدأ يعوي مثل ذئب أتعبته البراري ثم خرج يجري وقبل أن أكلمه مرة



أخرى كانت الشوارع الخلفية قد التهمته ولم أعد أسمع إلا صراخه الذي كان يقطع صدر هذا الليل المظلم.

خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع.

عدت من جديد على أعقابي إلى الحانة. كنت قد بدأت أترنح وعيناي لم تعودا قادرتين على رؤية تفاصيل المدينة. أخذت أشيائي وأوراقي ثم خرجت. أدراج البيت صعدتها بصعوبة كبيرة.

توجهت إلى المغسلة. بللت رأسي ووجهي. شعرت بأني كنت فعلاً ثملاً حتى العظم. حمدت الله أنها مجرد سكرة وسيأتي بعدها الصفاء. وأن قصة المهدي ليست أكثر من حالة التباس يصاب بها السكران.

كان الهواء البارد الذي دخل من النوافذ المشرعة منعشاً. فتحت عيني عن آخرهما. اتجهت مباشرة نحو الإطار الذي أعلقه عادة في صدر البيت. لم أجده. وجدت الوضع السابق بكل تفاصيله. الإطار الكبير الموضوع في الزاوية. بعض بقع الدم. الروائح الكريهة: هززت رأسي طويلاً لأتأكد أن حالة السكر انتهت ولكن عبثاً. كل شيء كان يوحي بالحقيقة. المهدي في مكانه كما تركته قبل أن أدخل إلى المغسلة. متعباً كان، يجلس على أحد الكراسي العتيقة. وجهه أغبر. عيناه غائرتان، متعبتان رغم الصفاء الذي كان يشع بداخلهما.

طلب مني منشفة. قدمتها له بسرعة. توجه نحو المغسلة بدون حتى أن يستشيرني عن المكان. سمعت صوت تكسر الماء في المغسلة. حين عاد من جديد. كان وجهه أكثر صفاء. شعره ممشوط. اللحية الكثة المحترقة خففها كثيراً. وضع حذاءه داخل الحمام ثم جاء ليجلس بقربي.

ربت على كتفي. تلمس وجهي ثم أدخل أصابعه بين شعري وبدأ يحك رأسي وكأني طفل صغير.

ـ والله كبرت يا الحسين ووليت رجلْ. قل لي واش راك داير في هذه الدنيا؟

ـ لا شيء. تعودنا على الدنيا. مرة نشدها ومرة تشدنا بقوة.



ـ شايفك حزين.
ـ لا. فقط القلب مليان بالدود. هذه المدينة تخصينا من رجولتنا يا بابا المهدي.
صمت قليلاً ولم يقل أية كلمة.
حك جبهته بحزن. شعرت به يذرف دموعاً استقرت ساخنة بقلبه. تلمسته من جديد لأتأكد من وجوده مرة أخرى. هو بلحمه ودمه ولباسه الذي تصور به لآخر مرة
ـ طيب يا الحسين، ألم تكن تريد أن تراني؟ ها أنا ذا أمامك.
ـ لا أدري إذا كان من الصواب البدء بالمشاكل. تصور يا المهدي، فقدت كل شيء. العمل. الناس. الفرحة. المدينة.
ـ حالة يأس قاتلة. أنت في بلد الآن صار مستقلاً وهذا وحده يمنحك السعادة كلما انغلقت عليك أبواب الدنيا.
ـ هذه هي المصيبة. تعرف يا بابا المهدي ما هو حلمي الأكبر؟ أن أركض حتى الموت وراء قضيتك. أنت تؤرقني ولا أدري إذا ما كان علي أن أحبك أم أحقد عليك.
ـ لم أفهمك جيداً يا الحسين!
ـ لقد صممت على القيام بتحقيق يتصل بكل تفاصيل حياتك ووفاتك. ولا يهمني إذا كنت قد طردت من عملي لهذا السبب.
ـ لكن المسألة ليست بسيطة بالصورة التي تبدو لك من أول وهلة.
ـ بدأت أتأكد من ذلك.
وحكيت له في تلك الليلة عن كل الأشياء التي كانت تؤلمني. فأنا منذ عشر سنوات أو أكثر وأنا أقوم بتحقيقات عن شهداء لا أعرفهم إلا من الكتب ومن أفواه الناس ومن آلامهم. وأتصور أنه أصبح من حقي أن أمارس هذه الشرعية الممنوعة. إجراء تحقيق عنك وعن الملابسات الغامضة التي أحاطت بوفاتك. استشهادك. قتلك. إني أتألم كثيراً يا بابا المهدي. في عينيك حنين القرى البعيدة وحياء مريم. مريم مسكينة.



قالت ذات يوم وهي تحترق على صدري يجب أن أحذر عينيك. إني أخشى أن أغوص في قلبك ولا أستطيع بعدها مقاومة حبك. يجب أن أحذرك منك يا الحسين. أحبك وأخاف المدينة التي لا ترحم وعيون البشر المصوبة كالبنادق نحو كل الأشياء الجميلة. قلبي متعب يا بابا المهدي وأخشى أن تفاجئني ذات مساء سكتة قلبية قاتلة أو انفجار في الدماغ.

حكيت له عن كل التفاصيل الدقيقة. عن أمي التي مسحت حرقةُ الدمع بؤبؤَ عينيها. عن أخي الصغير الذي لا يعرف وجهه وفطم كالقط في سن مبكرة. عن عمي البوحفصي الذي التهم الموت ما تبقى من عظامه. عن طقوس البلدة التي لم تتغير منذ أن غادرها في ذلك الصباح الربيعي وكانت الغابات وقتئذ تذوب خوفاً تحت دوي الأحذية الخشنة ووقعها.

متعب حتى العظم يا بن محمد.

كنت أتكلم بألم ظاهر، بينما كان يستمع، وفي الوقت نفسه ظل منهمكاً في تأمله للحجرة الضيقة، المتسخة والسقف الذي انتفخ وأصبح يهدد يومياً بالانهيار على رؤوسنا. إذا ركض طفل صغير على سطحه تشعر كأن القيامة ستنزل على رأسك. مسح المطبخ بعينيه. قاعة النوم. الفراش الذي لم يغيره صاحب النزل منذ أن وضع يده، قبل سنوات، على خزينة والده المتفحم. تمتم بكلمات في غاية الدقة والأسف لم أفهمها جيداً في أوانها لكنني في الوقت نفسه تذكرت حمّو. حمامة المدينة المذبوحة. شعرت بعينيه تستفزانني.

ـ ألم يوجد عمل آخر غير هذه الصحافة المتواطئة؟ كان يجب عليك أن تبقى في النار كالنخلة ولا تستقيل. التغيير من الداخل ولو في أصعب الظروف وأعقدها. الهروب إلى الأمام مذلة يا الحسين.

كم كنت أود أن أصرخ في وجهه بأعلى صوتي ولكني كنت جبانا من



كثرة خوفي من فقدانه. آه يا المهدي خويا كلماتك قاسية وعيناك أكثر قسوة. الزمن تغير يا بابا المهدي. إذا بقيت بالداخل، لاشيء يتغير. الطاحونة ضخمة، تلتهم كل من يقف في طريقها. أنا الذي سيتغير ونحو الأسوأ. إنهم، يا المهدي بن محمد، يتعاملون مع الشهداء بخوف لا يحد وبذعر يطمس عيونهم. شارعك يا المهدي تباع فيه اللذة بأتفه الأثمان. نصبك التذكاري تربط فيه حمير الخضارين الجوالين.

في لحظة ما، شعرت بعينيه تحمران. فاضت الأشياء الدفينة في حلقه. حاول أن يصرخ لكنه لم يستطع. وقف شعر رأسه باستقامة.

ـ أولاد الكلب داروها بنا. دفنونا ثم راحوا يبيعون ويشترون. وصلنا إلى الزمن الذي كنا نخافه. دفنونا أحياء ثم عادوا منتصرين، يشربون نخب الشهداء. الدنيا تمشي بشكل معكوس. أنت عاطل عن العمل وأنا مشقوق في الداخل كالرخامة.

ـ إنهم يقلمون أظافركم بالتقسيط يا بابا المهدي.

أخرجت له من تحت الكرسي بعض القصاصات الصحفية التي كنت قد حضرتها. تأملها جميعاً. فجأة استقرت عيناه على واحدة: **«فندق «روزفلت» بالعاصمة. خمس نجوم. يرحب بكم من جديد. بطاقمه الأجنبي. كل مساء رقص مع فرقة البوني ـ إم وحوريات التاهيتي ماعدا أيام الجمعة. ربطة العنق والهيئة الرفيعة، أمور مطلوبة إجبارياً. تعالوا. وتذوقوا راحة فندق روزفلت». ستجدون ما يسركم ويبهجكم ويريح عن خاطركم»**.

فجأة وضع يده على صدره. حاول بصعوبة أن يتحسس نقطة الألم. انفرجت عيناه عن آخرهما. حين حاول أن يحرق القصاصة، كان نصفه السفلي قد تحول إلى حجرة بركانية يابسة امتدت حتى التربة مثل جذور شجرة خروب مسنة. أعاد قراءة النص بصعوبة. لكنه حين جرب أن يبكي لم يستطع.



ـ كل شيء تبدل يا الحسين. لم تبق إلا السهرات في فندق روزفلت.

ـ أنت لم ترَ شيئاً يا بابا المهدي. سلالتكم بدأت تنقرض. سلالة بني كلبون يعاد بعثها الآن.

أغمض عينيه طويلاً. مرة أخرى اختلت الابتسامة بين شفتيه وحل محلها وجه حديدي صارم أتعبه السير والأتربة وشقاء الهلع والذعر وشخير الآليات العسكرية التي تأتي محملة بالموت.

ـ ممكن قهوة يا الحسين. رأسي يكاد ينفجر.

ثم أغمض عينيه وترك نفسه يتهالك بعياء على الكرسي القديم. دارت الدنيا قاطبة في عينيه. تمنى في لحظة ما، لو لم يعد. لو لم أزعجه. لو بقي جاهلاً كل التفاصيل المقلقة. نحن هكذا. نبتة غريبة. نريد أن نعرف كل التفاصيل وحين نعرفها وتحرقنا، تبدأ درجات الجنون ترتفع في أدمغتنا.

حين جئته بالقهوة كان قد انكفأ على رأسه ونام على الطاولة القديمة. لم أرد إزعاجه لأني كنت أعرف مسبقاً أن بركاناً خامداً، كان قد بدأ يتحرك في رأسه. بيننا الأيام يا بابا المهدي بن محمد وأنت وعدتني بأنك ستأتي كلما طلبتك. قلت مع ابتسامة قبل أن تحترق على جمر الكلمات والأخبار الإذاعية. سنلتقي ونجلس قليلاً مثل الصحابة، في خلوة ما. نتذكر الأيام التي مضت، وعيون الأطفال اليتامى وخضرة الغابات التي تفحمت والشهداء الذين يلعنون قبورهم ويتهيأون للعودة. سنقوم بإعداد الملف. كل واحد من جهته. لديك الأخبار والتجربة وخبرة المحارب ولدي العصر وغليانه. لم أعد أخاف من أي شيء فقد خسرت المدينة بكل جمالها وعيونها الواسعة. وغداً ربما ستأكل ساسافندا ما تبقى من رأسي الذي بدأت آلامه تقوس ظهري.

شعرت بالمهدي متعباً وبالدموع تتحجر في عينيه.



لست أدري هل كان حقيقة أم هي إغفاءة المحارب، لكن الذي أستطيع التأكيد عليه هو أنه دفن وجهه على الطاولة، بين ذراعيه.

أغلقت كل النوافذ المشرعة ثم توجهت إلى الحمام. أدخلت أصبعي في فمي ثم تقيأت حتى شعرت بقلبي يخرج من عيني ومن فمي.

ـ المدينة تستفز راحتكم يا بابا المهدي. من عظامكم تبني فنادقها وتشرب صبحاً ومساء نخب من ذبحتهم من الرقبة.

لم يرد علي. كان ما يزال داخل إغفاءته.

في الفراش انتابني رعب لم أستطع فهمه.



أرشيف الخوف

الطريق على قصره متعب.

ماذا أقول لكم بعد كل هذا؟ وماذا لو قلت كل شيء؟ لا حرج على من هو في مستشفى المجانين مثلي.

هل أنا خطير لهذه الدرجة التي تدعو إلى الذعر والخوف من شيء أحمله وراء عيني يشبه الغموض؟ مريم كانت تقول دائماً بشيء من الحزن: أتعلم يا الحسين؟؟ يحدث لي أحياناً أن أخاف على نفسي منك. وعليك مني. أنا أحمل في عمق أعماقي نزعة تدميرية قادرة على إفساد كل الأشياء الجميلة. أخشىٰ من عينيك أن تحرقاني. مقاومتي أمامها تبطل. فأجدني من حيث لا أدري أهرب منك وإليك. شيء ما في يصعب عليّ فهمه وهضمه. أحاول أن أنزلق خفية من عينيك، لكن فجأة أجد نفسي أحترق بين يديك كالفراشة. وأنت رأسك خشن. مسيردي وزاد له راس شاوي. ربي وحده يعلم أين ستقودنا هذه العلاقة. ربما يكمن جمال هذه الحالة أصلاً في غموضها. في حالة تصوفها. تفاصيل عشناها لا أعرفها إلا أنا وأنت. إنها الزاوية السوداء، مسكننا السري الذي في دماغ كل واحد منا. يحدث معي أحياناً أن أحاول إقناع نفسي بأن لا أراك مطلقاً وأن أبتعد عن قلبك قليلاً. أن أودع هذه العيون التي تعذبني براءتها وطفولتها. لكني بقدر ما أبتعد، أشعر بأني أقترب منك أكثر من أي زمن آخر. إنها الحالة يا الحسين التي يستعصى فهمها.



في الظاهر يبدو خوف بلقاسم غير مبرر ولكنه في العمق لا يخطو خطوة إلا إذا حسبها بدقة. صار يخشاني وكأني مجرم مندس بين الحروف والكلمات والأوراق الصفراء للجريدة. رئيس عصابة لا أحد يعرف وجهه الحقيقي، أسماؤه كلها مستعارة وتوقيعاته وهمية.

والمدينة. المدينة تضطهدني في صدقي وعنفوان طفولتي.

يما عيشة المنورة التي أمضت أكثر من سنتين وهي تعد ملفك تعبت كثيراً يا بابا المهدي خويا كادت تترك القضية لرجال خيرين ربما سيأتون بعد زمن غير محدد على الإطلاق، أو لشهيد سيعود من قفر الغابات والوديان ليثبت بالأوراق والوقائع والأحداث أنك كنت شهيداً وأنك كنت صديقه الروح بالروح، والدم بالدم. يا بابا المهدي لو تدري؟ إنهم يشككون في صفة الشهيد فيك. تلك السيدة التي فقدت بؤبؤ عينيها عاشت غيابك بعمق الأنبياء وبصوفية الأولياء الصالحين. عاشت سنوات على ما تجنيه من صنع الصوف ومن الزكاة التي كان يتصدق بها أزواج خالاتي الميسورين وما كنت آتي به أنا من التهريب. أنا الطفل الذي غادر القرية مجبراً ليتحول بسرعة إلى رجل في سن الأربعين. طفل خرج من خُرْج الحلفاء والأسواق الشعبية. أوضع في عين الخرج اليمنى وفي العين الأخرى توضع صخرة موازية لوزني أو أكياس الطحين وأقطع الفلوات مع جدتي. الرأس محلوقة عن آخرها خوف أن يعشش فيه القمل، والأنف يجرحه المخاط الذي لا يتوقف عن السيلان صيفاً وشتاء. لا ترى عيناي غير ما يمكن أن يؤخذ من الدكاكين الصغيرة ويهرب من وراء الحدود القريبة.

الحاجَة بنت الكلب لا ترحم.

كلمة جدتي المعتادة. فهي تبدو في حالات انزعاجها وكأنها لا تعرف



غيرها. ورثنا من حرب الدمار بغلاً ثقيل الدم ومع ذلك، فقد كان ينفع العائلة لحل كل مشاكل التنقل وطحن الحبوب ونقل الأغراض الثقيلة.

لو تعلم يا بابا المهدي ما فعلته أمي من أجلك، ستقدسها وتعبدها. لا أتصور أنك كنت ستفعل ما فعلته. يبدو لي أن الرجال مركبين بشكل سيئ. بسرعة نقنط ونيأس. وصلت مع عمي البوحفصي، الله يرحمه، إلى أن تثبت للجميع أن لك قبراً في مكان ما في هذه الأرض الواسعة ووضعت لك شاهداً رخامياً كتبت عليه: **هنا يرقد المرحوم الشهيد المهدي بن محمد زوج عيشة المنورة. تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه**. حتى الآن تحتفظ بقطعة الرخام وتنتظر اليوم الذي تلم فيه عظامك وترتبها عظماً عظماً ويبنى لك قبر في هذه البلاد، لتضعها على رأسك. عمي البوحفصي من الناس الطيبين القلائل ومع ذلك لا تخلو منهم البلدة. خيره سابق. بين أن ندرس ونتعلم يا بابا المهدي وبين أن نتحول إلى مهربين محترفين، كان يفصلنا شبر واحد فقط وربما أقل. أحياناً أقول إن المصادفة سيدة الحياة. وأحياناً أخرى أقول لولا وقفة عمي البوحفصي لكان كل شيء قد انهار.

فقراء درسنا.

فقراء كبرنا.

وفقراء عشقنا. وها فقراء ما زلنا يا بابا المهدي.

هل تدري أن استشهادك جعلنا نستفيد في دراستنا من النظام الداخلي. وبفضله دخلنا المدن الكبيرة التي لم نكن نراها حتى في الأحلام. فلاحون أشقياء حتى العظم وجدوا فجأة على أرض لا تنجب إلا اليباس. في البداية كانت هناك صعوبة كبيرة في التلاؤم مع أجواء المدينة المؤكسدة. في لحظات الحزن والحنين، كنت يا المهدي خويا أفضل بقاءك بيننا على هذه الداخلية المجانية. أيام الآحاد التي كانت تأتي



بسرعة غريبة. أتأمل وحيداً الآباء وهم يزورون أبناءهم ويسافرون مع بعضهم. يلتقون. يتعانقون. كنت صغيراً بعيون ريفية. تعلو الابتسامات بينهم. وفي داخلهم ينمو البركان الحارق وتنمو معه أشياء تشبه حرارتها، حرارة الدم. في فترة الاستراحة يخرج من يخرج. ويدخل من يدخل وأعود منكسراً إلى إحدى القاعات المهملة وسط هذه الثانوية المخيفة. حتى يما عيشة المنورة لا تستطيع أن تأتيني مرة كل أسبوع. فأضطر في أغلب الأوقات إلى السفر وحيداً في الحافلات القديمة التي علا الصدأ أطراف أبوابها. أتصارع في زحمة الناس للحصول على بطاقة سفر وأفكر في العودة وفي أمي وفي ثمن تذكرة الإياب. حين تبصقني الحافلة في البلدة أشعر فجأة بالصمت المخيف. تستقبلني خزرات الوجوه الريفية التي تقضي كل أوقاتها متكئة على حائط مدرسة قديمة أو بقايا مدرسة. تراني أمي من بعيد، يختلط جريها بتمايل تيجان القمح والشعير والحشائش العملاقة وأشعة الشمس الربيعية. تقبلني على جبهتي وعنقي. تشد على عصابتها بشكل جيد. تطرد الكلب الذي يحاول أن يدخل بين رجليها. كيفك يا وليدي كيف ناس المدينة. قالوا البارح قتلوا واحداً قدام المدرسة انتعكم. قل لي مش بصَّح. مش بصَّح يا يما. الناس يضخمون كثيراً. وأنتِ كيف أحوالك. تتمتم بحزن: كما راك تشوف، عايشين مثل جميع الخلائق. نأكل ونشرب ونحمد الله. نفرح أحياناً وأحياناً أخرى نحزن وربي موجود والمسكين ما يموت من الجوع.

صحيح يا أمي، المسكين لا يموت جوعاً ولكنه يموت قهراً.

أمي أمضت وقتاً من النار في إعداد ملفك يا بابا المهدي عليك أن تجلس عند أقدامها العمر كله وتتعبد لنكرانها لذاتها. لم يكن همها الدراهم على الرغم مما للدراهم من قيمة كما كانت تقول جدتي التي عاشت معنا العمر كله قبل أن يملأ تراب القبر فمها ويخرم الدود أسنانها



الاصطناعية. قبل أن تموت، ألحت على أن ندفن معها مسبحتها وزنارها الحريري. تقول وهي خير القائلين، إنه لا يجوز على المرء مهما كان أن يلقي ربه بفم مخرم وألبسة رثة، الملائكة تهرب من الأشياء المهدمة. همُّ يما عيشة كان البحث عن طريقة مثلى لإعادة الاعتبار لك. لقد بدأت عظامك تضيع. الكثير من الذين عرفوك تنكروا لك يا المهدي. تنكروا لك ولأمي التي بكت الدم من عينيها. تجلس على حافة الوادي، تغسل الأقمشة المتسخة وأغطية البورابح والكاشات والحصائر وتبكي حتى إذا لاحظ أحد حمرة عينيها عادت إلى البيت وأخرجت مغزلها القديم وبدأت في لف الصوف المتراكم في الزوايا. رجلاها تحولتا إلى قديد من جراء انتعال حذاء ميكا العتيق. تعبت في بحثها من دار إلى دار لغزل الصوف. ومن بلدية إلى بلدية لتعيد لك إشعاع عينيك اللتين أغمضتا قبل الأوان.

الأنجم وحدها، كما كانت تقول، تعرف قسوة متاعبها.

الذين عرفوك مسحوا أيديهم من عرقك ودمك. كل واحد قال إنه لم يكن يعرفك أكثر من معرفته لحيطان هذه البلدة. والذين ذهبوا بعيدا في اعترافهم بجميلك قالوا، إنهم رأوك تغادر البلدة ذات صباح بارد، وتقبل أطفالك واحداً واحداً ثم غصت في قلب إحدى الغابات، منذ ذلك اليوم لم يسمع أحد خبرك. غبت ولم يروك ولم يسمعوا عنك أي شيء. قالوا إنهم قبل أن تأكلك الهضاب العليا وينام اسمك ودمك في صمت الوديان، رأوك تلوح بيديك لأطفالك وللبلدة التي كان حبك لها يقودك نحو أقصى درجات الجنون. شهادة عمي البوحفصي وعمي البارودي كانت قوية. فقد أكلت حيطان السجون المشتركة من عظامكم معاً. أمي في لحظات انهيارها فكرت بترك كل شيء. كانت دائماً تقول، يجب أن لا نكذب على الذين ماتوا. الحي يغفر الكذبة أما الميت لا يستطيع. فهؤلاء الناس في مصاف الأنبياء والخالدين. مال الدنيا قاطبة في جرة من



ذهب، لا يرجع وجهاً غالياً أتلفه الصمت. قبور الشهداء غطتها الأعشاب البرية الجافة ونحن مازلنا نغني الأغاني التي لم يعد لها طعم يذكر. ونعيد على أسماع أطفالنا الأهازيج التي انطفأ بريقها. ثم تصرخ أمام موظف البلدية قبل أن تلين من حديثها:

ـ يا سيدي، أقسم لكم بدم الشهداء أنه مات شريفاً.

ـ لكن يا الحاجة ما عندكش الكواغط. ملفه فارغ.

ـ أقسم برأس أولادك، أنه خرج ولم يعد. كان قلبه ممتلئاً بهذه الأرض يا سيدي.

ـ وهل لديك مايثبت أنه استشهد ولم يقتله قطاع الطرق مثلا؟ ثم أن الكثير من الناس يقولون عنه أنه...

ـ شكون الشماتة اللي يقدر يحل فمه في سيد الرجال؟

ـ هم يقولون. نحن لا نسمع لأحد. نريد الأوراق الثبوتية.

ـ دمهم وعيون أطفالهم الفقراء أكبر من الأوراق.

ـ هذا الكلام لا يكفي. إرجعي الأربعاء القادم ونرى ما نستطيع فعله.

ـ يا وليدي، منذ أكثر من سنة وأنتم تقولون لي مثل هذا الكلام. تعبت وأنتم لم تتعبوا من تكرار نفس الكلام.

ـ غيرك ينتظرون دورهم. يا الله يا الحاجة اسمحي لنا.

وتخرج يما عيشة لمنورة، منكسرة لتعود يوم الأربعاء فتخرج مرة أخرى أكثر انكساراً وحزناً.

ـ لم تبق أمامك إلا العاصمة. هناك يتفهمون الأوضاع الملتبسة.

ـ لا أعرف أحداً هناك.

ـ طيبون. قلت لك إنهم يحبون الشهداء في العاصمة.

يقهقه عالياً بسخرية كبيرة. تجرني من يدي ونخرج.



في برية المدينة المقفرة. كان الذين ليسوا شهداء يتحولون إلى شهداء. والشهداء يدخلون صمت الأشياء والتفاصيل التي بدأت تتكاثر في هذه البلاد ولا أحد يعلم، متى يتحول كبار الخونة والقوادون الذين طحنتهم الحروب الصغيرة وديدان السرطان إلى كبار شهداء المدينة. سيأتي زمن أسود ينسحب فيه الشهداء كلية وتحل محلهم زمرة تحلب هذه الأرض حتى تدميها وتنشف ضرعها وحليبها وماءها.

في البلدية، مازالوا يخافون من المهدي بن محمد حتى بعد الاعتراف به كشهيد. ظله يخيم على كافة أطراف البلدة وجحور المدينة المخيفة.

أوف. للصراحة أقول أني استفدت كثيراً من كل هذه التفاصيل لإعداد هذا الملف. في حوزتي الآن الكثير من وثائق المهدي بن محمد. المتصلة بحياته بشكل عام. وثائق اشتراكاته الحزينة. أوراق حربية. عمله بفرنسا. أسماء مديري المؤسسات التي اشتغل بها. بعض البيانات المتصلة بالإضرابات العمالية التي شارك فيها أو قادها. قصاصات صحفية ووثائق نقابية، إضافة إلى بعض هواجسه وهمومه اليومية.

أمي كانت تخاف. أحرقت الكثير منها. لم نكن نعرف تقول أمي، إنه سيصبح ذات يوم لهذه الأوراق قيمة دم المهدي بن محمد. لحظة يأسها لعنت كل شيء. حتى أحاجي جدتي التي كانت تقدسها لأنها من أجمل ما ورثت عنها. ذات مساء بارد، عادت إلى البيت. بكت كثيراً ثم استغفرت الله قبل أن يأمر ملائكته بكتابة المعصية على جبهتها.

كانت ستحرق كل شيء، ربما حتى البيت لو لا عمي البوحفصي الذي جاءها وكان متعباً، بيوم واحد قبل أن يغادر البلدة هو وأطفاله في ظروف غامضة ويعود بعد سنة إلى أحراشه وتربته التي شربت صرخة ميلاده الأولى ويموت في عزلة. ذهب معها. وقال كل شيء أمام رئيس البلدية. كان يحكي بنوع من الحسرة والألم والأسف. حتى عن أدق



التفاصيل التي لم أعد أتذكرها، ولكنها أذهلت عمال البلدية. في لحظة ما رأيت دمعة عتيقة تحول شيخوخة وجهه الأسمر إلى بياض ناصع. كان نخلة، شيخاً مملوءاً بالشموخ والكبرياء. يصر دائماً على البحث عن مهدي بن محمد قادر على قول الحقيقة أمام الجميع وبدون خوف، مهدي يأتي من بعد سحيق بجناحين من نور، يعمي القلوب التي يرعبها قول الحقيقة. هو الذي دفعني إلى الاهتمام بكلام بعض المسؤولين. هناك من كان يحكي عنه في كل المناسبات الوطنية باحترام كبير. وبعضهم يذكره عرضاً كما يذكر معلم كسول قائمة تلاميذه في مدرسة مهجورة وبعيدة.

حين قدمتُ الاقتراح إلى أحد الزملاء الرائعين بالبلدة، رأيت في عينيه، تستيقظ العصافير الميتة وذكرياته الدفينة عن الحرب.

ـ أجمل شيء تقوم به في حياتك.

ـ صدقني أني مصمم، وبمجرد عودتي إلى المدينة سأطرح الموضوع على بلقاسم.

ـ أجمل حالات الجنون أن تكتب عن المهدي يا الحسين. الكتابة عن الرجال صعبة لكنها ضرورية.

كان في وجه هذا الزميل شيء من الغموض لكنه كان شعلة من الوعي. غاب ذات يوم حتى قبل أن أنهي إجازتي. لم أره. كانت تلك كلماته الأخيرة. قيل لي فيما بعد أنه نام مرغماً تحت عجلات شاحنة عسكرية كانت تجري بسرعة البرق.

لاشيء تغير في جهازي العصبي. مازلت ههنا، في هذا المستشفى الضخم. تصميمي ما يزال قائماً وكل يوم يزداد تأكدي أني في الطريق الأصح بكل مخاطره ومزالقه.

« ـ المدينة فقدت صوابها يا عيسى».



قالها أحد المارة لصديقه، حين هممت بقطع الطريق باتجاه مقر الجريدة وكنت ما أزال متناقض التفكير. في يدي أحمل رأسي وكثرة الأرقام والكلمات التي ما يزال عمي البوحفصي والبارودي يحملانها في الصدر الذي ضاقتِ مقاومته.

كنت خائفاً من أن يوقفني البوخاري عند باب الجريدة ولكنه لم يفعل. يبدو أنه حتى الآن لا يعلم شيئاً عن استقالتي. دخلت، لم أحيِّ أحداً على غير عادتي التي ألفها الجميع فيّ. كان المهدي، هو الشيء الوحيد الذي يملأ دماغي المرهق المتعب. عمي البوخاري، ظلت عيناه مرتشقتين في. في رأسه تدور آلاف الأسئلة المحيرة والاستفسارات التي يتمنى من القلب أن يشفي بها فضوله. هو بدوره من بقايا هذه الثورة التي ارتأت أن تضعه بواباً.

المعلومات التي كنت أحملها في حقيبتي لم تكن خارقة ولكنها كانت كافية لفتح الطريق أمامي. ربما بواسطتها استطعت أن أتوصل إلى ما حلمت القيام به دائماً. على الرغم من ذلك كله كنت في حاجة ماسة إلى أرشيف الجريدة لاقتفاء خطوات المهدي.

لمحته من بعيد. ميموني الإفريقي، كان في باحة الجريدة. هو المسؤول عن الأرشيف. طيب القلب، لكنه من الذين أفسدت المدينة طبائعهم. كنت أخشى أن يتمترس بجثته المخيفة في طريقي ولكنه لم يفعل. بل على العكس من ذلك، كان نبيلاً. سألني:

- واش يا السي الحسين. غيبة طويلة. هل تحتاج إلى شيء؟

- مزيتك كبيرة لو تساعدني على أرشيف الخمسينات لعلي أجد شيئاً مهماً يستحق الدراسة.

- من صاحب الحظ هذه المرة في تحقيقك.

- شهيد مجهول ليس له قبر حتى اليوم.



الأرشيف أعرفه جيداً. استعملته كثيراً ومع ذلك فمساعدة الميموني أحياناً لا تعوض. حرفته التي أكلت كل شبابه.

كانت أكداس الجرائد التي أمامي مخيفة بكثرتها. تتضوع من ورقها الأصفر رائحة الأخشاب العفنة والفئران التي دجنت وسط هذه المتاهات. طبعاً، كانت لدي طريقتي الخاصة في التعامل مع المسائل الأرشيفية، أي الحصول على أكبر قدر من المعلومات بأدنى مجهود وبأقصى سرعة ممكنة.

لم آكل شيئاً. رفضت حتى نصف الساندويتش الذي قدمه لي الميموني. مر اليوم بكامله بدون معلومات خارقة يمكن ذكرها ما عدا بعض التفاصيل العامة التي ربما احتجتها لإعطاء بعض التفسيرات عن الغموض الذي صاحب استشهاد المهدي بن محمد. تعبت. عيناي احمرتا من الغبار الدقيق. كنت في سباق مرهق مع الزمن الذي لم يكن يمهلني الوقت الذي أشتهي.

وقبل أن أقوم وأطوي كل شيء استوقفتني أشياء جرحتني أكثر مما حلت عقدتي. راجعت التاريخ نفسه أو الأقرب منه في الجرائد الأخرى. فكان أن تعمقت لحظة الفضول عندي. وعلى الرغم من التعب والظلام الذي بدأ يلف أزقة المدينة إلا أنني واصلت بحثي في تلك الأشياء التي أثارت دهشتي. سأقتطف لكم حرفياً ما كتبته تلك الجرائد وقتها. لن أتصرف في أية كلمة: الجريدة: L'Echos d'Oran. المانشيت الكبير: **«سقوط إرهابي جديد. السنة.../.../١٩٥٩ ـ استطاعت الشرطة الفرنسية ليلة أمس أن تضع حداً للإرهابي الأحمر. المدعو المهدي بن محمد أو السي عبد الكريم. هو وجماعته. لا أحد وجد جثته لكن يحتمل أن يكون إرهابيون من أصدقائه قد أخذوها. وفاته مؤكدة باعتراف جرائدهم السرية»**.



في التاريخ نفسه تقريباً التقطت هذا الخبر الصغير من جريدة أخرى كانت معظم أعدادها موجودة في الأرشيف، بمساعدة الميموني، الذي كانت إحدى عينيه الصغيرتين منهمكة في البحث في الأخبار والتفاصيل والعين الأخرى مثبتة على الساعة الجميلة التي أحملها في يدي. تجاهلت الأمر في البداية وعدت إلى قراءة الخبر: الجريدة فرنسية: L'Humanité. المانشيت الكبير: **الدم الضائع. السنة.../.../ ١٩٥٩ . ـ الثورة بدأت تأكل بعضها. سقط ظهر البارحة المهدي بن محمد في ظروف غامضة. وهو ثالث شخصية مسؤولة تسقط في ظرف أقل من شهر واحد. يحتمل أن يكون قتله نتيجة خلافات داخلية.**

يبدو من نص الخبر أنه كان منقولاً بدوره من إحدى الجرائد السرية التي لم أعثر عليها. ولا على نسخة واحدة منها.

في الجرائد العربية الرسمية لم أعثر إلا على خبر مقتضب أثار دهشتي أكثر مما أفادني: **سقط في ميدان الشرف شهيد الثورة المهدي بن محمد المدعو السي عبد الكريم وهو يؤدي واجبه الوطني في ساعة متأخرة من ليلة البارحة. إنا لله وإنا إليه راجعون.**

الملاحظة الوحيدة التي يمكن تسجيلها هي أن قائمة الشهداء الطويلة التي أوردتها الجريدة المعربة، كانت مسبوقة بالبسملة، بخط رقعي جميل إلا المربع الذي حشر فيه خبر استشهاد المهدي وكأنه سد به الفراغ المتبقي في الجريدة. حتى الخبر تعرفت عليه بصعوبة لأنه كان في زاوية مهملة داخل الجريدة وبحرف يكاد يختلط مع حروف المادة التي أخذت جزءاً كبيراً من الصفحة. صحيح أن المعلومة لم تقدمني كثيراً في بحثي ولم تكن خارقة بالشكل الذي يدفعني إلى القول بأنها فتح كبير. ولكنها مع ذلك من التفاصيل المهمة التي يمكن الاستفادة من خلفياتها الغامضة. الآن بدأت أعرف إلى حد ما لماذا اسمه يخيم خوفاً على قلب المدينة.



لماذا ارتجفت أمعاء بلقاسم ولماذا كان عمي البوحفصي من الذين بكوا المهدي حتى جفت العين. فوراء هذا الخوف شيئاًن مهمان جداً. إما فكرة مسبقة يدفع المهدي ثمنها حتى وهو في قبره. أو أن هناك خطأً قاتلاً ارتكبه المهدي في تقييمه للثورة. مع أني، حتى مع أعدائه، لم أسمع عن شيء اسمه خيانة المهدي لحليب بلدته ولتربة وطنه. حتى الأخبار التي استقيتها لا تشير إلى ذلك لا مباشرة ولا ضمناً لكنها تترك الباب مفتوحاً أمام كل الاحتمالات. لو فكر المهدي بن محمد، السي عبد الكريم، بأن يبيع أرضه وأحبابه، لكتبت الجرائد بالبنط الأسود وفي رأس الصفحة الأولى الخبر. المهدي إذن يكون قد استشهد في ظرف غامض يحيط بالفترة كلها، أكثر مما يحيط به هو كفرد.

حين هممت الخروج ربت الميموني على كتفي وعيناه لم تغادرا معصمي الأيمن والساعة:

ـ الله يعطيك الصحة يا السي الحسين. هكذا الصحافي وإلا لا.

ـ واجبنا يا الميموني خويا. أضعف ما يمكن أن نقدمه لهؤلاء الناس الذين نحبهم وبدأنا ننساهم.

كانت عيناي تؤلمانني بشكل مريع ومتعب للدماغ. قلبي مشدود بفظاعة. نظرت إلى الساعة. فكرت في شرب قهوة ساخنة في مقهى الجرْيدة لكن المقهى كان مغلقاً والوقت بدا متأخراً جداً. صورت ما يمكن تصويره. سجلت كل الملاحظات ثم خرجت أجر جسدي جراً. كان وجه المهدي يملأ كل الشوارع التي قطعتها في وقت لست أدري هل طال أم قصر.

لم أتقدم كثيراً في بحثي، لكني كنت في الطريق الصعب والحقيقي.



كشف ما خفي من السيرة القديمة

فتح التليفزيون بعصبية في محاولة يائسة لتخبئة حالة الانزعاج التي انتابته.

ـ يا لطيف! هذا التلفزيون كالجنرال المتقاعد لا يعرف إلا إصدار البيانات والأوامر. قل لي واش وجدت؟

ـ ما يستفز هدوءك وراحة بالك.

الحقيقة أن استفزاز الآخر صنعة سيئة، ورثتها عن مهنة الصحافة، لكن على الرغم من ذلك فهي مفيدة لكشف الحقائق الخفية.

ـ يا أخي لماذا الاستفزاز. قلت لك لم أكن خائناً وليس لدي ما أخاف عليه. وطني كان في العينين لكن فهمي لحركة هذه الثورة ربما كان هو المخطئ، إنما الخيانة، هذا كلام لم يقله حتى أعدائي.

ـ لكن الخطأ كان قاتلاً يا بابا المهدي.

ـ عليك يا الحسين أن تتعلم كيف لا تبني حكماً على فرضية خاطئة. أنت صحافي متحمس ولكنك تتوخى الموضوعية. كنت مثل الآخرين، أجرب وأخطئ، مثلما يخطئون هم كذلك. ثم لماذا تحملني المسؤولية وحدي. لست ملاكاً. اسأل البوحفصي يا الحسين، في قلبه الدم الذي لا يعرف اليباس. أكلنا الحديد والعذاب مقابل أن لا نشرب الذل في حليب من يحاكمنا اليوم. متنا شامخين كنخيل قاوم الحر في صحراء شمسها نار. وكنا نعرف أن الحر سيزداد يوماً عن يوم. صدقني يا



الحسين يا حبيبي، لقد كنا مثل ثيران الكوريدا. نتسلى ونقاوم ونحن أعرف الناس بأن رقابنا ستنتهي تحت شفرة السيف.

ـ آه يا بابا المهدي كلامك كبير. لكن كل هذا لا يحل عقدة أسئلتي. على كل حال أشرب قهوتك ونواصل الحديث فيما بعد. لا تخف يا بابا المهدي، فالوثائق تقتفي آثار دمك. لاشيء يموت يا بن أمي وقلبي.

لم أنتبه بشكل جيد إلى حركة يده، وهو يضرب على الطاولة. تكسر الكأس الذي اصطدم الحائط المقابل بفعل قوة الضربة.

ـ معذرة لكن الوثائق ليست كل شيء. أنا الآن أقف أمامك بكل عريي مثل قط في يومه الأول، مهدد بالموت مرة ثانية وأنت تحدثني عن الوثائق؟ أنا هنا لهذا الغرض وإلا ما كنت جئتك. القبر أريح من هذه الشكوك. وأنت عليك أن تفهمني قبل أن تتحدث لي عن الوثائق.

ـ لكنك لم تقرأها.

ـ أوف. قتلونا ونحن مازلنا على قيد الحياة. فماذا سيقولون عنا ونحن تحت التراب؟

اختلطت تنهيدته من جديد بصوت الجنرال المتقاعد وهو يدلي في بياناته المعهودة: **نذكر مواطنينا الأعزاء بالخبر الأول ونرجو منهم أن يلزموا الهدوء في بيوتهم، إلا بإشارة منا في بيان لاحق. سيجتاح الكسوف مدينتنا العزيزة نتمنى فقط أن لا يطول. وحسب علماء الأرصاد، فهذا الكسوف يصعب تحديده وتحديد يومه وساعته ولهذا نطلب منكم الهدوء والرزانة حتى تمر هذه الحالة الطبيعية وأن لا تنظروا بالعين المجردة إلى الشمس خوفاً من خطر العمى. شكراً على حسن تتبعكم لبرامجنا الخاصة بالكسوف.**

المهدي لم يقل شيئاً ولكنه نظر إلي بعينين متعبتين فيهما بريق



عجيب. حاول أن يسكن حالة الارتباك التي أتعبت صدره. ثم تمتم بعياء كبير:

- متعبون يا الحسين. منذ أكثر من عشرين سنة والتهمة على ظهورنا. مع أننا قبلنا أن نذبح من الرقبة بالرغم من صدقنا مقابل أن تمحو المدينة أحكامها المسبقة. إنها التهمة التي لا تمهلك لحظة واحدة للتفكير ولا للدفاع عن النفس. التهمة ما تزال قائمة يا الحسين مثل الغصة في صدر رجل مسلول يقاوم عبثاً حالة الانهيار القاسية. صدقني يا الحسين أن هناك فرقاً كبيراً يشبه الليل والنهار بالرغم من اتساقهما ودورتهما، هناك فرق بين الخيانة والخطأ في التقييم.

- هنا سر المشكلة يا بابا المهدي. الذين اتهموكم وجدوا مرتكزاتهم.

حاول أن يبتسم بصعوبة لكنه فشل.

- أخطأنا في التقييم. على الأقل هذا تصوري الخاص. لكننا أعطينا دمنا لهذه الأرض ولهذه العيون البريئة التي تملأ اليوم البلاد. قدمنا ما تبقى من نبض القلب المحروق وسحر ما تراه العين. على كل، الذي في المحرقة لا يشبه الذي ينام على فراش وثير وينتقد ما لا يوافق مزاجه.

- طيب اسمع هذه الأخبار المتناقضة. أقرأها عليك واحدة واحدة ربما استطعنا بواسطتها أن نحدد الموضوع.

- أعرف يا الحسين حرقتك. أنت تتمنى من القلب أن أثبت براءتي. ولكني لست في هذا الوضع.

ثم غفا قليلاً يستمع إلى التقرير الذي أعددته عن ظروف استشهاده أو اغتياله الغامضة، عن ملابسات الحالة التي صاحبت وفاته. عن التناقضات في الأخبار. لكنه ظل طوال قراءتي، صامتاً مثل الصخرة. من حين لآخر يتأمل عيني وهما تبحثان عن محطة دافئة وسط حالة الدمار هذه.



ـ أنت طيب يا الحسين في عالم يحتاج إلى قرون أخرى لكي يدرك طيبتك.

ـ لكنك حتى الآن لم تجبني عن ملابسات وفاتك؟

مرة أخرى شعرت بعينيه المغبرتين تحمران وبقسمات وجهه الشامخ تتقلص. بينما كان التليفزيون ما يزال يدلي في بياناته كجنرال عجوز فوجئ بأن انقلابه قد نجح فجأة بعدما أصيبت بحالة قنوط قاتلة.

ـ أنت بهذه الطريقة: ١ + ١ = ٢ تضعني في الزاوية الصعبة. فإذا علقت على هذه الأخبار بدون أن تفهم الخلفية الحقيقية وخصوصياتها ستخطئ بدورك في تقييمي وفي تقييم الآخرين.

ـ أنا لا أريد أكثر من تفسير للحالة. وإذا أردت تغيير الموضوع سنغيره، لا أريد إرهاقك، فأنت متعب بما فيه الكفاية.

اصفر وجهه كقشرة ليمون.

ـ عندما أغير الموضوع معناه أهرب من التهمة الملصقة بنا. أنا هنا من تلقاء نفسي. لم يوظفني أحد لهذه المهمة يا الحسين. كرامتنا فوق كل شيء.

ـ أتمنى أن أفهمك يا المهدي.

ـ على كل حال أنا لا أتكلم اسبرانطو.

ـ هه.

ـ كان الزمن متقدماً جداً. عمري لو بقيت حتى الآن لتجاوز الخمسين بكل تأكيد.

ـ سن لا يبرر الخطأ.

ـ لكنها مع ذلك بداية في حياة الواحد فينا.

ـ غير كاف. التاريخ لا يرحم أحداً.

ـ يا الله ماذا وقع لك؟ أمهلني على الأقل حتى أنتهي من التفاصيل.



شعرت بملامحه تنكسر فجأة. انزعج مرة أخرى وعلت سحابة صفراء قسماته التي تعمقت حفرها.

ـ أنت تقتلني بهذه الخزرة المزعجة وهذه العين الحمراء التي لا تغمض وتفتح إلا لتشعل في حرائق لا أستطيع تحملها. تذكرني ببشاعة المحققين. يدغدغونك وعندما لا تستجيب يفترسونك بقسوة حتى تفقد ذاكرتك ويجدون بعدها مبرراً كافياً لتقديمك إلى المحرقة.

ـ لأنك أحياناً يا المهدي تقدم ألغازاً يصعب علي فهمها.

ـ طيب. استمع قليلاً وبعدها مارس هوايتك الصحفية إذا شئت. لقد طالبنا بالحل الديمقراطي للمسألة وباحترام مصالح سكان البلاد كلها، من المسلمين، العرب، من الفرنسيين واليهود والمسيحيين. أو على الأقل الذي فهمته من أناس أكبر مني.

ـ حل ديمقراطي في إطار التعايش بين كل القوميات.

ـ تقريباً.

ـ وهل تعتقد أن هذا التعايش ممكن تحت المظلة الاستعمارية.

ـ ربما كان هذا مفصل الخطأ. كنا ننظر للثورة من وجهة نظر استراتيجية عامة لا تهم بلادنا وحدها ولكنها مرتبطة بإسقاط الآلة الإمبريالية بكاملها. صحيح أننا لم نكن نؤيد المحاولات الفردية. الثورة بالشكل الذي انطلقت به كانت تعني تغييب الثقة في الفعل الجماهيري. وحين انضممنا إلى الثورة وقعنا في خلافات كبيرة مع رفاق قياديين ولكننا دخلناها بلحمنا ودمنا. دخلنا وحولنا تحوم الأفكار المسبقة. فقد كنا مثل المحكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ. ثيران الكوريدا يا ابني، كنا نعرف أننا سنموت ولكننا نقاوم المجانية.

ـ وبطبيعة الحال دخلتم الحرب بدون قناعات كبيرة.

ـ دخلناها بمنظمتنا **المقاتلون من أجل الحرية** بعد أن فشلنا في



الدخول فيها كتنظيم سياسي نظراً للأفكار المسبقة التي تحدثت عنها قبل لحظة. لم يكن في نيتنا خلق قوة عسكرية منافسة للقوة العسكرية الأساسية. وأعتقد أننا طالبنا مراراً بإدماجنا في جيش التحرير ـ قبل أن نُقبل بشطط ـ وقدمنا كل الضمانات بأنه لن تكون لدينا أية علاقات تنظيمية أو سياسية مباشرة مع أحزابنا ولكن لا أحد يستطيع منعنا من الاحتفاظ بقناعتنا. وتم إدماجنا بعد أكثر من سنة من المفاوضات. لكن قائداً جبهوياً ظل يصر على مراقبتنا.

ـ من؟

ـ لا أريد ذكر اسمه، كان يقول وقتئذ إن المهم هو منع وجود أية قوة عسكرية أخرى وكان يقصد الشيوعيين بالضبط. أما البقية، كما كان يقول، ليست مهمة جداً. فسنتكفل بها نحن. كما ترى، وُضِعنا في النعش أحياء حتى قبل أن نوجه نارنا للعدو، كانت الشبهات تحيط بنا من كل جهة.

ـ لم أتقدم كثيراً حول قضية ملابسات موتك.

ـ أصبر شويه، ما تتقلقش.

قالها مع ابتسامة لأول مرة أراها تشرق بعد حالة الكسوف التي خيمت على وجهه المتعب. كنت أريده أن يقول كل شيء عنه هو بالذات. إنها الفرصة التي قد لا تعود أبداً. إن الشهداء مثل ليلة القدر، يأتون وكالومض يرحلون.

رشف المهدي قهوته. تنهد طويلاً. شعرت بالأشياء الصلبة في داخله تلين شيئاً فشيئاً وتذوب نهائياً.

ـ التحقنا بالثورة ولحقتنا الأفكار المسبقة وغياب الثقة مع أصدقاء النضال الوطني. كنا كبش الفداء في الكثير من المواقع. ربما تصدقني إذا قلت لك إنِ العديد منا ماتوا جوعاً أو افترستهم الحيوانات المتوحشة.



وضعنا في المناطق الخطيرة التي لم نكن نعرفها. أكثرنا لم تكن لديه أسلحة. ومع ذلك قدمنا ما كان يجب تقديمه. أكلت الوديان الجافة البقية المتبقية. تخيل إنساناً لا هم له سوى إثبات حسن النية وبالمقابل كل حركة منه تفسر عكس مدلولها؟ وضع جحيمي ومع ذلك قبلنا به من أجل الوطن.

ـ موقف ضعف. الذي يشك في نفسه هو الذي يسعى جاهداً لإثبات براءته التي لن يصدقها أحد.

ـ أكثر من ذلك كله. لم تتح لنا فرصة الدفاع عن أنفسنا. المهم أننا أثبتنا على الرغم من أخطائنا، أننا ما زلنا قادرين على الاحتراق بشرف على هذه التربة الطيبة. واستطعنا إلى حد بعيد أن نرجع الثقة المفقودة. هذا تقريباً هو الإطار الذي يفترض فيك أن تطرح فيه مشكلتي قبل أن تركب رأسك يا السي الحسين وتتهمنا بالتقصير أو ربما بالخيانة التي أصبحت موضة العصر. وتتبع الطرق المختصرة كما يفعل ناس آخرون بسهولة. تاريخنا يا الحسين لم يكتب حتى الآن. مازالت الرعدة، والخوف والخجل، تؤرق أناملنا وأمخاخنا المعطلة عن الفعل.

ـ أخطأتم ففتحتم نوافذ التدجيل ضدكم.

ـ نحن أخطأنا وصححنا موقفنا في الوقت المناسب. وغيرنا أخطأ وأنا متأكد أنه مازال يعوم في خطئه ولا أحد يتحدث عنه.

ـ رتبتك العسكرية تخولك لاتخاذ أي قرار تراه صالحاً. الذين حاصروك لم يحرموك من هذه الرتبة.

ضحك بألم. شعرت كأن هذه الضحكة تخرج من الداخل كخنجر دفن في القلب حتى المقبض ثم انتزع بهدوء وبرودة أعصاب.

ـ رتبتي العسكرية، ماذا تعرف عنها؟ لم تصدق علي. فقد بذلت الغالي والنفيس من أجل هذا الوطن الذي يتهمني الآن في كرامتي. لكن



ثقتي به ما تزال قائمة. لم أطلب ثمناً، ولم ألبس نجوماً وجبالاً وأدخل على نساء القرى الفقيرات وأجبرهن على الانصياع إلى رغبتي المحروقة. كنت وفياً لمثلي العليا. يبدو أن المدينة تنتهكك وأنت تنتهكني.

شعر بسرعة باللعبة التي كنت أمارسها معه. لم أعلق. ارتشف القهوة من جديد. قلب أوراق التقرير الذي جئته به كمن يبحث عن شيء غامض.

ـ الذي كنت أخشاه يا الحسين أن تحول هذه الثورة عن مجراها الطبيعي الذي يجب أن تسير فيه وتتجه نحو أكثر الطرق اختصاراً وابتذالاً. سقطنا من أجلها وأجبرناها ذات فجر بارد أن تتخضب بدمائنا وأن تزغرد وتبكي وتفرح للمولود الذي لم نكن نعرف ملامحه

ـ هذا أعرفه جيداً. وأقدر شجاعتك. وعمي البوحفصي كان يحبك ولم يكن مقصراً. روى لي الصغيرة والكبيرة عنك.

لست أدري هل انتبه أم لم ينتبه لمقاطعتي، لكن الذي أعرفه هو أنه ظل منهمكاً في التفكير. عيناه شاخصتان نحو السطح الذي كان ينزل كل يوم قليلاً. ارتسمت على شفاهه ابتسامة، انفرجت من قلبه وهو يتأمل امتداد المدينة والأضواء والأصوات الخفية، ثم فجأة اختلطت ابتسامته التي لم أرها على شفاهه إلا قليلاً بحزن ما في عينيه.

ـ كان الفصل شتاء. البرد يذبح والأمطار باردة كهذا اليوم.

صمت لحظة من الزمن كأنه يحاول استعادة الصغيرة والكبيرة.

ـ انتبه هذا يهمك. كنا عائدين من عملية فدائية ناجحة. دمرنا قطاراً محملاً بالعتاد العسكري وأشياء أخرى. غير أن العملية شخصياً لم أكن موافقاً عليها لأنها كانت ستتم في منطقة مكشوفة هذا كان خطيراً جداً. مع ذلك رضخت للأوامر العليا وقدت الفرقة. حين عدنا كنا قلة قليلة تعد على رؤوس الأصابع. قلبي كان يتمزق يا الحسين لكنها الحرب يا



ابني، وفي الحروب إما أن تقتل من يصوب بندقيته نحوك أو تقتل. اليوم كان بارداً. حاولنا أن ننسى الهم. شربنا القهوة. ضحكنا أو حاولنا على الأقل فعل ذلك. تحدثنا عن العملية ومعظمنا كان لديه شيء في أعماقه لم يستطع قوله ومع ذلك كانت ابتساماتنا تختلط مع صمت الظلام ونزيف الجراح المفتوحة وخشخشة الحشرات التي اختلطت بدورها مع النسائم الأولى للفجر. فتحت عيني. تأملت الغابة كانت صامتة وهواؤها أخافني. شعرت بذعر ما يصحبه هذا الليل الذي مر بسرعة. جاءتني جماعة تقول لي بأن قيادة المنطقة تطلبني وكنت أنتظرها لتقديم تقرير عن العملية.

أغمض المهدي عينيه مرة أخرى. شعرت بحرارة ما تخرج مع التنهيدة التي صعدت من قلبه. ثم فتحهما بهدوء وكأنه يحاول أن يرى العالم قطعة قطعة ولحظة لحظة.

ـ أتعرف يا الحسين أن الموت نشعر ببرودته حتى قبل أن يتكلم البشر. بدأت أتفرس وجوههم الباردة. صامتون. أخاديد عميقة حفرت جباههم التي احترقت مثل قطعة خبز قديمة. في عيونهم ينتفض دم غزالة قطع رأسها وعلق على خشبة ليحول إلى فزاعة تخاف بها الطيور. العصافير الخائفة تتساقط الواحد تلو الآخر من ذعر مشؤوم وتتراكم عظامها الرقيقة على بعضها بعضاً. هناك شيء يا ابن عيشة لمنورة صعب علي إدراكه بقوة لكني كنت أشعر بألمه المخيف. قسماتهم كانت تخبئ شيئاً غامضا يحمل رائحة الموت.

ـ لكن الذي لم أفهمه جيداً لماذا رفضت العملية وأنت قلت أن قراراتهم نافذة؟ فقد أعطيتهم سلاحا ضدك.

ـ السلاح ضدي لا ينقصهم. من واجبي أن أبين المهالك المحدقة. معظمهم اختار التخطيط من المكاتب. لم أكن موافقاً على العملية لأنها



كانت خطيرة تستوجب تحضيراً أكبر. والأكثر من هذا كله شعرت بها مقحمة إقحاما لاختبار شجاعتنا بدون أي اعتبار لأرواح الآخرين. من جهتي كنت أتمنى القيام بعملية مخططة ومضمونة النجاح خصوصاً وأنها العملية الأولى بعد فراري من السجن. ستقول لي إن العملية نجحت وهذا هو المهم. هذا صحيح جداً لكن دماً كثيراً ساح. الذين نجوا من العملية سقطوا، وغيرهم من الذين أعطوا الأوامر فقط سيحصدون غدا كل أنجم الرتب العسكرية.

- المسألة منذ البداية كانت خطيرة في كل الأحوال.

- من خلال كلامهم البارد والجاف بدأت أحس إحساساً غريباً. عرفت أني سأنتهي تحت سكاكين أصدقاء أكلنا الخبز والملح مع بعضنا. إنها الحرب يا الحسين.

- إذن بعض أخبار الجرائد صحيحة.

- الأوراق التي بين يديك مختلفة كما قلت أنت نفسك. فيها شيء من الحقيقة لكنها ليست الحقيقة كلها. حين طلبوني، من البداية لم أكن مرتاحاً. شعرت بإحساس غريب من الذعر. إحساسي لا يخطئ صدقني. أتشمم الخطر بغريزة حيوانية غريبة. بدأت أكون بعض التصورات وأعيد تركيب العملية العسكرية كلها من بدايتها حتى نهايتها، كطفل صغير يعيد تركيب لعبته المفككة قطعة قطعة. أخذوني أنا وامرأة. كانت رفيقة مجاهدة، حاول زوجها أن يستفسر عن السبب لكنهم منعوه ووعدوه أنهم لن يتأخروا. حين دخلنا عمق الغابة لم يطلبوا مني تقرير العملية الذي كانت تحمله معها السيدة النبيلة ولكنهم أمروني برفع إصبع الشهادة حتى لا أموت كافراً. وأقولها لك صراحة، فقد خفت. خفت مثل طائر ذعرته فجأة بندقية صياد لا يخطئ. وحتى تلك اللحظة كنت أتوقع حالة انفراج ما. لكن مع الوقت زاد يقيني أني هالك لا محالة.



تقدم الأول. كان وجهه قد حفرته نقاط الجدري، بارداً كقطعة ثلج.

- يوم قبلناك في صفوفنا أخذنا منك تعهداً وها أنت اليوم تخونه. قلت إنه لن تكون لك علاقات تنظيمية مع مسؤوليك السابقين. أقسمت بالوطن وبدم الشهداء.

- لم أفعل شيئاً من هذا القبيل.

- لا. فعلته. ورفضت العملية. دفعت بالجنود إلى النار وعدت كأن شيئاً لم يكن. كان من الأجدر أن تكون في المقدمة.

- كنت في المقدمة. لكنها أوامركم يا سيدي.

- أوامرنا لم تكن تقضي بأن تعود أنت سالماً، بينما أكثر من نصف فرقتك تأكله النار.

- كنت أعرف أن المغامرة خاسرة ولكنكم أصررتم.

لقد جاؤوا بشيء مسبق في رؤوسهم. لم يكونوا مهتمين بتقرير العملية أبداً. إنها مجرد محاولة لإيجاد مبرر لذبحي والتخلص مني. العلاقة التي كانت بيني وبين الجنود كانت أكبر من أن أدفع بهم بشكل مجاني إلى النار. أكثر من ذلك لم يسألوا واحداً عن رأيه.

تحسس أحدهم السكين الذي كان ينام على طرفه الأيسر. بدأ الطفل المذبوح يردح بين أصابعه التي فاضت عليها دماء كثيرة فقدت لون حمرتها.

و بدأت الأحكام تتهاطل كأحجار الوديان.

- لا مكان بيننا للجبناء والخونة والحركة. الثورة ستضرب بيد من حديد على يد كل من تسول له نفسه المساس بها.

حككت رأسي، يقول المهدي، عندما انتبهت أن لا أحد كان منتبهاً لما كنت أقوله. التفت إلى المرأة التي لم تقل كلمة. أغاظني جدا أنها كانت مكتفة كرجل يقدم إلى شفرة المقصلة بدون أن تتاح له فرصة



الدفاع عن نفسه. لم أفهم مبرر وجود هذه السيدة معنا. وبهذا الشكل المؤذي. التفت الرجل نحوها.

ـ أنت أيتها المرأة، تثق فيك كثيراً، لكنك وطئت على الثقة والقسم. علاقتك بالمهدي مشبوهة. من يدري، ربما اجتمع الكفر والزنا فيكما. فكركم لا يحرم هذا.

رفرفت عينيها كفرخ مذبوح بشفرة حادة. لم تصدق، ولم تقل شيئاً. التصقت بكتفي المنهكين. تأملتني بحالة ذعر ظاهرة تنتظر مني أن أقول شيئاً. من عيني قرأت أن هؤلاء الناس جاءوا بأحكام ولم يأتوا بالرغبة في المعرفة. ثم أحنت رأسها بهدوء وتركت قطرات عرق الخوف تنزل لتلتهمها صفرة الغابات. حينما سمعت آخر كلمات الرجل المخيف: احفر قبرك، عرفت أن كل شيء انتهى وأن الثورة لم تكن ورقة بيضاء كما كانت دائماً تتصورها. كانوا مصممين على إعدامنا وأي كلام نقوله سيتحول إلى إدانة إضافية ضدنا. لم تقل شيئاً. لم تعص الأوامر لكنها بكت بقسوة وحزنت لأنها تذكرت زوجها الذي كان ينتظر عودتها. أصداؤنا تضيع بين أشجار الغابة العملاقة. الوديان جافة والبلدة التي أنجبتنا واحتضنت طفولتنا كانت بعيدة. بعيدة وغريبة كهذا اليوم وجميلة كتلك الأنجم التي ظهرت في ذلك الفجر مبكراً ثم اختفت بسرعة.

حفرت قبري وساعدتها على حفر قبرها بصمت. لم نكن شيئاً إلا ضربات الفأس وهي تشق الأرض بعنف. لم ألتفت نحوهم ولم أجد صعوبة كبيرة في الغابة لأن تربة الغابة كانت مبللة وخفيفة. لم أنتبه من منا ذبح الأول، لكني في لحظة غابت بسرعة، شعرت بالخنجر البارد ينزل على الرقبة. الألم في البداية كان قاسياً ثم بعد ثانية غام كل شيء ولم أحس على الإطلاق. لم أتذكر أي تفصيل لأن ظلاماً حاراً يشبه كسوفاً مفاجئاً غزا محاجر العيون. نسيت أن أقول لك إن صرخة السيدة



النبيلة سمعتها وأنا أسبل جفني يتثاقل. كانت جثتي قد بدأت تبرد وتتحلل.

- آه يا المهدي خويا وعلاش.

من حيث لا أدري تحسست رقبتي. شعرت بحزن عميق يأكلني. يفترس ما تبقى من فرحي. لقد كان المهدي منكسراً.

- لو توقف الأمر علي لهان. الذي كنت أخشاه حصل. فقد تم تعميم هذه الممارسة. صدقني أني كنت أعلم أنهم سيقدمون ذات يوم على سن سكاكينهم على رقابنا الهزيلة. وستظل الأفكار المسبقة تأكلنا حتى يأتي جيل غير جيلنا وربما غير جيلكم فيغير الأحكام، في قلبه الحار يجري دم الذي لم تتح لهم فرصة الشهادة. حين يفقد هذا الدم قيمته ستتحول المدينة إلى امرأة مبتذلة يتلذذ بلحمها الغض كل زناة القبائل البدوية وتتحول البلدة التي شربت من طفولتنا إلى مجرد ذكرى نبكي كثيراً مثل عجائز البلدة حين نتذكرها. البلدة المعلقة في القلب كالإبرة تسكنني يا الحسين وأنا أغمض عيني للمرة الأخيرة. أصوات حدوات الأحصنة وهي تقطع الطرق الصخرية الوعرة. ثغاء الأغنام وصياح أطفال الأحياء الفقيرة. فصل الربيع والفرح بأعشاش الحجل التي تفاجئنا تحت شجيرات السدرة أو الدوم القزم بأكوام بيضها. إنه موروثنا الوحيد يا وليدي الحسين الذي لا يمكن أن ينسى وأن يتسخ. الزمن الآن تغير. حتماً هناك من تكرس نحو مصلحة الشعب العليا وهناك من تكرس ضدها، ويبكي الآن في خفاء ما الوجوه التي أكلتها الحرب وغابت بين ردم الحفر. أمور لست لا أنا ولا أنت من يتحكم في سيرورتها.

ويتهموننا فوق ذلك كله بالخيانة الوطنية العظمى.

- يبدو أننا نحفر في عقلية أهل هذه الأرض. لقد جبلت على اليقين والإطلاقية. عقلية كل من ليس معي فهو ضدي.



كانت الغابات والأشياء الجميلة تتقاتل في داخلي. لم أجرؤ على مواصلة الحديث المر الذي تتضوع منه رائحة الدم. كنت فقط أعيد تركيب ما حكاه المهدي الذي كان صامتاً وهادئاً. حركات عينيه ثابتة، يصعد منهما بريق خاص. لم تجفا رغم الزمن. حرقة وجهه. يداه المتعبتان. رجلاه اللتان تورمتا من كثرة آلسير.

ـ الشهداء أنبياء. والأنبياء تقطع رؤوسهم ولا يكذبون.

المدينة التي كان يتأملها، نامت مبكراً.

ـ هه يا سيدي. ما بك صامت. ألا تفكر بدورك في محاكمتي. هذه يداي ممدودتان. تستطيع أن تقول لي أحفر قبرك وتسن بدورك سكينك على رقبتي.

ـ كلامك يا بابا المهدي كبير كبر تضحيتك. من أنا حتى أقول لك افعل هذا أو ذاك؟ صحافي بسيط بيني وبين تجربتك عمر وموقف لا يقفه إلا الأقوياء ولست أحدهم. ربيتم على شيء خسرناه اليوم. أنت لم ترتعب حتى أمام الموت وأنا أرتعش أمام تدوين كلامك. تصور الفارق الكبير!

ـ البحث عن الحقيقة صعب ومكلف ولهذا كل الناس يتفادون ذلك. من السهل أن نستفز الآخرين لكن ليس من السهل تحمل تبعات الاستفزاز. يجب أن يتحول ما قلته لك إلى جزء من مصيرك. من تفاصيل حياتك وإلا فاحرق أوراقك وانتظر الكسوف بصمت العجائز حتى يأتي الزلزال فيبتلعك ويبتلع المدينة.

ـ طموحي الأكبر أن أدخل قلبك.

ـ على كل حال تصرف بحسب ما يمليه عليك الواجب والدم والضمير. لا شيء غير ذلك.



ـ على الأقل أنا مرتاح لهذا الموت. على الذين اغتالوك أن يعترفوا ويعتذروا. هذا هو العزاء الوحيد للجميع.

ـ أفسدتهم الحروب الصغيرة التي يخوضونها ضد بعضهم البعض.

شعرت به في لحظة ما، منهمكاً في تأمل الإطار الفارغ بحزن وألم. لم يقل شيئاً ولكنه كان يتلوى في داخله كمن لدغته أفعى عمياء.

الألم والحزن لا يخبآ يا بابا المهدي. مثل النار، إذا حرقت، تركت بصماتها على اللحم. هكذا تعلمنا من دمكم. لا تحزن. البلدة التي لم تشهد قيامتك ستنهض. ستجبر ذات فجر جميل على المشي وراءك في جنازة طويلة بصحبة كل الشهداء ويعاد دفنك. أعدك بأننا سنجد عظامك عظماً عظماً ونعيدك إلى الحياة ونبحث عن نجمتك الجميلة وسط ملايين الأنجم التي اختبأت بفعل قهر الأصدقاء قبل شطط الأعداء.

فجأة قطع التليفزيون بيني وبين الحالة التي كنت غارقاً فيها.

«نهيب بالمواطنين الأعزاء أن يلتزموا الهدوء. قد صرح علماء الأرصاد الجوية بأن دائرة الكسوف بدأت تقترب لكنهم حتى الآن لم يستطيعوا تحديد يوم انتشارها على البلاد قاطبة. وندعوكم إلى مشاركتنا التمتع بهذه الرقصات القادمة من بلاد الشمس، بلاد الغابات والمياه الخضراء المعشقة بالألوان، التاهيتي المنقولة مباشرة من هوتيل روزفيلت».

ـ اسكت علينا هذا الجنرال المتقاعد الذي لا يعرف شيئاً سوى إعطاء الأوامر. لم نعد نلتقط من هذيان هذا التلفزيون غير بؤس الكسوف الذي بدأت ظلمته تنتشر بين أزقة المدينة.

كانت الساعة متأخرة. المهدي يأكله الألم وتتآكل في داخله بقايا الذاكرة المحروقة. في لحظة ما شعرت بعقدة الذنب تعذبني.

طلب كأسا أخرى من القهوة.



ـ مرة. بدون سكر.

أشعلت له لفافة تبغ شعبي كان يحبه كثيراً. هكذا قال لي عمي البوحفصي الله يرحمه الذي كان يمرر له التبغ من وراء عيون الشباك الحديدي الفاصل بينهما وكان يرضعه الماء من وراء الثقوب بواسطة قطعة القماش البالية قبل أن يهرب من السجن ويلتحق برفاقه ثم بالغابة.

ـ رأسي تؤلمني. صارت مثل حجرة يابسة.

سحب سحبة طويلة. تصاعد الدخان عالياً حتى خلته يغطى المدينة وبناياتها الهادئة وأضواءها التي كانت تعاني من خوف غامض. فكر قليلاً ثم عاد من جديد يسحب لفافة التبغ الشعبي. نظر إلى الساعة.

ـ يجب أن أذهب يا الحسين. الوقت أسرقه سرقة لرؤيتك. لكن قبل ذهابي فكرت في شيء مهم. إنها خدمة أريدك أن تسديها لي. ربما عذبتك كثيراً لكنك ملاذي الوحيد يا الحسين.

ـ أطلب ما تريده يا بابا المهدي.

قلتها باندفاع كبير وربما بدون شعور مني.

لأول مرة يطلب المهدي مني خدمة. والله لو قال لي افعل المستحيل لما توانيت لحظة واحدة. أفضل الموت على العودة خائباً.

ـ شوف. كان لدي أصدقاء كثيرون. أريد أن أعرف وضعياتهم المختلفة واحداً واحداً. الذين لم تخنى عيونهم. أريدك أن تبحث عنهم وتأتيني بأخبارهم.

اندهشت لاقتراحه ومع ذلك فقد بدا لي منطقياً جداً.

ـ إنها الحرب وفي الحرب تتغير الكثير من القيم. الزمن يبدل الناس. ستتعب كثيراً ولكنك ستنجز عملاً رائعاً لي ولك وللتاريخ، وتحقيقاً كاملاً عن الحالة التي اخترتها.

شعرت بنفسي صحافياً للمرة الأولى في حياتي. قبل هذا التاريخ كان



تعاملي مع أوراق الصحف الصفراء كافياً. مع الأرشيف القديم. لم يكن تعبي كبيراً جداً مثل هذه المرة. لقد تغيرت أشياء كثيرة.

ـ معك ومع دمك حتى النهاية يا بابا المهدي. سنعرف قبرك ونعدك بتغييره من مكانه المهمل وسط غابة حرقتها الشمس والقنابل.

ـ صدقني أننا لا نرفض تجميع أشلائنا من بطون الذئاب وعظامنا التي اختلطت بالأخشاب العتيقة. على كل حال، يظل اقتراحي مجرد رجاء لا أكثر وتستطيع رفضه.

وقبل أن ينهيها ابتسم ابتسامة خجولة ما تزال بها أتربة البلدة وبراءتها وسذاجة الطفولة البدوية. طلب مني ورقة بيضاء وبدأ يكتب بعض الأسماء وعن إمكانية مكان تواجدها. انتماءاتها السياسية وأفكارها. الجميل في الحكاية كلها هو أن هؤلاء الناس كانوا في مناطق متقاربة نسبياً. بعضها أعرفه جيداً.

ـ سأستعمل بطاقة الصحافة عند الضرورة.

ـ البارودي إذا احتجته. أطلبه. لن يتأخر لحظة واحدة.

رشف الرشفة الأخيرة. أطفأ ما تبقى من لفافة التبغ الشعبي ثم نهض. حك عينيه بتثاقل وتثاءب.

ـ أنا متأخر ومتعب. وعليك أنت أن تنام قليلاً. تنتظرك غداً أعمال شاقة.

صافحني بكبرياء وشموخ شعرت به يصعد من أنفه النافر.

ـ تريث يا الحسين في أحكامك حتى لا تظلم أحداً. للظروف أحكامها.

ـ هل تشك في نزاهتي؟

ـ أبداً ولكني أخاف عليك من الخطأ القاتل.

خطا خطوتين داخل القاعة. تأمل المدينة قليلاً ثم التفت إلي بعينين



متعبتين ما يزال فيهما بريق لم يخبُ. لم أستطع أن أراه وجهاً لوجه. أحنيت رأسي. أغمضت عيني. وحين فتحتهما بعد برهة وجيزة كانت تقابلني المدينة بصمتها. بينما كان ينام على الحائط داخل إطاره الصغير. كان واقفا بهدوء لا يبدو عليه أي انزعاج. سلاحه القديم. جزمته الثقيلة وألبسته العسكرية المتواضعة.

في الفراش رأيته مرة أخرى لكنه لم يكلمني. كابوس. كان منهمكاً في لملمة عظامه المبعثرة التي سالت منها دماء كثيرة ويحاول ترتيبها وتضميدها. كان دمه أسود. عيناه شاخصتان على أشياء غامضة وحده كان يعرف سرها.

حين توغلت أكثر داخل الفراش وفي كابوسي، كانت الأنجم المختبئة وراء غيوم مظلمة تبوح بأسرارها للمدينة قبل أن ينزل الكسوف على الأزقة وعيون الناس.




Arab_Books

الفصل الثاني

بـدايـة الـرحـلـة




Arab_Books

الوجوه الغامضة

هذه المرة شعرت بإرهاق شديد ولم أعد قادراً على تحمل كل هذه القسوة التي تخترقني وتعذبني بعنف شديد.

أصابني نوع من الغثيان قبل أن أقنع نفسي بضرورة المواصلة حتى النهاية مهما كلف الأمر من متاعب. استغرقت معي عملية البحث أكثر من شهر. يجب أن تصدقوا ما وقع لي لأنه، وأنا متأكد من ذلك، سيبدو لكم الأمر أغرب حتى مما يقع في بلاد الواق واق. كنت ألتقي نهاراً بهؤلاء الخلق ومساء أحاول أن أسجل الصغيرة والكبيرة بعد أن أخرج من جيوبي كل القصاصات الورقية التي أحملها. قمت بترقيمهم لتسهيل مهمة البحث. وعلى كل حال، ليس الأمر جديداً، فقد أصبحوا أرقاماً منذ زمن بعيد. حين انتهيت من العمل مع الرقم الأول، رأسي لم يعد ملكي. فقد صار أثقل من كتلة رصاص. ذهبت نحو الثاني ثم الثالث وأنا أتمنى أن ألتقي بأناس يعطونني على الأقل مبرراً للتريث في إصدار الأحكام القاطعة. بين هذين الأخيرين كان يمتد واد جاف وبعض الخلائق التي تعيش على الهواء وفي الهواء، خارج الزمن. عندما رأوا السيارة التي أقلتني هربوا ظناً منهم أني قادم لاستنطاقهم أو هكذا قيل لهم. غاب عني شخصان ضمن القائمة فاكتفيت بالاعتماد على كلام الناس للحصول على حد أدنى من المعلومات. وأريد أن أشير هنا بأني قد قمت بتشذيب كلام الناس لأنه يصل أحياناً حد التأليه والأسطرة.



الأول قيل لي عنه أنه سجين في مدينة بعيدة ناسها من حجر وقلوبهم من حديد وعيونهم من فوسفور وبطونهم عناكب، يعيشون بدون أوكسيجين لأن الكبار منهم شربوه ونشفوا الأرض ومياه البحر. والثاني قيل إنه غادر أرض الوطن في ظروف استثنائية، يسحب وراءه جثث الذين قتلوا أمام عينيه. قيل عنه الكثير والكثير وأنا أستبعد أن يصدق المهدي هذه الأخبار عندما تصبح في حوزته. سيسخر مني ومن تخريفي. مهما يكن في الحكاية من مبالغات فهي ليست كذباً.

ركضي هذا أوصلني إلى معلومات خطيرة أشعرتني أكثر بأهمية مهنة الصحافة التي كنت أعيش على هوامشها وقسوتها. البطاقة الميتة التي كنت أحملها ساعدتني كثيراً وأشعرتني في لحظات وهمية، بأن موضوعي سينشر قريباً في الجريدة التي أحمل بطاقة باسمها. بعض المجاهدين، وشيوخ البلدة قدموا لي مساعدات خصوصاً عندما عرفوا بأني من **الحكومة** كما يقولون. حتى إن بعضهم قادني إلى مكان المعارك التي جرت في المنطقة مع أن مسألة مثل هذه لم تكن تهمني إلا بشكل ثانوي. بعض المسؤولين في البلديات كانوا متحمسين جداً لهذا التحقيق لكني كنت أدرك أنهم في النهاية سيطلبون مقابلاً لخدماتهم. ربما كتابة مقال مثلاً عن منجزات البلدية وعن سخاء رئيسها وحبه لرعيته، عن الأخلاق الكريمة لدى بعضهم وربما عن شطارتهم وعن عيونهم البراقة التي تلتقط الغريب فور نزوله من الحافلة. خضت مع بعضهم اللعبة حتى العمق. الكلاب إذا لم تشممها العظم لا يمكنك أن تقبض عليها. وربما أهملوك كورقة كراسة قديمة. أحدهم حين دخلت عليه، وجدته غارقاً في كومة الأوراق البيضاء والصفراء والخضراء والحمراء. يوقع ويضع جانباً. يوقع ويضع جانباً وأحد موظفيه يلتقط الأوراق بشكل روتيني ثم يقوم بتنظيمها وترتيبها. ينفض القلم. يعيد التوقيعات. الأرض التي كان



يجلس عليها، غطتها الأوراق الموقعة التي لم يستطع الموظفون اللحاق لترتيبها وضبطها داخل ملفات.

شعرت بضحكة في أعماقي. تمنيت في تلك اللحظة أن أكتب مقالاً بالفعل لكن لمسخه ومسخ كل جنونه الفارغ. هؤلاء البشر يحتاجون إلى هزات عنيفة تريهم حدودهم وإلا يتمادون لدرجة التصديق بأنهم صاروا عظماء ولو كان ذلك على الجهل. تمنيت فقط لكني لم أفعل شيئاً. قد يأتي يوم وأجد الفرصة الكافية لقول ما رأيت.

يالطيف! كان يشبه داياً من دايات الجزائر. حتى شواربه تركها تتدلى ليكون الشبه متطابقاً.

الأكل. حتى الأكل كان يصله جاهزاً في سيارة خضراء، تأتيه من بعيد. والماء يأتيه من صخور الصحارى بارداً، بارداً زلالاً. آلمني كثيراً أهل البلدة حين التفوا حولي وأنا متجه إلى البلدية، ليقصوا على مسمعي غرائب لو وضعت أمام غرائب ألف ليلة وليلة لبهتت هذه الأخيرة أمامها. يحكون ولا يتعبون. في قلوبهم حقد كان كل يوم يزداد قليلاً ليتحول إلى خميرة من البارود ذات زمن ستشتعل وستتحول إلى حرائق تأكل الأخضر واليابس. في عيونهم الباردة انسحبت كل ذرة للأمل. - يا الحسين خويا شوف، أنا ممثل سكان البلدة، نطلب منك قاطبة أن لا تصدق هذا الرجل. أكبر كذاب محترف. شيطان يقلب التحت فوق. والفوق تحت. آخر سلالة بني كلبون لعنات الله عليهم.

بني كلبون؟ السلالات التي لا أصل لها. أكلوا الأرض ثم حولوها إلى يباس والآن ينقضّون على من عليها.

انتبه لي رئيس البلدية متأخراً. نفخ أوداجه. كان القلق قد بدأ يزعجني ويربكني.

- فكرتم فينا أخيراً، يرحم والديكم. سمعت بمهارتك الصحفية.



نحن لا نطلب منك الشيء الكثير. أكتب مقالاً جميلاً عن البلدية. أكتب جريدة إذا شئت، فلن يكون ذلك إلا عدلاً بالقياس لما أنجزناه.

- إن شاء الله يا سيدي ولكنني هذه المرة على الأقل أنا في مهمة دقيقة ومحسوبة تتعلق برجل استشهد أيام الثورة.

وكان يعني بغباء ما يقوله. يتصور أن صفحات بكاملها تحت تصرفي أنا. أنا وحدي. ولم يرتح إلا عندما قادني إلى أماكن كثيرة ليظهر أمام عيني الإنجازات التي غيبتها الصحافة الوطنية. وعدته بالعودة.

قال بأنه يقرأ سمات المحبة والطفولة في عيني وأني أذكره بوجوه الشهداء الذين ضحوا بكل نفيس. كانت العملية تمر معي بسرعة كان يصعب علي في البداية فهم تفاصيلها والتدقيق فيها لكني في الأخير بدأت أندهش. كيف تحول الناس إلى بقر من نوعية مختلفة. يضع رجليه في قلب كرسيه خوفاً من أن يهرب الكرسي من تحت إليتيه المنتفختين. عندما يغرق في الأوراق والتوقيعات الكثيرة تظنه موظفاً في وكالة فضاء، إذا ضاع منه رقم واحد حصلت الكارثة الكبرى.

قبل أن أغادر المكان، اقترب مني. وضع في يدي حفنة من الأوراق الخضراء والزرقاء والصفراء. قال هذه بركة رجال البلاد. رفضتها بعيني. شعر بنفسه يتعرى من جلده الخشن. استل بصعوبة من وراء شفتيه المنتفختين، ابتسامة مقحمة تقطر خبثاً وابتذالاً وقبل أن ينزل الظلام على وجهه المنكسر، قال:

- أنت شاب أصيل. حاولت أن أجرب نيتك. أخوك هنا. إذا احتجت إلى أي شيء، أرجوك لا تتردد.

ضغط على كلمة هنا.

لكن الغريب هو أن هذه الممارسات تكررت معي في معظم البلديات تقريباً. الفوضى نفسها. اللجوء إلى نفس الوسائل والسبل لشراء



الضمائر، ماعدا مكان واحد. فقد تحولت زيارتي إلى طرفة. بدا لي في البداية أن الرجل الذي التقيت به كان أذكاهم. طلب مني وثيقة التكليف بالمهمة بلهجة آمرة:

- اسمع. اعطني «L'ordre de Mission». وإلا عد من حيث أتيت لا وقت لي أضيعه.

تظاهرت بالتفتيش عنها. نظر إلي بعينين مربكتين. سرى في الخوف من أخمص القدم حتى شعرة الرأس.

- مبادرة منك أم لجريدة بالفعل.

في اللحظة ذاتها تظاهرت بإسقاط بطاقة الصحافة التي كتب على رأسها باللغتين، الجهة التي أعمل فيها. التقطها. نظر إليها ملياً كمن يحاول قراءة ما وراء السطور.

- هذه مهمة جداً. أنت إذن هو الحسين بن المهدي بن محمد. الصحافي المرموق. تظاهر بأنه يعرفني من زمان. الذي فاجأني في الموقف، ثقافته الواسعة(؟) بحيث لأول مرة، منذ بداية هذه الرحلة، أصادف رئيس بلدية يعرف فك الحروف وكتابة اسمه بشكل صحيح.

أخوه عسكري قديم. من أثرياء الحرب. عرفت ذلك من ناس البلدة. أفهمته بأن المهمة الموكلة إلي ليست البلدية لكن التحقيق حول شخص هو السادس في الترقيم الذي بين يدي.

- للبلديات معلومات عن كل ساكنيها حتماً. لا يغيب عنها شيء من مثل هذه الأمور.

- الأسباب؟ لا نستطيع أن نقدم معلومات دقيقة مثل التي تطلبها بدون معرفة الأسباب والخبايا.

أفهمته أني لا أخبئ شيئاً ولكني أقوم بمهمة إعلامية كما هي العادة في كل مناسبة من مناسبات الاستقلال الوطني. لم يبد عليه أنه اقتنع



كثيراً ولكنه مع ذلك قال بأنه سيساعدني بعد أن وضعني بين أيدي أمنائه.

الغريب أو الأغرب، هو أن كل المعلومات التي قدمتها لي البلدية لم تكن صحيحة بتاتاً. كانت مقلوبة رأساً على عقب. متناقضة مع ما رواه أحد شيوخ البلدة. هؤلاء الناس. قال لي. يكذبون يا ابني. إنهم يشربون الكذب في الحليب الذي يأتينا من الخارج. يشربونه مع أخبار التليفزيون والإذاعة والمجتمع المنافق. لم يقل أكثر من هذه الكلمات. كان شعلة حارقة. ثم غاب عني ولم أستطع سؤاله في ذلك اليوم الغريب حتى عن اسمه ولكنه وعدني بلقاء قريب عندما تحين المناسبة.

رئيس البلدية لم يضف شيئاً باستثناء كلامه الذي يشبه الهذيان. مثل عسكري مهزوم، لم يعلمه فشله إلا إعطاء الأوامر والمطالبة بتنفيذها حتى ولو كان ذلك ضده. المهم الكلام والهدرة بدون توقف. عندما تعبت سألته مباشرة:

ـ المهدي يا سيدي. المهدي هل تعرفه أو تعرف من يعرفه؟

ـ هذا ليس مهماً. لقد كان رجلاً عظيماً. المهم عندما تكتب يجب أن تذكر موتانا بخير. أعواني سيفيدونك كثيراً.

ـ أعطوني على الأقل بعض الوثائق لتبرير مدحي.

ـ أنا. أنا أكبر من الوثائق. قلت لك كان أكبر من الذين قتلوه. الاستعمار الغاشم. أنت صحافي وعليك أن تكتب فقط. هذه هي مهنتكم أنتم أيها الصحافيون.

ـ لكن ماذا أكتب يا سيدي.

ـ سيقول لك رجالي ماذا يجب أن تفعل. شكراً.

قالها بلهجة آمرة، وكأن رتبته العسكرية ازدادت فجأة ولم يصدق عينيه. وقبل أن أخرج استدرك:



- لدي بعض من بإمكانهم إفادتك أكثر مني.

- يا ليت يا سيدي الرئيس. فأنا أحتاج إلى كل التفاصيل الدقيقة.

ضغط على زر من مكان ما في مكتبه. لم أسمع إلا صوته وهو يرن في مكان آخر. تجارى إليه بعض من كان بعين المكان. وضعت يدي على فمي. كانوا نسخاً مكررة من بعضهم البعض. الوجوه نفسها. القامات نفسها. الأرجل. الطول. لون البشرة. تقاسيم الجبهة. المشية الآلية التي تعطي الانطباع كأنهم كائنات آلية تُحرك من مكان ما. آذانهم واسعة. أنوفهم ممسوحة. ألسنتهم كانت تنام في جيب رئيس البلدية. حين طلب منهم الكلام لم يضيفوا شيئاً أكثر مما قاله لي. بدا لي في لحظة من اللحظات كأن أدمغتهم كانت معطلة عن العمل. بدأوا يكررون بعضهم بعضاً حتى في طريقة نطق الكلمات.

أشك وأنا أقص هذه الخرافات أن أجد من يصدقني ومع ذلك، وفاء للمهدي، سأفعل حتى ولو وجدت نفسي أحكي لنفسي.

لم يكن العالم عالماً. كان شيئاً آخر غير الذي نمشي عليه ونشرب هواءه مع آلاف الخلق. المفاجأة الأخرى حدثت لي مع أعوان رئيس البلدية قبل خروجي بقليل. رأيتهم واقفين في طوابير بشرية طويلة جدا. كانوا كالخط المستقيم، مسطرين بشكل دقيق جداً. الواحد تلو الآخر. اليد اليسرى على المؤخرة واليد اليمنى كانت تمتد إلى يد أحد الموظفين الذي غابت ملامح وجهه. كان وبشكل آلي، يناولهم نقوداً على شهادتهم ثم يتسرسبون داخل ساحة البلدية كالماء، تعلو بينهم وشوشة الذي كسب الحرب بخدعة. كان الموظف يرتدي لباساً مموهاً يغلب عليه اللون الكاكي. أراه للمرة الأولى منذ أن دخلت إلى هذه البلدية.

لم يبق في النهاية إلا أنا ورئيس البلدية والضباب البحري الذي غطى كامل البناية وأعطاها طابعاً يقترب من قصور ألف ليلة وليلة.



ـ هل أنت مقتنع بما قلته لك. أرأيت حب الناس وصدقهم؟ أكتب كل النعوت الحميدة.

ـ سأفعل ذلك يا سيدي. سأفعل ذلك.

قلتها بخوف تسرب على خطوط وجهي.

ـ لكني لم أفهم جيداً.

ـ ألم تسمع. أنت صحافي ونحن نحترم مهنتك. أنت كذلك عليك أن تحترمنا. أكتب وانتهى.

ـ طيب يا سيدي. أشكركم على تعاونكم.

لم أفهم الشئ الكثير.

حاولت أن أسأل البلدة بكاملها. لكني لم أستطع رؤية أي شخص. حتى الذين شاهدتهم من بعيد، كانوا يهربون قبل أن أصل إليهم. والشخصان اللذان تطوعا لإفادتي كانا صورة مكررة من الشخوص الذين رأيتهم في البلدية. يختمون أحاديثهم بخنوع واضح وتواضع زائف.

ـ هذا ما نعرفه عن هذا السيد، والله ورسوله أعلم. ثم يختبئون داخل ألبستهم الرديئة وكالبرق المتسخ بوحل الأمطار ينطفئون.

كنت حزيناً لأن المعلومات التي تحصلت عليها لم تكن مهمة جداً. وأقنعت نفسي بأني سأكتب بصدق وأحكي عن كل الظروف المحيطة بقصة هذا الرجل الخرافي.

قمت باكراً في الصباح، لأن العثور على سيارة في هذه البلدة يعذب العمر. حين ركبت وهممت بغلق الباب أوقفني شيخ هرم. تأملت قسمات وجهه. بدا لي كواحد من أولياء الله الصالحين الطيبين. قبل أن يذكرني ويقدم نفسه، تذكرته.

ـ يا الله. أنت يا عمي؟ أين كنت؟ آه يا الشيخ لماذا تركتني وحيدا؟



تذكرت صراحته وكلماته الأخيرة التي ظلت تطن في رأسي طوال أيام التحقيق. سأل السائق والركاب معاً:

- هل بقي مكان للشيخ بجانبكم يا سادة؟

كانت السيارة مليئة بالركاب. لكن الشيخ أصر على الركوب لأنه كما قال، زوجته بالمستشفى وقد تفيض روحها في غيابه.

حاولت أن أترك له مكاني لكنه أصر على بقائي.

- أنت بالذات لازم تبقى. عليك أن تعرف يا ابني كل شيء. حكام هذه المنطقة عصابة ركبت الثورة والشهداء وبعدها باعوا كل شئ للطمع.

- لكن يا الشيخ. . .

- شئ في دماغي أريدك أن تعرفه.

الشيخ الذي غاب هو ذا يعود، على وجهه غمامة خفيفة تزيد من وقاره. استطعت بعد جهد جهيد أن أقنع صاحب السيارة بقبوله وتكفلت مسبقاً بأية مخالفة يمكن أن تحدث. وضعت في يده كل أوراقي حتى يتأكد من جديتي.

- أنا جاد يا سيدي. إذا اعترضنا حاجز شرطة ادفع بهذه النقود مخالفتك وإذا وصلنا بسلام سأستلمها منك.

لكنه حين لمح بطاقة الصحافي وتأكد من وظيفتي، انتابه شيء يشبه حالة الخوف. أعاد لي كل وثائقي ودراهمي واستقام بظهره وترك السيارة تنزلق.

- اركب يا الشيخ. عليها وعلى ربي.

ثم توجه نحوي بنوع من المزاح:

- عليكم أن تتكلموا عن مشاكلنا. البنزين غال وبلادنا تنتجه: مصيبة.

كان الشيخ صامتاً. لم يقل شيئاً وإن كانت قسمات وجهه تخبئ اندهاشا كبيراً. لست أدري ما الذي ذكرني بها، ولكني تذكرت مريم التي



سرقتها المدينة مني. فأنا لا أستطيع أن التصق بعينيها المحروقتين وبشكل كامل إلا في حالة سكر. واليوم أتذكرها وأنا مصطول، مشلول العقل ومنكسر الذاكرة. شيء من الرهبة دخل بين مسامات جلدي.

تمتم الشيخ في أذني قاطعا الطريق بيني وبين مريم.

- كيف بدت لك بلدتنا يا ابني؟؟

- والله يا الحاج إذا كنت تريد الصراحة ما فهمت فيها والو. جميلة لكن هناك غموضا كبيراً يلف التفاصيل التي أعطيت لي والتي رأيتها.

- يعني؟

- أنا أبحث عن رجل. عن تاريخه. حياته. المفروض أن تساعدني البلدية. لكنهم أتعبوني أكثر مما ساعدوني. صدقني يا الحاج. حتى رئيس البلدية لم يضف لي أي شيء يذكر.

- كل البلدة تتحدث عنك في الخفاء. يظنونك مراقبا ماليا أرسلتك الحكومة. لقد كنت تتكلم مع الرجل الذي كنت تبحث عنه.

- لم أفهم جيداً.

- إنه الرجل نفسه الذي باع المهدي والبلدة للنار. أعرفه وكل الناس يعرفونه. الذين وضعوه في ذلك المكان كانوا قتلة. باع الدم بأبخس الأثمان وحول أموال البلد إلى مستعمرة.

اندهشت، على الرغم من إدراكي ما في كلام الشيخ من صدق. أيعقل أن يكون ذلك السيد مجاهدا؟ بين يوم وليلة ينتفخون ثم يتحولون إلى أبقار هولندية. السمنة والجهل. يبدو أنهما صفتان متلازمتان.

- تصور يا الحسين يا وليدي، يقول الشيخ، لقد غير اسمه وسم العائلة. يقول أن الاسم ليس ملائما لعائلة كبيرة. فعلوا ما يفعله بني كلبون، حولوا البلدية إلى مستعمرة للكهنة والسحرة. يأكلون لحم البشر صبحا ومساء. لم أكن أريد أن أتلكم لكن قلبي حرقني. فرحت حين



سمعت بأن شخصا من الحكومة جاء يزورنا بعد الاستقلال. بعد قرابة العقدين، مازال يقص الأقاصيص الغريبة عن الجهاد كأننا ما زلنا في أو سنة استقلال. يؤكد للبلدة بأكملها أنه لولا وقار الأولياء ولولا جرأة عائلته الخارقة، لما تحررت البلاد أبداً.

كانت تبدو على الشيخ حالة تعب كبيرة، تتزحلق من عينيه بكد حتى تصل الأخدود العميق الذي ينطلق من جبهته ويتفرع على خديه وعنقه. في عينيه بقايا دموع تحجرت حتى تحولت إلى صخور بركانية سوداء، تبرق كلما شعر بالحزن يأكله من الداخل.

كنت أشعر أن هناك شيئاً يمشي على غير توازنه الطبيعي. نظرت إلى عيني الشيخ من جديد، كانتا حادتين حتى نسيت أن أطلب منه مرة أخرى اسمه. كان يحكي عن كل التفاصيل، لكن شيئاً ما، أكبر من الخوف والخيبة كان ينتحر بداخله.

لم أكن أصدق لأن ما حكاه الشيخ شيء غريب بدوره ومع ذلك فهو أكثر استساغة مما سمعته في البلدية وأخف وطئاً مما شاهدته عيناي من أشكال متشابهة تردد المحفوظة نفسها بطريقة قرآنية بحتة.

قبل أن أنسى. هناك ملاحظة صغيرة أريد أن أذكركم بها عن الرقم٧، ستقولون إن في الرقم ذاته، سحراً خاصاً. بعضهم يقول عنه، إنهم رأوه في كبريات المدن بحقيبة كبيرة، يمشي بخيلاء، يمشي بدون توقف أبداً. يمشي بعدما وضع أنفه رهينة عند البوابين. وبعضهم يقول إنه لم يعد يعلم عنه أي شيء منذ أن غادر البلدة متجها إلى البلاد البعيدة ليواصل دراسته. أما التفاصيل التي تخص حياته، فلم تتعبني كثيراً. تفصيلات شخصية جداً. ربما كان الأفضل تركها وإهمالها إلا عند الحاجة الماسة لتفسير حالة أو وضع ما في حياته.

الخلاصة أني لم أجد صعوبة كبيرة، على الرغم من التعب، في



إنجاز مهمتي. عفواً عن الرقم ٧، هناك رواية أخرى ربما فتحت أمامنا آفاقا جديدة. يقولون إنه انتحر بعدما قام بذبح نفسه من الرقبة. لكن أجواء المدينة والشروط التي ذبح فيها نفسه كانت قد تغيرت ولم تنفعه كثيراً من أجل الحصول على الشهادة، فبكى حتى تحول إلى فحمة أخذت رمادها الرياح الحارة.

الكثير من المعلومات لم تكن تعطى بالمجان مما دفع بالكثيرين إلى اختلاق القصص المثيرة فاختلط علي الحابل بالنابل ومع ذلك استطعت أن أسلك رأسي.

أنا الآن، وهذه الطريق الممتدة أمامي كالقيامة، على يقين تام من أن المهدي سيضحك مني ويتهمني بالخرافات والعقل المتخلف الجامد.

كان الوقت مساء، حين وصلت. الساعات الأخيرة من النهار تلفظ أنفاسها ببطء كبير. في ذلك اليوم الثقيل بدت لي المدينة قد غيرت شيئاً ما في جلدها. من طقوسها المألوفة وغير المألوفة. الناس منهكون. يمشون كالعائد من حرب الهزائم وخيبات الأمل. البنايات مهتوكة الأعراض مثقلة بشكل جحيمي بالخلائق الوافدة من الأماكن البعيدة. كلهم متعبون ولا أحد قادر على تشغيل ذرات مخه الصغير. ولا حتى المدينة التي قاومت جيوش الاحتلال ثم استسلمت لهدوء غير مريح ولضجيج يصل آذانها خافتاً مرعوباً، وللذة تشبه اللذة الجنسية حين تمارس في شكل عادة سرية.

المدينة. دائماً المدينة. ظننت أننا دخلناها فاتحين ولكنها كالسوسة تدخل العظم بصمت وأناة ولا تخرج إلا إذا أخرجت معها عمرك. رائحتها غير الأليفة تمشي في الدم كالهواء المؤكسد. نكرهها، ومن حيث ندري ولا ندري، نجد أنفسنا منجذبين نحو ظلام نجومها.



فكرت، قبل المرور على البيت، أن استكمل بعض المعلومات الأرشيفية في الجريدة قبل أن يوصدوا أبوابها في وجهي، على الرغم من التعب الذي كان ينهكني. تمنيت أن أضع رأسي على الوسادة ثم أترك نفسي بعدها تسرح في خبايا اللذة. عند الباب واجهني شرطي بوجه بارد كالحديد. نزل على عينيه مخاط أصفر لا يدعو أبداً إلى الطمأنينة. أراه للمرة الأولى في حياتي كلها. فوجئت وهو يطلب مني أوراقي. تعمدت أن أترك البطاقة الصحفية تنزلق على رأس الأوراق كما هي العادة في الحالات المحرجة.

ـ انتظر لحظة.

قالها بلهجة سبقه إليها البوابون في البلديات وفي الوزارات. إنها المرة الأولى التي يعامل فيها الحسين بن المهدي بن محمد في هذه الجريدة، بهذه الطريقة المريبة. شعرت بنفسي أمام هذا الباب الخشبي العتيق كغريب قذفته أمور الدنيا الموحشة نحو هذا الفراغ. رائحة الورق التي كنت أشمها في الجريدة وألفها أنفي، تغيرت كثيراً وأصبحت تشبه إلى حد كبير رائحة الولادات الفاسدة ورائحة الأفواه الكريهة.

حين عاد. كانت تتراقص بين يديه رسالة عرفتها من الخط أنها كانت لساسافندا. فتحتها. هذه لعنة أخرى تضاف إلى اللعنة التي حلت بي فأفقدتني منصبي. كلماتها لم تحركني كثيراً على الرغم من قسوتها: **أنت راح تجنني معك. هبلتني بغبائك وقلة تفكيرك. وزد وليت كذاب محترفْ. والله ما نسامحك. يبدو أنك لا تستحق كل ما أمنحك من حب وأشواق. أنام معك في الفراش نفسه وتتركني في غيظي وتمارس العملية السرية يا وحد الوحش. لا تقول لا، البقع التي وجدتها في الفراش تفضحك. مريض ومرضتني معك.**



فقهقهت طويلاً لست أدري هل كان ذلك سخرية أم ألماً. عرفت سر اللعبة القذرة التي مارسوها عليها. حتما أخبروها باستقالتي. يعرفون قوة شخصيتها وعنفها وسلطانها علي.

المدينة أياديها طويلة كالأخطبوط. تأكل البني آدم بأصابعها وأظافرها وشوارعها. أدركت متأخراً جداً، أن ساسافندا، كانت مشروع حب فاشلاً جداً. في لحظات الانهيار، تبدأ تفاصيله تتكشف مثل غيوم تفضي عن شمس حارقة. مع أني، قبل أن أترك البيت وأسافر، تركت لها رسالة كاملة أشرح لها فيها أسباب سفري الفجائي. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

حاولت مرة أخرى أن أدخل الجريدة لكن الشرطي أصر على منعي.

ـ إنها الأوامر يا سيدي.

قالها مع ابتسامة بدت مقززة.

طلبت منه بطاقتي الصحفية. لقد عكر فجأة مزاجي. هؤلاء الخلق، عندما يتعلق الأمر بتسويد الدنيا في وجهك، فهم أول من يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه.

ـ بطاقتك حجزت. قدمت استقالتك من الجريدة.

في أعماقي ندمت لمحاولة دخولي إلى الجريدة في حضرة هذا الطاغية. فأنا لم أنته بعد من العمل على الأرشيف. وعلي أن أجد وسيلة تسمح لي بالدخول.

ـ طيب دعني أتكلم على الأقل مع السي بلقاسم.

ـ إنها أوامره يا خويا. يا السي الحسين.

نطق اسمي كمحقق يستفز متهماً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه.

ـ طيب والسي مصطفى، نائب رئيس التحرير؟

ـ خرج إلى لندن مع عائلته.

هذا السيد في رأسه قطعة صابون من النوع الرديء وأنا لا أستطيع



البقاء هكذا جامداً في هذا المكان. عودوه على الأوامر وكبروا حجمه أكثر من قدرته على التحمل. في بلادنا هكذا الحياة، تعرف شرطياً أو بواباً أحسن مما تعرف وزيراً، لأن منصبه أكثر ثباتاً من منصب الوزير ثم أنك بواسطته تستطيع أن ترى من تشاء وبدونه ستبقى عند الباب صغيراً مهاناً. تأكدت أن هذا الشرطي لن يفهمني أبداً حتى ولو بقيت العمر كله استجديه وأفهمه قضيتي وبأني مهما كنت سيئاً فلن أقدم على سرقة الأرشيف ولن أقدم على اغتيال مسؤوليها. فأنا أضعف من النملة وأسحلتي معروفة، كمشة حروف لا تسمن ولا تغني من جوع. الجدران التي كنت أتكئ عليها انسحبت كلها دفعة واحدة. ساسافندا تشتمني مثل أي معاكس في الطرقات. البطاقة الصحفية سحبت مني وأصبحت لا شيء. الوظيفة راحت من زمان. لم يبق إلا هذا الأنف الطويل الذي لم يعد يصلح لأي شيء. وهذا اللسان الذي سيقطع ذات فجر، وهذه الرقبة التي أصبحت جاهزة للقطف ومؤجلة ليوم سيأتي بكل تأكيد إذا بقيت الحال على ما هي عليه.

لم يعد الشرطي ينظر إلى وجهي. تفاصيلي لم تعد تهمه في شيء. رقم يوجد مثله في هذه المدينة بالملايين.

جلست عند مدخل الجريدة. استفزني من جديد.

- ليس هذا مكان الاستراحة يا السي محمد.

- سمي الحسين بن المهدي بن محمد.

كنت أفكر في الدخول من السطح، فأنا أعرف المكان جيداً. صممت على ارتكاب الحماقة الكبرى. يحدث معي أحياناً أن تطلع الدودة التي في القلب إلى رأسي فيتحول كل شيء تراه العين إلى رماد ثقيل. أقدم بعدها على ارتكاب الحماقة التي كثيراً ما أندم عليها بعد فوات الأوان.



فجأة رأيت الميموني قادماً. حمدت الله، لأني شعرت بأن فتحاً مبيناً حدث. عندما أرى هذا الميموني أتذكر دائماً مشكلة السكن. فعل كل شيء للحصول عليه ولكنه لم يفلح. جرب ذات مرة اقتحام بيت، كما يفعل جميع الناس ولكنه حين عاد إلى الجريدة وهو يحكي بفرح حصوله على السكن كانت الشرطة تقتحم بيته في غيابه وترمي أغراضه في الشارع. العملية كانت ستكلفه منصبه وشهوراً من الحبس لولا تدخل المدير. يقول دائماً: مقطوعون من شجرة يا الحسين خويا. والمقطوع من جدرة ما عنده وين يلصق. يقتحمون المدن بعساكرها وباراتها ونواديها وملاعبها ولا أحد يهددهم بالحبس. سكن يذل الوجه. سأطلب من البلدية أن تعطيني كرتوناً أنقله على ظهري إلى الصحيفة يومياً. وحين يأتي المساء، أنزل إلى الشوارع مثل السكارى وأختبئ فيه حتى صيحة الديك الأولى.

انتبهت إلى وجه الميموني. شيء ما فيه بدا لي غير مألوف أبداً.

- أهلا يا الميموني.

- أهلا. غيبة يا الحسين.

- يا سيدي الله لا يغيبك. العمل هو العمل. لا شيء لدينا نتسلى به غيره. أنت تعرف الحالة.

أفهمته بصراحة بأني احتاج إلى الأرشيف ربما للمرة الأخيرة، على ضوء المعلومات التي كانت بحوزتي. في البداية ارتبك، لكنه سرعان ما عاد إلى قهقته غير المعهودة.

- واش بك يا الميموني.

حاولت أن أقنعه بأني تنازلت له عن منصبي للذهاب إلى المؤتمر الاستثنائي وسأتجاوز رغبة الذين انتخبوني لأمثلهم في النقابة.

- لك كل شيء يا الميموني، لم يعد يهمني في هذه الجريدة شيء.



نظر إلى عيني بقسوة. ثم هز رأسه ساخراً.

ـ مكانك أخذته بالتزكية. شفت حتى في هذه وصلت متأخراً.

ـ ليس من حقهم.

قلتها بشكل عفوي جداً.

ـ أنت معزول وقائمة الذين يحضرون مؤتمر من الصحافيين جاءت من فوق. الحزب هو اللي يعينها.

ـ والديمقراطية التي يتشدقون بها.

ـ لا توجد ديمقراطية. توجد مصلحة عليا للوطن.

سمعني حمو الذي كان يحرث الشارع العام. نظر إلي مليا. تمتم:

ـ ما زلت تثق في أبناء الكلب والطحانين؟ خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع.

شيء ما تغير في وجه الميموني. تفرسته بشكل دقيق. كم كنت غبياً يا الحسين. لم يكن الميموني يحمل أنف. كسرت عيناه وأذناه. اختصر لسانه إلى حد لسان الضفدع لينق بشكل رقيق. حاول أن ينزلق إلى ردهة الجريدة لكني قبضت على يده بقوة. يستحيل أن أتركه. حاجتي ماسة للأرشيف.

ـ أرجوك يا الميموني. ورأس أمك أحتاج إليك.

مسد على يدي حتى وصل إلى الساعة. تذكرت أنه في المرة الماضية كان يريدها ولكني تجاهلته. بحركة آلية نزعتها ووضعتها في كف يده.

ـ خذها. تستأهلها. خيرك سابق.

لمعت عيناه كالثعلب.

ـ هكذا. كن رجلاً نكن معك أكثر رجولة. تصور يا الحسين غيبتك كانت جميلة. أنا الآن لم أعد شخصاً عارياً في هذه المدينة. لقد أعطوني سكناً وقريباً سأحصل على سيارة هوندا آكور في أقل من شهر.



هوندا يا محاينك. والبقية تأتي. كنتَ غبياً حين استقلت. بإمكانك بذكاء أن تسرق منهم ما تشاء. واش يقول القوال: إذا جاءك الزمان بضره، ألبس له ثوباً من الرضى، واشطح للقرد في ملكه.

في اللحظة ذاتها وقف حمو شامخاً عند مدخل الجريدة وكأنه خرج من العدم. لا أدري كيف عاد.

ـ يا الميموني راك غالط. لم تسرق إلا الهواء. هم سرقوا منك ما تبقى منك. أنت بعت واشتريت.

نظر إلي بحدة. شعرت به يعريني حتى من جلدي. كل أشيائي الضامرة ظهرت أمام الملأ. رأيت كل الناس يقهقهون ويصفقون لانكشافي كالقرد. بصق حمو على الأرض. حاول أن يتقيأ ولكنه لم يفلح. ثم انزلق إلى زقاق مظلم.

ـ خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع.

الميموني لم يعر المسألة أي انتباه. ظل منهمكاً مع الشرطي الذي رأى المشهد بكامله. وشوش في أذنيه ببعض الكلمات. فجأة رأيت عيني الشرطي تبرقان كقطعة فضية تحت شعاع نافذ. لم يعد يرى شيئاً. التفت برأسه ناحية اليمين ثم وقف بجمود. لا يرى ولا يسمع، ولا يعرف ماذا يقول.

سحبني الميموني من يدي ثم أنزلني إلى القبو في قاعة الأرشيف. أغلق الباب وراءه بعدما كتب على واجهته الزجاجية بخط فرنسي سيئ.

Fermé pour inventaire مغلق بسبب الجرد. أنزل لي كل ما طلبته منه، بينما هو غاب في إحدى الزوايا المظلمة ينفض الغبار عن الجرائد القديمة ويهيئها للتجليد ويرتبها. كان علي أن أعرف الكثير عن هؤلاء الشخوص وعن علاقاتهم. عن الظروف المحيطة بحياتهم وعن علاقتهم غير الواضحة مع المهدي.



يقول بعض الصحافيين الذي يستهويهم التشويش كثيراً، إن سبب رفض الموضوع هو العلاقة التي كانت تجمع المهدي برجل هو الآن في أحد قمم الجبال المطلة على المدينة. من الذين يحلون ويربطون. والاهتمام بالأرشيف قد يوقظ ثأر العظام التي أكلتها التربة السوداء. وقد يزعج هدوء المدن الجميلة التي نامت على أسرة من يحلون ويربطون بقوة.

على الرغم من حساسيتي المفرطة من الروائح الكريهة والغبار فقد قاومت حتى ساعة متأخرة من الليل. حين غادرت الجريدة، كانت الشوارع خالية حتى من أنفاس القطط. حاولت أن أنظر إلى الساعة لكني تذكرت بأن الميموني سحبها مني. لا أحد في الشوارع غير الذين يبقون بقلب الطرقات الخالية بالرغم من أنف المدينة. السكارى. المتعبون. الذي. كانت الساعة متأخرة جداً. اليوم الأربعاء. معنى ذلك أن الرعية منهمكة مع مسلسل دالاس الذي يشرح النفوس ويفتح الأبواب الموصدة. الشباب الآن يحلمون بليلة مع باميلا أو سوهلين وكل امرأة في خلوتها تكره وجه جي.آر ولكنها تحب ذكورته وحيلته. والجميع يرون في عائلة الإوينغ النموذج الذي يجب أن يقتحم كل بيت ويعشش في الأدمغة كلها. يقال في المدينة إن أسرة الإوينغ النفطية قدمت هبة ضخمة لبناء المستشفى التجميلي في المدينة. حتى أن هناك من العارفين من يزعم أنها وراء سلسلة بكاملها من المستشفيات التجميلية في إفريقيا وآسيا.

بعد غد سيأتي يوم الجمعة البئيس والذي لا أحبه. بعضهم سيرابطون عند المساجد ابتداء من الخامسة صباحاً ليكونوا سباقين لاحتلال أفضل الأمكنة القريبة من الله ومن الإمام الذي سيذكر اليوم في خطبته فضائل الحمص في الجماع والعسل الحر في الانتصاب. اليوم البلاصة الأولى،



تطيح عليها الريسان. النفس يا محاينك؟ الإمام سيقول عنها كل شيء. يتمتم زميل لزميله. لا حياء في الدين. والبعض الآخر سيركضون نحو الملاعب.وسيحكون لمدة أسبوع ويتناوشون عن وقائع المقابلات الرياضية في كرة القدم: والله كنا سننتصر عليهم لولا تحيز الحكم القواد. الزامل إبن الزامل. اشتروه بأبخس الأثمان. سحقناكم يا وجه الشماتة في المقابلة. ما فيه شماتة قدك يا عطاي. المباراة كانت مبيوعة. ثم فجأة تسحب السكاكين. ويتحول الملعب إلى مجزرة، وتحشى الأمخاخ من جديد بمزيد من الذعر البدائي. واحد على شفاه الموت. وآخر يتحسس جروح ظهره ويتمتم، كان يجب أن نغلبهم. مولودية. حمراء وبيضاء هي. المدرب الجديد ملعون أخذهم كلهم من مدينته. لمّ الغرابة. فهو من جهتهم. حرقناهم في إسبانيا يا بابا. ألمانيا لم تتنفس معنا. الطليان لو لعبوا معنا كنا أكلناهم. رب الفيفا هي السبب. كلهم كلاب. ألمانيا؟ أنت تغلب ألمانيا يا وجه النحس؟ الزهر. الزهر في بلاد الحجر.

تتقاتل ومدينتنا ما تزال هي المدينة القديمة ونحن ما زلنا كما كنا بالرغم من أننا انتصرنا في كرة القدم على أقوى الفرق الأوروبية. مازلنا في قلب العالم الثالث. بلادنا لم تهرب من خريطة إفريقيا والفقر ما يزال يأكل عيوننا. الشوارع ما تزال محفورة منذ أكثر من ثلاثة أشهر. التمديدات المائية مكسورة. الروائح الكريهة زادت من العفونة العامة. الطرقات الضيقة ازدادت ضيقاً. الحشاشون. بياعون الويسكي المغشوش ما يزالون هم كذلك في أمكنتهم المعتادة. كذلك بياعو البيض المسلوق والكاوكاو وقطط الليل السمينة والسيارات السوداء التي تقتل العشاق ولا تتوقف عند شارات المرور الخضراء والحمراء والصفراء والبرتقالية. لا شيء تحرك مليمتراً واحداً.



في نهاية الشارع الذي كنت أقطعه، وقبل أن أصعد درج النزل المؤدي إلى غرفتي جذبتني يد قوية قذفتها باتجاهي سيارة لونها أسود. لم تتح لي حتى فرصة التنفس.

ـ السي محمد ما تعرفش باللي الكسوف بدأ ومعه حضر التجول. وإلا أنت قافز على الناس؟

ـ يا خويا أنا صحافي وكنت في عملي.

ـ هذا الكلام قله للكوميسير. اركب.

و ركبت. كانت الرائحة كريهة. أحدهم تقيأ ولم يتوقف عن الهذيان:

الله. الله يا يما يا حنا دوار العجب راني فيه.

نهار اللي كنت في الغابة، كانوا كالقطوطا يجريوا، خايفين من الموت. واليوم ولاّوا سادة المدينة. يخلصوها غالية.

ونهار اللي نزلت للمدينة، وجدتهم قدامي، ولاّوا يحكموا في.

وينك يا حمو خويا. وين الدنيا اللي كنت تحلم بها.

اشرب واعمها وخلِّها على ربك.

غنّ. غَن. غدا سيقال عنك، عندما تموت، أن كلبا داسته سيارة وتدفن بعد جنازة فاترة.

وضع الرجل يده في حلقه. تقيأ من جديد حتى خرجت عيناه الحمراوان وأمعاؤه ثم بدأ يبصق.

ـ تفو. تفو. الدنيا بنت الكلب.

مسح فمه ثم عاد من جديد يهذي ويقول كلاماً حيرني، من سكير.

ـ آه يا يما. هذه المدينة استشهدت ببطولة وهي الآن تستشهد للمرة الثانية. لا قلب لها ولا ذاكرة. فقِ. فقِ يا حمو. مياه المدن القذرة تغرقنا.



ـ أسكت الله يسكت حسك. كلب.

قال الشرطي الذي كان يجلس قرب السائق. واصل بلهجة تهكمية.

ـ دير روحك مجنون تشبع كسور.

كانت السيارة السوداء المخيفة تشق صدر المدينة الخالية حتى من أصداء النهار. القطط تهرب أفواجاً كأن شيئاً ما يذعرها. كل زاوية يخليها قط، تحتلها الجرذان التي تملأ غيران المدينة.

كلما شعرت بغبن ملأني وجه مريم. مريم كانت رائعة. قالت لي ذات مرة، أياماً قبل موتها، وهي في أقصى درجات حزنها: تعرف المحب مثل الرياضي، عليه أن ينسحب في قمة عطائه وإلا يبهدل روحه. يجب أن أقبل بهذا القدر وأن أتركك وأنا في قمة حبي لك. يجب أن أنسحب قبل أن تيبس شفتي. لا أدري إذا كانت مجدة أم أنها كانت تمزح ولكنها في نهاية المطاف فعلت ما اشتهته. وانسحبت ومعها انسحب آخر شعاع من نجمة الفجر التي كنا نراها كل صباح بمجرد استيقاظنا من النوم. تمنيت لو كانت معي الآن في هذا القفر الذي اسمه المدينة.

قال السكير الذي كان معي في السيارة السوداء نفسها. هو بدوره التقطوه من زاوية ما.

ـ إحذر يا ولد الناس. ما تغلطش. أنت الآن مجرد جرذ. إنهم يقومون بتنظيف المدينة من كل الصراصير والجرذان. كل الجرذان بدون استثناء. أنت مطلوب وأنا وكل الناس وحتى هؤلاء الشرطة.

ضرب بقوة، برأسه على شباك السيارة. حاول أن يرتاح ولكنه لم يستطع. في لحظة ما وأنا أتسلى باستعادة أيامي المتعبة بدوت لنفسي جرذاً صغيراً وأعطيت للسكير الحق كل الحق.

ماذا سأقول؟ هل أخذت بالمصادفة. لن يصدقني أحد. وأنا جد



متأكد من أن الميموني سينكر أنه رآني في مقر الجريدة. أوف ماذا سأقول؟ لماذا حالة العذاب التي تجهز الآن على ما تبقى من فرحي؟ أوف لنترك المسألة للمخفر فليسوا عاجزين عن إيجاد التهمة المناسبة. وإذا كانوا صادقين، وهذا قليلاً ما يحدث، حين يكتشفون بأنهم أخطأوا في حقي سيتركونني وشأني وأعود لأنام ثلاثة أيام متتالية. قد تأتي ساسافندا. سنتجول مع بعضنا وننسى متاعب اليوم كلها. وربما ذهبنا إلى المستشفى التجميلي. فأنا منذ زمان أحلم برؤيته لكن هذه المرة رؤيته أصبحت ضرورة من ضرورات جنوني.

كانت الفرقونات السوداء ما تزال تتدحرج فوق الطرقات المحفورة. تغطس في المياه تارة ثم تخرج ثانية متسخة بالوحل. كان البرد قد احتل كل مسامات جلدي وأما السكير الذي يبدو أنه هو بدوره أخذ عن طريق المصادفة كان ما يزال غارقاً في هذياناته:

ـ يا موح خويا. المدينة أعلنت حربها الضروس على الجرذان. يا نحن يا هم. خلاص. اللي يبدأ الحرب مش هو اللي يختمها.

تقول جدتي التي ملأ تراب الغبن والقبر فمها. إن الأرياح الصحراوية لا تبرد برغبة الناس وإن الأيام الكبيرة لا تخون ذويها. فقد وعدتنا في زمن ما بأنها ستكون في الموعد. أي موعد يا ولد الناس؟ أنت تخرف وهذيانك صار خطيراً عليك وعلى محيطك. البلاد سرقت وحولت إلى محلبة للأقوياء يمصون ضرعها حتى الجفاف. كم أتمنى في لحظات الانكسار أن أرى جدتي التي فشل الموت كثيراً في استرجاعها قبل أن تخاتله ذات مساء وتذهب من تلقاء نفسها نحوه. لو كنت قادراً لبعثتها ولن أقصر لحظة واحدة، فقط لترى وتعرف أن ابنها الصغير كما كانت تسميني، غارق في فردة حذائه اليمنى حتى الرأس، كلما أراد الهروب نحو الحلم، كسرته روائح الأرجل والعفن. لكن جدتي بعيدة والمدينة أو



الغولة كما كانت تسميها، استأصلت ذاكرتي وقصت أجنحتي ولهذا لا أستطيع الطيران حتى في الحلم.

الجسد مفكك. والعين ترى بشكل معوج. الأشكال التي تمشي وتجيء تعد بالحصى. كم أتمنى أن أغفو لحظة وأترك نفسي مثل النسمة المسائية داخل فراش العاشقين وأنسى نفسي نهائياً. أن أستريح قليلاً وبعدها فليسقط العالم إذا شاء على رأسي، لم يعد لدي ما أخاف عليه. أغمض العينين وبعدها أهيم في أرض الأعشاب الجميلة وثغاء الخرفان والطيور والنباتات الرائعة والناس الطيبين الذين يملأون طرقات البوادي في طريقهم إلى الأسواق الشعبية. ثم.. وأنا أحلق بالبراق، أعبر السماوات وبجانبي الملائكة يشرحون لي الأمكنة مثل سائح أمريكي في بلاد عربية». خرف خرف يا ولد عيشة لمنورة؟ فجأة ينسحب كل شيء وأراني متربعا في عين خرج الحلفاء تقابلني في العين الأخرى حجرة بوزني أو أكثر بقليل. الرأس محلوقة والمخاط ينحدر مالحاً ولذيذاً إلى الفم. يمنحني هز البغل وأنا في الخرج هدوءاً جميلاً وراحة بال سرعان ما تقودني إلى النوم وأسرح كما أشتهي. فجأة..

- قم. روخ ارقد عند يماك مش هنا.

أرتعب. أفتح عيني عن وسعهما. المخفر. أتذكر الحالة من أولها إلى آخرها. الصالة مملوءة بالشرطة. كلهم مشابهون. يمشون بدون ملامح، آذانهم كبيرة وأنوفهم منزوعة.

الصالة، مكان ضيق كيوم الحشر، تعطي الانطباع وكأننا نقف في طابور الأموات، كل واحد فينا ينتظر دوره وصرخة عزرائيل في وجوهنا المثقلة بالهم: إلى الجحيم يا أولاد القحبة. خربتوها في الدنيا وجيتوني تتمسكنوا. إلى جهنم. شيء واحد ظل يخيفني. يرعبني. ماذا لو فتحوا تفاصيل الملف الذي كنت أحمله؟ كارثة. أبسط تهمة: الجنون. في



لحظة ما نسيت كل التفاصيل وبدأت أتسلى بكتابات على الحائط الخلفي، شدتني إليها. كانت الخطوط جميلة. جميلة جدا.

القضاء هو العدالة.

بين الظالم والمظلوم عدالة القانون.

الجمهورية تحمي القانون والمواطن.

السكير الذي نام في السيارة السوداء، جرجروه من تلابيبه حتى هذا المخفر ذي الرائحة الكريهة مثلما يجر كيس من الزبالة. كانت عيناه تشبهان عيني ميت. لم يتساءلوا ولا مرة واحدة هل قلب هذا السيد ما يزال ينبض أم انطفأ. دفنت عيني في أحدهم، وتمنيت لو كانت نظرتي سيفاً. شعرت بالرغبة القصوى للتقيؤ.

إنها المرة الأولى التي أدخل فيها إلى مخفر للشرطة. فأنا مهما يكن، مواطن صالح بعض الشيء وأحب وطني ولو تركوني أشرح لهم وضعي، ربما كانوا قد غيَّروا موقفهم مني من الأول. أخذوني عن طريق المصادفة فقط. لكن ماذا سأقول لهم؟ هل أحكي لهم الحقيقة؟

كانت صورة رئيس الجمهورية تتأملني. وجهه كان فارغاً وعمره فجاً، بدا لي ذلك من شعره. تمنيت أن ينزل حتى أفرغ له ما بقلبي، لكن الإطار الذي يحيط بنصف جسمه كان قوياً وحديده صلباً. نظرت إليه، ثم بسرعة أنزلت نظري عنه فقد شعرت به يستجديني. غيرت المكان ورحت أجلس بجانب السكير. لم يكن قادراً على فتح عينيه.

ماذا بإمكانك أن تفعل يا الحسين. نملة تائهة بين الأنساق المخيفة. ومصيبتي أني، في لحظات حزني. أتذكر صديقتي التي سرقتها من عيني المدن الحجرية ولم تسرقها من قلبي. حذرتكم من ذلك، منذ البداية. عليكم أن تتحملوا كل تشوهاتي الداخلية. كنت حزيناً في ذلك اليوم البارد حين كتبت لها بطفولة على زجاج النافذة المندى **أحبك يا مريم**.



قلبي لك وحدك. كانت الأيام باردة تشبه أيام الثلج. على ظهري معطفي الخشن ومع ذلك كنت أحس بالبرد. واصلت التخطيط على الزجاج المندى بأصبعي: **سأشرب الآن حتى الموت. وآتيك ليلاً يقتلني الشوق والرغبة، مثل الماء الزلال. لوتقبلي هذا القلب الذي لا تعذبه متاعب المدن الحجرية. حبيبك المهبول**.

وقتئذ خرجت ولم أعد المساء نفسه. الشرطة التي صادفتني سكران سحبتني في أحد فورقوناتها السوداء بتهمة القدح وذم الناس وتشويه المدينة بالكتابات المغرضة. لفوا بي الشوارع ليلاً حتى استيقظت. كانوا طيبين إلى حد ما. كانت الجولة مجانية. في الأخير أطلقوا سراحي في أبعد نقطة أحسست فيها بأني في الربع الخالي. قالوا لي في المرة القادمة سنأخذك إلى المخفر. احذر. لست أدري كم بركة مائية ومستنقعاً غرقت فيه لكني في النهاية اهتديت إلى الطريق ولحظة السكر مع الصباح كانت قد انطفأت نهائياً وعدت إلى روتين المدينة بقلب منقبض.

كنت خائفاً من ركلة جديدة، لكن مع ذلك، رجوت الحارس أن أشرح له وضعي. قهرني بعينيه وبكلامه الروتيني الذي يحفظه عن ظهر قلب. قلت في خاطري، أحمد ربك يا الحسين أنهم لم يرموك على أطراف المدينة كما يفعلون عادة.

كان الشرطي الذي هرب الدم من وجهه قاسياً. بقدر ما حاولت الاقتراب منه أشعرني بسخافتي وهزالي.

هزني برجله مرة أخرى عندما غفوت.

ـ النوم ممنوع.

ـ لكني لست نائماً.

ـ الكلام كذلك ممنوع.

ـ لكني لا أتكلم.



ـ الاحتجاج ممنوع.

ـ يا سيدي أخطأوا في. صدقني أنهم أخطأوا.

ـ هذا الكلام احكه للكوميسير. الذين سبقوك إلى هذا المكان، يحكون نفس الكلام. ضروسي طاحوا في هنا. ما تلعبهاش معايا.

تحسست فمي. تذكرت المستشفى التجميلي. الدودة تأكلني من الداخل. ماذا يمكن أن يكون داخل المستشفى. كل من طلب إنجاز تحقيق حوله إما طرد أو أحيل إلى صفحات الإعلانات والوفيات وربما. . الأرشيف.

ـ اسمع أنت يا ولد. الكوميسير يطلبك.

وأشار بأصبعه باتجاهي حتى كان يعميني.

أخرجوا كل المحجوزين. هددوهم أنهم إذا عاودوا الشرب سيدفعون الثمن غالياً. وحملوا السكير الذي كان معي في الفورقونات نفسها وقذفوا به إلى الخارج مثل كيس قمامة يرمى من أعلى البناية إلى الشوارع الخالية.

خيل إلي أني سمعت نحيبه.

في اللحظة التي هممت فيها بفتح الباب، في حالة ارتخاء كاملة، جذبتني يد الحارس إلى الوراء.

ـ لحظة يا وجه الهمّ. التربية انتاع يماك يا حمار.

لم أعلق ولا بكلمة واحدة، لكن نجماً آخر تصدع في سماء المدينة المختبئة وراء حياء مزيف. شعرت بالمهدي يتعجن كالمطاط المحروق، ويتحول إلى كرة ملتهبة من الحقد. التفتُّ نحو الحائط ونحو الإطار المعلق. كان وجه الرئيس صاحب العينين الغبيتين والشعر الأبيض منقبضاً، ينظر إلي ببلادة وكأن وضعي لم يكن يعنيه مطلقاً. حاولت أن أنساه لكن هدوءه كان يستفزني.



- ادخل الله يدخل معك سفود. الكوميسير يستناك.

نبهني من غفوتي. تدحرجت نحو القاعة. عيناي محمرتان. متعب. القلب مفتت. شعرت بألم شديد يأكل ما تبقى من الأشياء المضيئة في داخلي.

في الخارج، الجو بارد والمدينة تمارس طقوسها الاعتيادية. لا أحد يعلم عدد الأنجم التي كانت تتساقط الواحدة تلو الأخرى في داخلي. لم أكن أعلم، قبل هذه اللحظة، أن المدينة يمكن أن تسلم أحبابها بهذه السهولة وهذه البساطة، ويمكن أن يتحول الإنسان إلى مجرد خرقة بيضاء تأكلها حفرة سحيقة وباتساع شبرين. كل هذا النور يردم فجأة يا مريم؟ أين مريم؟ ماتت. عندما عاد الناس إلى بيوتهم بعد أن مشوا وراء الجنازة بصمت هربت أنا إلى زاوية مظلمة في داخلي وحاولت عبثا أن أبكي. أنا أتذكر قسمات وجهها المتعب، عينيها الهادئتين تتحركان الآن في قلبي، شفتيها المرسومتين بإتقان. تتمتم: دعني أقلها لك الآن. إني أشعر بها. ليست مبتذلة. أحبك. أحبك. أحبك وليسقط العالم على رأسي إذا شاء. لم تخطئ جدتي التي كانت تتكلم بذاكرتها: الحب عبادة يا ولد عيشة لمنورة. الله يلعن المدينة التي سرقت ابتسامتها والسيارة السوداء التي لا تحمل رقماً والتي جرتها إلى برودة القبر.

- أهلاً وسهلاً بك يا السي الحسين.

فتحت عيني. لم أجد المقبرة التي كنت أتمترس في وسطها ولكني عثرت على نفسي ضائعاً وسط قاعة مملوءة بالكراسي.

شيئان يكبران بشكل دائم في ذاكرتي: همّ القلب الذي تعب ومريم التي أوقفت سفنها وسفني وتركتني وسط هذه المدينة التي حين تبتسم تكشر وتظهر ما خفي من أنيابها.



فكرت في أن استلقي على أحد الكراسي لكن خوفاً غامضاً داخلني. المسألة فوق مستواك يا الحسين. لا تكن جرذاً.

نظر إلي الكوميسير من جديد بعينين أطلت منهما ابتسامة هادئة.

ـ تعرف يا الحسين أنا أحب صراحتك. أنا أحب كل ما تكتبه.

ـ شكراً يا سيدي.

ـ لم أكن أتصورك بهذه البساطة وهذا العنفوان. اجلس.

جلست.

ـ زاويتك غابت من الجريدة. وضعوا مكانها شيئاً مبتذلاً.

كنت أريد أن أخرج بسرعة، ولا ألتفت ورائي حتى أصل إلى البيت ولن أتنفس حتى أواجه المهدي وأحكي له عن الصغيرة والكبيرة. متعباً ومريض القلب، كنت.

ـ يا سيدي أنا لم أكن سكران.

ـ أنا لم أتهمك بذلك. وإن حدث أن شربت، فقلل منه من أجل صحتك، هذا كل ما في الأمر.

شعرت برغبة كبيرة في الضحك. الضحك. الضحك حتى الجنون. تراقصت في رأسي قصاصة صحفية كنت قد قرأتها أثناء قيام المسؤولين بعملية تنظيف المدينة من المشروبات الكحولية: **سيتم تفريغ حوالي تسعة أطنان من الخمور بأصنافها المختلفة في صحراء البلاد. فقد اتخذ المسؤولون قرارا بإتلاف ٨٦٢٨ زجاجة ويسكي و٢٥٢٤ علبة بيرة. وآلاف الزجاجات من الأصناف الأخرى التي دخلت البلاد بطريقة غير مشروعة. وكانت السلطات قد أتلفت قبل شهرين ما يقارب الثلاثمائة ألف زجاجة وعلبة من مختلف الخمور التي تمت مصادرتها بواسطة الأجهزة الجمركية المتنبهة دوماً.**

ـ أنا أسألك فقط عن زاويتك.



فكرت قليلاً محاولاً أن أخبئ قصة استقالتي.

ـ سأعود لها قريباً يا سيدي. أنا في عطلة. مسألة أيام فقط.

انزلقت من شفتيه ابتسامة شممت فيها رائحة السخرية.

ـ هه. من **شيء من الأرشيف** إلى زاوية قميئة **تعال معي؟** سخرية القدر. إنهم يقتلون البلاد.

ـ والله. منذ بدء الإجازة أخلطوا الزاوية مع إعلانات الوفيات والسهرات بعد أن غيروا اسمها. واش تحب يا سيدي. هذه الدنيا. على كل حال بمجرد عودتي سأغير كل شيء أو أستقيل.

كنت أخشى أن يكون الرجل مكلفاً بالتحقيق معي بشكل مهذب يجعلني أفرغ ما يتآكل داخل قلبي. لم أقل شيئاً مهماً. العين التي تقف وراء ظهري وتحسب خطواتي بدأت تكبر. يا محمد! تكاثرت عروقها الحمراء التي تشبه عين كلب ضخم مصاب بداء الكَلب. كل يوم أشعر بها تتخذ أحجاماً واستطالات مخيفة. في الواقع أنا لم أرها، لكنني أتحسسها يومياً في الزوايا السوداء. في عيون الأطفال المشوهين. في أسرة عاهرات شارع المهدي بن محمد. على بلاط هذا المخفر. أتشممها في حذاء هذا الرئيس الذي يستفزني بوداعته وبلادة خزرته.

ـ والله يا الحسين أنت أفضلنا كلنا. على الأقل ما زلت تعيش مع الشهداء بعيداً عن رداءة هذه المدينة.

ـ والله يا سيدي نداوي همّ المدن بهم الشهداء.

ـ اكتب يا ابني ولا تلتفت إلى الوراء. الشهداء بيننا. مازلنا حتى اللحظة ندفن رفاتهم. البارح أُشعرنا بأن هناك مقبرة جماعية بها ما لا يقل عن ألف هيكل عظمي. شيء مفجع.

لست أدري ما الذي أشعرني بالمبالغة في كلامه. لكن خللاً ما كان يقف على رأس لسانه ويحد من ثقتي فيه.



- يقولون إن أجسادهم لم يتغير فيها أي شيء. حتى ألبستهم لم تتآكل. المتغير الوحيد، هو أن الساعة التي كان يحملها أحدهم، توقفت عند زمن ما. عيونهم. شفاههم. حركات أيديهم. كؤوس القهوة. وجوههم المضيئة. كل شيء بقي على ما كان عليه. هكذا يقول الذين رأوا هذه الأجساد التي ترفض أن تموت.

- الله يرحمهم.

من الصعب علي تصديق كل ما كان يقوله. لكن وداعته فرضت نفسها علي. شعرت أن الذاكرة الشعبية قادرة على تأويل كل شيء من بعدها الواقعي إلى بعدها الأسطوري الذي يتعسر معه أخذ كل شيء كما هو. الشهيد في تصور يما عيشة لمنورة مثلا لا يموت أبداً ولحمه لا يمسسه الدود ولا التراب.

- جميل يا الحسين أن يكتب المرء مثلما يحكي مع الناس.

لم أجبه، لكنه بالمقابل عرّاني بعيْنيه. تأملني من رجلي حتى آخر شعرة في رأسي. حولتني خزرته إلى جرذ صغير غارق في تفاصيل الحيرة والمتاهات. حاولت أن أعيده إلى موضوعي لأني شعرت بالحامض يقطع معدتي.

- والله يا سيدي.. يشرفني أن.. ولكن أنا هنا عن طريق الخطأ. أريد أن أشرح لكم سبب وجودي بهذا المكان.

- تعرف يا الحسين، أنا كذلك من قدماء المجاهدين. مرة نقبض ومرة نطلق. مرة نزعف ومرة نرضى. مرة أتلقى التهديدات من أشخاص مجهولين، مرة أخاف وأحياناً أقول هذه الدنيا وعلينا أن نتأقلم معها. تصور حتى الشرطي لم يعد في أمان في هذه المدينة بالرغم من السلاح الذي يحمله. الناس في الليل لا يتورعون عن القتل. في المرة الماضية عثرنا على جثة شرطي مرمياً في ساحة الحرية، رأسه وجدناه في نهاية



شارع الجنرال شارل. سلاحه يعلم الله أين ذهب. الظاهرة جديدة على المدينة. ولهذا يحدث أحياناً أن نعيش حالة استنفار نأخذ كل ما يعترض طريقنا ولا تهم التهمة.

ـ لكن يا سيدي...

ـ ويحدث أحياناً أن يخاف الشرطي ولا يتدخل حتى ولو رأى واحداً يأكل لحم الآخر أو يعري بنتاً في الشارع. يغمض عينيه ويمضي. الخوف يا الحسين شرعي. الله غالب. حتى المواطن صار سلبياً.

صمت منتظراً مني رد فعل ما. كانت عيناه مثبتتين على زاوية ما في وجهي. لم أقل شيئاً له صلة كبيرة بما كان يقوله.

ـ أنا متعب جداً يا سيدي. ولي مشاكلي الخاصة. كنت في البلدة لتغيير قتامة هواء هذه المدينة السام.

لم يقل شيئاً ولكن عينيه ظلتا مثبتتين فيّ. تقيسان طولي وعرضي ملمتراً ملمتراً. كل ما كان يعنيني هو أن أغادر هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة وبدون أن ألتفت إلى الوراء.

الغريب في هذا السيد هو أن وجهه ولسانه يوحيان ببراءته المطلقة. لكن أسنانه الصفراء التي اسودت أنصافها من الشمة تخلف انطباعاً مخيفاً وسيئاً. مهما يكن، فأنا حتى الآن لم أقل شيئاً مشيناً. وأقلب لساني سبع مرات قبل أن أتكلم. هكذا علمتني شوارع المدينة والسيارة السوداء التي التهمت فرحتي وفرحة مريم. الطيبة التي شعرت بها في البداية تنزل على وجهه كغيمة ماطرة، لم تمنعه من كتابة تقريره عن هذه الجلسة.

ـ أمور شكلية ولكنها ضرورية.

ـ لكن لم نقل شيئاً.

ـ ليس مهماً. ما قلناه كاف.

ثم انكفأ على كومة أوراق صفراء وخضراء وحمراء وسوداء. لم



يسألني عن اسمي. عن تاريخ ميلادي. عن مهنتي. ولا أين كنت. ماذا فعلت. اسم أبي. أمي. قصتي قبل أن أدخل المخفر. علاقاتي المختلفة. الحزب السري أو العلني الذي أنتسب إليه. عن قائمة من غرروا بي.

- مجرد شكليات تفرضها طبيعة العمل. أنت تعرف أن هناك مراقبين ويجب أن أكتب شيئاً. أي شيء. سنقول مثلاً.. هه.. سنقول إنهم وجدوك في الشارع العام. كنت تمشي مع امرأة متزوجة ليلاً. على الساعة.. على الساعة..هه. على الساعة الواحدة صباحاً. المرأة هربت أما أنت فلم تستطع الإفلات من قبضتهم القوية وعيون الأمن الساهرة على راحة المواطن.

- رفع رأسه نحوي بعين نصف مفتوحة.

- إذا سئلت عنها. قل إنها إحدى عاهرات المدينة. طيب.

- ؟؟؟. ؟؟؟. ؟؟؟. ؟؟؟

- على كل حال هذه تهمة تافهة، لا تكلف الواحد أكثر من ساعة حجز. أحسن من كتابة أشياء أكثر تعاسة. سياسية مثلاً.

من حيث لا أدري نظرت إلى الملف الذي كان ينام تحت إبطي. سكت. لم أقل شيئاً لأني ربما كنت أخشى أن تمتد يداه إلى الملف، وتكبر المسألة وتتحول التهمة الأخلاقية إلى تهمة سياسية معقدة بالفعل. أصر علي أن أخصص له إحدى صفحات الجريدة بمناسبة وطنية من المناسبات الكبيرة أكتب فيها عن إخلاصه وتفانيه من أجل هذا الوطن. فهو واحد من قدماء المجاهدين الذين لم يستفيدوا من أي شيء. وهو من جهته، سيزودني بكل ما أحتاج إليه من معلومات عن المعارك المنسية وعن الوجوه التي أكلتها الجبال والحروب الفائتة وعن العظام التي حرقتها الغابات وتدفأت برمادها.

وقعت ثم خرجت.



خرجت أجر جسدي بصعوبة. حاولت أن أقنع نفسي بأن ما سجل عني ليس مهماً أبداً. في لحظة ما وأنا أقطع البهو الطويل وأنظر إلى وجه الحارس المتعب، شعرت بعينين تنغرسان في ظهري كالسهم. أرجعت كل شيء إلى تخوفي من أن تذهب كل جهودي مع الريح. المسألة أصبحت جزءاً مني.

كان يجب أن أحذر من الأول أن لا أترك لهم هذه الفرصة. هم لا ينتظرون إلا مثل هذه المزالق لينقضوا عليك كالكواسر. بزاف؟ مش حياة هذه. أوف. الحذر.. الحذر.. ومن بعد؟ هل المسألة في جوهرها تستحق كل هذا الرعب؟ الحذر هو الذي قادني إلى كتابة أسماء مستعارة على ظهر الأشرطة التي سجلتها مع الناس الذين حاورتهم. لا أحد يدري ما يمكن أن يحصل. كتبت مثلاً وردة الجزائرية على أحد الأغلفة وعلى آخر كتبت سميرة بن سعيد وفريد الأطرش على ثالث وعلى رابع كتبت عبد الوهاب وعلى خامس الحاجة فاطمة الزورو وهكذا.

لو يعرف المهدي ماذا فعلت، ستبرق الرعود في رأسه ولكنه حتماً سيعذرني. الاحتياط واجب يا بابا المهدي بن محمد. واجب.

استقبلني الشارع بكسل كبير. الهواء كان بارداً. عند مدخل البناية العالية التي حول طابقها الأرضي إلى مخفر، كان السكير يغط في نوم عميق. سمعت في أزقة المدينة المنسية أصواتاً غير متناغمة وأشياء أخرى تشبه طقطقة الألعاب الطفولية، مصحوبة ببهجة غريبة لرجل مذبوح من الحنجرة بسيف صدئ:

خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع.

شاهدت في لحظة يصعب علي وربما على كل الناس الذين يشبهونني تحديدها، انكسارات المدينة من جراء أسوارها التي بدأت تتخرم وتنهار واحداً واحداً وليلها الخلوي الذي تحول إلى حيوان أسطوري مخيف ثم



انقلب فجأة إلى كسوف أرعب حتى أدق الحيوانات الصغيرة والحشرات. حتى وجه مريم المضيء تحول إلى رماد دقيق كانت الأرياح الليلية تلعب به وتعبث بجزيئاته.

وللصراحة أقول، كنت خائفاً من أن يفاجئني أحدهم بسكين في البطن أو في الصدر أو في الظهر، ليقال بعدها ضربة قدر. وقد يشارك قاتلي في جنازتي ويضع زهوراً جميلة على ضريحي. يذرف دمعتين وبعدها يغيب ليشرب نخب موتي. بدون شعور مني بدأت أتحسس أماكن الضربة التي أحدثت فجوة كبيرة في البطن.

اخترت أكثر الشوارع إنارة ومشيت بحذر حتى وصلت إلى البيت. يا لطيف أحياناً تشتغل معي هذه الحاسة الغائبة بشكل مزعج. يوم سقطت مريم، لحظة قبل أن تسحبها السيارة السوداء التي لا تحمل رقماً، رفرف غراب عملاق في دماغي. نشب مخالبه[*] ثم حاول أن يستلها من ذاكرتي. وقبل أن أفتح عيني كانت صرخة مريم قد استقرت في مخي بدل وجهها. الحاسة السادسة. تضحكون. حتماً ستقولون في أعماقكم بأن السيد بدأ يفقد ما تبقى من مادته الرمادية. أتصدقون إذا قلت لكم إنه يحدث معي في بعض الأحيان أن أخاف من هذه الحاسة لأنها تنتهك راحتي. مرة وأنا أبحث في الأرشيف، عثرت على خبر علمي أخافني أكثر مما أفادني لأنه أكد لي على وجودها. الخبر ينام بين تلافيف دماغي. وعلى فكرة. الأخبار المهمة التقطها بسرعة. لدي حاسة أخرى لست أدري كيف أسميها، تحتفظ بكل الأشياء المهمة: العنوان: **الحاسة السادسة موجودة في المخ. بتاريخ.../.../ ٨٣ «فريق من العلماء بجامعة مانشيستر البريطانية، توصل إلى اكتشاف جديد ومثير، يتمثل في العثور على حاسة مغناطيسية غريبة تكمن في المخ. التجارب بدأت منذ عامين عندما قام العلماء بتغطية عيون عدد من طلاب كلية الطب**



وأركبوهم سيارة قطعت خمسين كيلو متراً. ثم أزالوا الغطاء بعد وقوف السيارة في منطقة ريفية وطلبوا منهم تحديد مواقع منازلهم الصحيحة! وتمكن غالبية الطلاب من الإجابة الصحيحة. وبعد بحث طويل. جاءت الإجابة الحاسمة حيث عثر العلماء في مجموعة من الجيوب الواقعة خلف الأنف، في مقدمة الجمجمة الإنسانية على مادة مغناطيسية، بعد تشريح خمس جماجم لأناس ماتوا حديثاً وكانت عظام الجيوب الأنفية لأربعة منهم تحتوي على هذه المادة المغناطيسية القوية. ومازال العلماء يبحثون عن سر الحديد المغناطيسي، وهو من النوع الشديد القوة. ومما يؤكد أهمية هذا الاكتشاف، هو أن فريقاً من العلماء في كاليفورنيا بالولايات المتحدة اكتشف أيضاً وجود المادة نفسها في عظام الجيوب الأنفية للفئران. إن هذه المادة المغناطيسية هي الحاسة السادسة لدى الإنسان».

توجهت نحو المرآة. كنت أتمنى أن آخذ حماماً وأنام حتى الظهر ولكني أحسست بألم ما في وجهي. تلمست ذقني. كان زغب اللحية يعطي انطباعاً سلبياً لكل من يراني. الشرطي لم يكن مخطئاً. كنت كأني أحد الهاربين من السجون. الحالة لم تُنسني ما كتبه عني الكوميسير. لو تسمع به ساسافندا، ستصدق حتماً بأني ضبطت مع عاهرة. أوف. كذبة قبيحة أحسن من تورط مخيف. فتحت الحنفية لأغسل وجهي، لكن الماء كالعادة كان منقطعاً. استعملت الماء المجمع في القناني. البيت كان مرتباً بشكل جيد. تأكدت من أن ساسافندا قضت إحدى لياليها في هذا المكان ولعتني حتماً حتى تعب لسانها ثم عادت إلى العاصمة تغلي كالبركان، في قلبها غصة.

عندما خرجت من الحمام تهالكت مباشرة على الكرسي القديم وبدأت أستعيد اللحظات واحدة واحدة قبل أن تنكسر عيناي وأدخل في حالة نوم تشبه الكابوس.



عودة إلى الحكايات القديمة

غفوت بدون أن أنام لأني تذكرت كل ما حدث حولي. شيء ما ظل يؤرقني بنبضه المتواتر. دخلت نسمة باردة من النافذة المشرعة على وجه المدينة. فوجئت بالمهدي بجانبي. متعباً كان. رأسه بين يديه القويتين. في قلبه ينام بصعوبة، شقاء المدينة.

انتبهت من جديد من النافذة، إلى السكير الذي كان يدور حول النزل الذي أقيم فيه. خلقة مشوهة ومريعة. عين كبيرة مثل السيكلوب وسط الرأس ولسان معقوف، وآذان طويلة. أضواء المدينة لم تكن منتظمة. جهات مضاءة بقوة، وجهات يصلها الضوء الخافت متأخراً وكثيراً ما ينطفئ في منتصف الليل. كنت أستمع بقلب منقبض إلى انهيارات أسوارها وأحيائها الشعبية وشوارعها التي تستقبلني يومياً.

كانت الأمطار قد عادت إلى السقوط. لأمطار المدينة وقع خاص في قلبي. المدينة في ذلك الصباح كانت ناعمة مثل مريم. أسترجع تفاصيل وجهها الطفولي. الأمطار تدغدغها من الداخل. ينزل من أعالي البنايات الشاهقة التي تذكرنا بقصر قاماتنا، ضباب خفيف. يغطينا ويلفنا حتى نكاد نضيع بعضنا البعض. إنها مريم التي تأتي. تأكل القلب. تعذبني. تعذب نفسها. تضحك. تبكي. تسافر على وجهها الفصول الأربعة في لحظة واحدة، قبل أن تتركني أشلاء ممزقة في هذا المكان. ربما الضباب خبأها وستظهر. أصيح: مريم! مريم! مريم! حبيبتي تعالي. أين أنت؟



يكفي من هذا اللعب، إنه يخيفني. مريم. أخرجي، لقد تعبت. لم أعد قادراً على التحمل. إني أسمع أصوات الأطفال وهم يركضون على أعواد القصب. يركضون كالغزلان في الساحات العمومية على أعواد القصب، أجسامهم مبللة بمياه الأمطار، فرحين بقوس قزح الذين ارتسم بشكل نصف دائري على السماء.

عود ابا لخضر. عود ابا لخضر. عود ابا لخضر.

لكن صوت العجلات يا مريم وتلك السيارة السوداء التي لا تحمل رقما ثم الارتطامة، ترعبني. مريم أين أنت؟ تعبت. لا بد أن تكوني في زاوية ما وسط هذا العالم الضبابي المدهش. ها أنذا أركض. أتحول إلى طفل. أراك تركضين ورائي. تتسخ ثيابنا من وحل الأمطار ومن البرك التي تملأ المدينة. تهتز البنايات والأرصفة ووجوه الناس. تلتصقين بي. تجرين وأجري أنا بدوري لكن الآن يكفي لقد خارت قواي. أخرجي من هذا الضباب.

أنا الآن في هذه الشرفة المتعبة التي أخشى أن تسقط ذات يوم على رأس أحد المارة وأقاد أنا إلى السجن لأنه كان علي أن لا أجلس على بلكون هش. وسيقول صاحب النزل بأنه حذرني ولكني ركبت رأسي.

انهيار أسوار المدينة. يصل آذاني متأخراً وخافتاً.

ـ أهلاً يا السي الحسين.

ـ أهلا يا بابا المهدي. العالم صعب. والنوم المريح صار مستحيلاً.

ـ كنت أتصور نفسي أكثر تعباً منك، لكن يبدو أن إنهاكك يثير الشفقة.

ـ أشعر بالغبن والفراغ والموت البطيء. يبدو أني منذ الولادة متشائم بهذا الشكل.

ـ ومع ذلك فالحياة حظ كبير وليست بكل هذه الرداءة.



ـ وليست بالجمال الذي نتخيله أحياناً.

ـ على كل حال. فأنا أنتظر عودتك منذ مدة. على الله أن يكون من وراء هذه الغيبة شيء مهم. لا أشك في ذلك لحظة واحدة.

ـ ساسافندا؟

ـ جاءت ثم عادت. ربما رجعت في نهاية الأسبوع.

اقترب مني أكثر ثم أشار بأصبعه إلى أسفل البناية.

ـ أنظر.

نظرت بتمعن. كنت أعرف ماذا كان يقصد.

ـ أمور غريبة تأكل هذه المدينة وتحرق جمالها. أنا متعجب جداً من حركة هذا السكير عند هذا النزل بالذات. منذ أن غادرت المدينة وهو ينظر إلى زجاج نافذتك. لم أر وجهه. لكني أشعر بالجدري الذي يحفر خديه وخلقته المشوهة.

كان مخي منغلقاً. عاجزاً عن ربط هذه التفاصيل ببعضها. متعب حتى القلب. جسمي مفتت. العين لا ترى بشكل دقيق. الوجه غابت ملامحه الحقيقية. متعب. كنت أفضل أن أرتاح ولكن، ليس للأمر أهمية كبرى. لديّ الموت كله لأنام. يحدث معي أن أنتظر شيئاً مجهولاً يأتيني من زوايا المدينة. مجهولاً وجميلاً. أؤكد على جماله لأن هكذا كان شعوري الداخلي. لكن الآن. أرهقت من الانتظار. لم أعد قادراً على الكذب. من وراء ثقوب أسوار المدينة حيوان أسطوري غريب يطل بعين واحدة، وينتظر متى تغفو جفون الناس ليفاجئهم كالزلزال الصاعق في فراشهم. ذلك الشيء المدهش الذي كنا ننتظره، أصبح يشبه الموت. إنه قاس، قاس لدرجة أن ابن آدم لا يعرف كيف يربط بين تفاصيل المدينة. آه يا المهدي. قلتها وقالوها. نحن مثل ثيران الكوريدا. نعرف نهايتنا وسط هذا الدمار، ونعرف أن اللعبة ستختتم برشقة سيف حاد على الرقبة



وبحربتين ملونتين على الظهر. ومع ذلك نقاوم، نقاوم وننتظر ذلك الشيء الجميل الذي يصعب إدراك كل تفاصيله. وأنت تعرف يا المهدي، نحن إما أن نموت، أو نحترق. لا نؤمن كثيراً بالحلول الوسطى.

حين حكيت للمهدي عن المقلب الذي وقع لي مع الشرطة، تعجب كثيراً. فكر طويلاً حتى كدت أجزم بأن لسانه قطع أو غام في حلقومه.

ـ يا أخي. والله غرابة. كان بإمكانه تركك بدون أن يضطر أن يسجل عليك تهمة أخلاقية قد تكون وراءها... أوف ربما أحمل المسألة أكثر مما تحتمل. على كل حال لو كنت مكانك لرفضت أن أوقع.

ـ خيرت بطريقة غير مباشرة بين الأخلاق والسياسة.

ـ هكذا حسسوك. لو كانت رغبتهم غير ذلك، لفعلوها بدون أن يستشيروك. يبدو أني بدأت أفهم سفالة هذه المدينة قليلاً.

ـ ولكن يا بابا المهدي قد يكون تصورك مخطئاً.

لم يقل شيئاً، لكن عينيه ظلتا شاخصتين على حركة السكير الذي تكوّم عند أسفل البناية مثل كومة ألبسة رديئة وضعت في زاوية مهملة.

في لحظة ما لم أر اختلافاً كبيراً بين رحلتي المضحكة وبين رحلة دون كيشوت. الغرائب التي فرضها عليه سرفانتيس كانت أقل من غرائب رئيس البلدية الذي استقل بالمنطقة وكأنه أحد ملوك العجم المتمردين.

هه يا المهدي. عيناك ما تزال فيهما الطفولة رغم شراستهما ولونهما الحار الذي لا يستقر على حالة معينة. كالبحر تماماً.

ـ نبدأ.

ـ توكل على الله.

شرعت الملف أمام عينيه كباب ينفتح على جهات العالم الأربع. حاولت ترتيب المعلومات التي سحبتها ورائي ككنز ثمين من القوى التي



أتعبتها الأساطير والخرافات والحقارات التي تمارس على ما تبقى من جمالها.

- بابا المهدي، عليك أن تصدقني. المسألة كانت في غاية التعقيد والصعوبة. وكان يمكن أن أخلف فيها هذا الرأس الذي تحول إلى بطيخة.

لنبدأ بالرقم واحد.

- يا أخي، هل فقد الناس أسماءهم؟

- أنت لا تعلم كم تغير الناس بعدك.

- إلى هذه الدرجة؟

- كل شيء تغير رأساً على عقب. لقد تحولتم إلى أرقام. مجرد أرقام في سجلات البلدية. عظمة الدم والاستشهاد والأشلاء التي يصعب لمها وجمعها ووضعها في قبر، كلها تحولت إلى مجرد أرقام مسلسلة وأحياناً مرقمة بشكل فوضوي.

الفرضية التي قدمتها على الرقم (١) مخطئة. فهو لم يستشهد. لقد كان فلاحاً طيباً كما كنت تقول. مازال على قيد الحياة. يشتغل رئيس تعاونية إنتاجية فلاحية المفترض أن تكون تعاونية استصلاحية لأن أراضيها كلها أحراش. المتعاونون مهددون بحل التعاونية لأنهم لم يستطيعوا تحقيق الأرباح المطلوبة. أريد أن أذكر هنا تفصيلاً صغيراً ربما كان مفيداً. فرقم (١) فصل من التعاونية التابعة للثورة الزراعية لأسباب يقول إنه لا يعرفها، ولكنه كالحيوان يتشممها. ظروفه تعيسة. يقول كلمة يومياً تذكرني بتراتيل حمو.

«يا الحسين يا ولدي. الدمعة شاخت في العين. بدأنا نتحول إلى مؤسسات خاصة وفيلات. وبارات راقية. وكباريهات. وفيديوهات. الله يرحمك يا المهدي ويرحم جميع الشهداء».



أولاده كثيرون. قال لي إنه لم يكن يتصور أن للمهدي رجلاً بروعتك. لست أدري ما الذي حدث معي، لكني أحسست تجاهه بألفة خاصة. أطفاله لا يدرسون. المدرسة بعيدة جداً. الابنان الكبيران سافرا إلى فرنسا. والطفلة تشتغل في مغازل النسيج. وأكبر هؤلاء، البكري. يشتغل في مدينة كبيرة وهو غير راض عن عمله. لم يفصح لي عن الأسباب ولا حتى عن طبيعة العمل. يقول إننا سنظل نعيش على ذكرى الشهداء حتى نحمل زادنا ذات صباح ونلتحق بهم. **أنتم السابقون أيها الرجل الطيب ونحن اللاحقون المتأخرون.** الأرض جفت وأصبحنا ننجب العقم من صلب العقم. كان موعوداً بدار في القرية التي بنتها الحكومة. لكن بعد طرده من التعاونية جرد من كل شيء. وغداً سيشطب نهائياً ولن يصبح مواطناً.

خسرنا الثورة وخسرتنا.

شوقه لك بحر وسماء ولا يصدق أنه افتقدك. يقسم يميناً أنك ستنزل قبل أن ينزل المهدي الذي يحكي عنه ناس البلدة. رقم (٢) و(٣)، متجاوران. بينهما واد جاف فقط وبعض الأبقار. هناك استطعت رؤيتهما. بالنسبة لرقم (٢). السي عبد القادر. كان ابن تاجر. احترف المهنة بحنكة. هذه العقلية لم تمنعه من نزعته الوطنية. لكن المسألة ذاتية التي فجرت فيه هذه الحالة تعرفها أحسن مني يا بابا المهدي. اغتصبوا زوجته أمام عينيه في ليلة عرسه. رفض الزواج بها والتحق بالغابة. في شكله الخارجي، يعطيك الانطباع بالتواضع والمسكنة. استولى على ممتلكات أبيه التي كانت في حوزته. حرمه اخوته من التركة. ومع ذلك فهو يصر أنه بنى نفسه بنفسه. ويؤكد: **يا أخي لماذا نكذب على أنفسنا. شعبنا يكره الاشتراكية. لقد دمرتنا. لنجرب القطاع الخاص. الحل الوحيد لمشاكلنا المستعصية. لا ينشطون ولا يتركوننا ننشط. ما تأكل ما**



نأكل. الله يلعنهم. يذهب إلى العاصمة كثيراً وله علاقات بعدد حصى الطرقات. حين سألته عنك قال كنت صديقه لكنكما. . اهتزت عيناه وشفتاه بصمت وبشكل غير طبيعي. ثم ضحك مازحاً بثقل:

ـ المهدي! بينه وبين الله عداوة تقليدية. من الذين أدخلوا الوباء الأحمر إلى هذه الأرض الطيبة. لا تنزعج يا الحسين. المهدي كان حبيبي.

الكلمات الأخيرة كانت مقحمة. هو لا يعرف قبرك، لكنه يتوقع أن تكون الغابة قد أكلت عظامك. يقول إن على هذه البلاد أن تتحرر من خرافة الاشتراكية حتى تستيقظ بقوة وتقفز إلى الأمام.

ـ بلادنا واسعة وأرضنا تخصب إذا مستها الأيادي الصحيحة.

أهل البلدة المعزولة يؤكدون أن أمه سخطت عليه لأنه أهملها. لكنه يقول إنه في القرية بالمصادفة تماماً. فهو يأتي أحياناً لرؤية الأم والحصول على دعاوى الخير منها. الجنة تحت أقدام الأمهات يا ولد المهدي بن محمد.

ارتعشت ابتسامة صفراء على وجه المهدي. هز رأسه بهدوء. شعرت بالألم ينزلق من عينيه كدود القبر، وبأشياء ثقيلة كالهم تتكسر في حلقه كقطع الزجاج. تنهد بعمق.

ـ هذه هي الحياة يا الحسين. كل واحد رجع إلى مكانه الأصلي.

ـ عفواً يا بابا المهدي. أكد لي التهمة التي ركبوها ضدك. علاقتك بالسيدة التي لم تعد تتذكر إلا صرختها.

ـ يا أخي لماذا حين يفشلون في إدانة الواحدة يلتجئون إلى التفاهات والمختصرات الأخلاقية. السيدة كان لها زوج وكانت نبيلة ومجاهدة كبيرة خسرتها البلاد. ومع ذلك، على المرء أن يتعلم كيف يتلقى الضربة ولا يرد عليها بانفعال. الدنيا تغيرت. تصور يا الحسين، لو تنهض هذه



السيدة، ستبصق على وجهه في لحظات البؤس. أتذكر جيداً أنه كان يأكلها بعينيه ولم أتدخل بينه وبينها تفادياً لهذه التهمة التي وشموها على ظهورنا. للسيدة زوج كبير القلب كان يحس بكل شيء ولكنه ظل صامتاً بسبب المصلحة الكبرى. الدنيا بنت الكلب ظالمة. عقلية التاجر تأصلت فيه. التاجر الرعوي الذي لا يرى أكثر من مصلحته الصغيرة.

ـ أواصل. أم تعبت. الخير الكبير ما زال القدام.

ـ لا واصل. ربما كان في الجعبة ما يسكر وما يفقد صواب الواحد.

ـ هه.. يا سيدي رقم (٣). الملف متعدد الأوراق. ويصعب أحياناً ترتيبها بشكل دقيق. بعض الملاحظات والتعليقات كنت سأحتفظ بها لنفسي. ربما لأني ارتأيت أنها لا تهمك كثيراً. رقم (٣) كان يملك بعض الأبقار الضعيفة البنية. تعيش على الهواء والحجر. يقيم في عزلته وحيداً. لا يتكلم جيداً. نصف لسانه قطع في السجن. لم أستفد منه كثيراً. لكني علمت من بعض الناس أن الدنيا تحولت بالنسبة إليه إلى كومة من الرماد منذ أن حرق أولاده وزوجته وهو في السجن. في البلدية التي تبعد عن بيته مسيرة يوم بكامله يقولون إنهم اقترحوا عليه منصب بواب لكنه رفض. يجزم بعض الموظفين أنه مجنون مع أني لم ألاحظ ذلك. كل ما أستطيع قوله، هو أنه أخذني من يدي، وأنزلني إلى الوادي الجاف الذي يفصله عن عبد القادر. حاول أن يتكلم لكنه عجز. فبصق على الأرض وانفجر باكيا. شعرت بالزغب الأبيض الذي على وجهه يحترق. ثم رفع أصبعه إلى السماء وغادر الوادي الجاف ولم يقل شيئاً.

ـ أنت معي يا المهدي.

ـ معك. أفكر. أحك وخليها على ربك.

عمي البوحفصي لم أرقمه. لست أدري لماذا. ربما لأننا عشنا الفقر معا وأعرف تفاصيله ربما مثلما تعرفها. توفي المسكين الصيف الماضي.



حرقه البؤس والألم. خرج معدماً من الحفرة التي جمعته وإياك. والله يا المهدي. كان يحبك حتى الموت. يقول عنك. سيد الرجال أنت. بالرغم من الأيام التي عصفت بكما. وظل فخوراً بشجاعتك وهروبك القوي من السجن الذي حار فيه ألد أعدائك. في النهار يأكله عمل الأرض وفي المساء ينزل إلى الساقية. يرتاح مع مشايخ البلدة. يلعب الكارطا. عندما يكون منتصراً في لعبه، لا يقسم إلا برأسك: **ورأس المهدي أعطني خمسة. خلّيها تنفجر. ورأس المهدي ما تاكله. الخمسة والخمسة عشرة. أرشم حبل. الليلة ليلتك يا المهدي.**

تنهد المهدي بعمق كمن يودع الحياة للمرة الأخيرة إثر طعنة قاسية. أغمض عينيه ثم تمتم.

- الله يرحمك يا البوحفصي خويا. أنت العزيز. سبقناك وها أنت تلحق بنا.

ثم صمت ولم يقل شيئاً وركز عينيه على شفتي.

- هه. رقم (٤). ورقم (٥). لم أستطع رؤيتهما. اعتمدت كثيراً على كلام الناس والأقارب الذين جمعهم بهم الخبز المحروق والزيت والملح. رقم (٤) السي قويدر. لم يكن مثقفاً كبيراً. ولكنه كان شعلة من الوعي. عمل في مصانع فرنسا حتى أصبح عاملاً غير عادي. اشتغل بالسكك الحديد ثم بالموانئ ثم البناء وبعدها التحق بمرسيليا. من هناك امتطى أول باخرة عائدة إلى الوطن الذي كان يلتهب والأحباب يتساقطون الواحد تلو الآخر ومعهم كانت تتساقط أنجمهم التي لا ينتهي دفؤها. كان الوطن يجري في دم قويدر. حاولوا أن يدفعوه إلى اليأس لكنهم لم يستطيعوا. ظل نقابياً كبيراً في أحد مصانع القطاع الخاص. اقترحوا أن يحولوه إلى بواب كغيره من البوابين، يقتل الوقت بالانتظار. يأكل الساعات وتأكل هي ما تبقى من ذاكرته. لكنهم هذه المرة كذلك لم



يفلحوا. الخسارة التي لحقت بالمصنع من جراء الإضراب جعلت رب المصنع يعيد كل الحسابات. الآن في البلدة لا أحد يعلم خبره. لكنهم كلهم يؤكدون أنه أدخل السجن بتهمة غامضة واقتيد إلى مدينة بعيدة بعد الشمس. وأن العمال الذين ساندوه عزلوا أو استبدلوا بآخرين.

رقم (٥) يوه من الرقم (٥). يعيش الآن خارج الأرض. وخارج الزمن. السي الجيلالي. كان مكلفاً بذبحك ودفنك. هو الذي أغمض عينيك بالتراب. يخاف الناس وجهه البارد وعقده التي حين تنتابه تحمر عيناه. سليل أسرة اقطاعية. تناوش مع أبيه فحرمه من التركة. وحين فتح عينيه في إحدى الغابات الكثة، حز أعناق كل الذين اختلفوا معه. ويوم غادر الكازمات والغابة ونزل إلى صوامع المدينة كان قد تحول فجأة إلى زعيم. حاول أن يعيش طقوسه الخاصة لكن زمن الزعامة كان قد ولّى. تذكر العصور المنقرضة، فذرف دمعتين. ثم سافر إلى ألمانيا الغربية ولم يعد. يحب رجال الله الصالحين. ويكره الكواكبي. يترقب الآن عودة الزمن المنقرض. يحكي الذين عرفوه عن قرب أنه ينتظر بفارغ الصبر متى يأتي الكسوف وينقلب الزمن على مؤخرته ليعيد ذبحك مرة أخرى وهذه المرة من لسانك. وعنقك. منظر الدم يخلف عنده متعة جنسية حادة لا أحد يعرف أصلها الأول.

أغمض المهدي عينيه. خرج إلى الحمام. بصق. سمعت صوته ثم عاد ليجلس بهدوء. تحسس لحيته التي بدأ زغبها ينفذ من الجلد، جيوب بدلته العسكرية الكبيرة، قلبه، عينيه المتعبتين.

ـ الله يلعنه. سيقيم عرساً لأسياده من مصاصي الدماء ليعيد البلاد إلى الخلف بمئات القرون. لقد تحولوا يا الحسين بسرعة لأنهم في الجوهر هكذا. لعنة الشهداء تتبعهم. القيامة ستنبت في داخلهم وتحولهم إلى رماد. إنهم يأتون بالشهيد من القبر ويزنون أمامه. وحين تتحرك عظامه



ألماً، يصبون رصاصهم على قهره. واصل يا الحسين. يبدو أن الدنيا أعمق ما كنا نتصور. والجرح يزداد فظاعة.

في لحظة ما، شعرت بمواكب الجنازات تنحدر من عينيه المرهقتين. وبوجوه نساء البلدة المتعبات تأخذ استطالات وتشكلات غريبة. حالة ميطامورفوز. ينسجن الريح بشعرهن وألبستهن المثقلة برائحة الدم والعرق والموت.

- قوادون يا بابا المهدي. صدقني أنهم قوادون. سيتفرغون الآن لبيع فروج نساء الشهداء للغادي والرائح.

قبض على شعره الذي أبيض فجأة ككتلة من الصوف. وحاول أن ينتفه دفعة واحدة. لم يقل ولا كلمة. أشار لي برأسه أن واصل.

وحين حكيت له عن رئيس البلدية الذي ينام أنفه بين تفاصيل الأوراق والتواقيع، شعرت بالمهدي يمتعض لقولي. يقف شعر رأسه الأبيض وترتجف في قلبه الأنجم وأضواء المدينة الباهتة.

- يفعلون المصائب مع أن القوانين التي تحدد طبيعة عملهم واضحة جداً. أو على الأقل هكذا أتصور. رئيس بلدية ليس ملكاً.

- القانون لا قيمة له حين تحدد الفوضى مصائر الناس. حتى الأشياء القيمة فقدت رونقها. القانون لا قيمة له بدون رجال يسهرون على حمايته. بالعكس، في الحالة المرضية سيتحول القانون إلى جهاز عصبي مشل لكل المبادرات.

لست أدري ما الذي ذكرني بولد خالتي خضراء الذي تحول بين يوم وليلة من فلاح إلى أحد رجالات المدينة. غلف أسنانه بالذهب. انتعل حذاء خشنا وألبسة مخيفة لا لون لها. أشياء كثيرة طرأت على وجهه هو ابن البلدة الطيب. عيناه اتسختا أكثر من اللازم. ذاكرته نزعت وأنفه ضمر ولسانه غاب داخل الحلقوم. هو يتذكر جيداً أنه غزا المدينة، في



جيبه الريح والفقر، يركب حصاناً هزيلاً. اليوم صار لا ينزل من سيارة إلا ليركب ثانية. لا يزور البلدة إلا ليتزود بالكيف والويسكي ثم يعود إلى المدن الكبيرة على متن السيارات التي لا تفتش. أرقامها المخيفة أكبر من مرمى عيون جمارك الحدود.

شعرت بالكلمات والأشجار تنتحر في داخل المهدي. كان يريد أن يعلق. أحس أن شيئاً ما يمشي على غير طقوسه المعهودة. أحنى رأسه. تدلت عيناه على الأرضية. يبحث عن شيء غام وسط هذه الحجرة المملوءة بالانفعالات.

ثم فجأة رفع أصبعه وقام من مكانه.

ـ أسكت. توقف. أنت تحكي كلاماً خطيراً.

رأيت في عينيه وجه السكير الغامض المملوء بحفر الجدري، يمشي ويجيء بشكل رتيب ويفتعل حالة سكر غبية لا تقنع طفلاً صغيراً. اختلطت أشياء صفراء، وخضراء، وبرتقالية يصعب تحديدها بين شفتيه ثم استقرت على وجهه. تصور يا الحسين. قال. ولد خالتك خضراء مخيف. بينه وبين السكير شبه الزلازل والدمار. ألا يمكن أن يكون معه كاتم صوت يكتم به أنفاس المدينة الكبيرة. تحدث بهدوء. بهدوء. فالأطفال يلعنون آباءهم. والآباء غير راضين على أطفالهم. الشوارع في حالة انفعال يصعب قياسها. اختلطت الأوجه وبدأ الغموض يعم الأرجاء. هي علامات الكسوف يا الحسين. علامات الكسوف ستبدأ بعد قليل في التهام أحبائها واحداً واحداً. ستخرج حية البحار السبعة التي تختبئ وراء صخور الشاطئ الصامت وستلتهم كل شيء. رتب كلامك يا الحسين واحك بهدوء. أنا أستمع إلى قلبك وأفهمك قبل أن تهمس. للحيطان آذان وعيون.

ـ نعم. قلبي معك.



ـ المثقف حميدو.

عفواً. ملاحظة صغيرة. لقد سجلت بجانبه رقماً خاصاً لأنه يختلف عن كل السابقين. أخوه استشهد بين يديه. لعن الثورة وكل ما فيها. فهرب عن طريق إحدى العواصم العربية ثم التحق بباريس. كان يحلم كثيراً بأن يصبح قاضياً كبيراً في هذه البلاد ويعيد محاكمة كل الذين كانوا السبب في موت أخيه. يقول: سأحاكم الذين أجبروني على ترك كرسي الدراسة. يعشق حد الشغف أساتذته الفرنسيين. يؤكد كلما تذكرها: شعب الله المختار.

العظمة تجري في عيونهم وفي دمهم. إنهم من أرقى السلالات البشرية. أرقى من الجنس الآري ويجد لذة في مقارنة جمالهم بجمال عيون الكنعانيين. الذين عرفوه تحدثوا عنه بنفس الطريقة. أصبح رب المدن الكبرى. كل محاكم الدولة العليا تأتمر باسمه. يروى عنه، أنه حين تمتلئ عيناه بدم المتوسط وأنين المحيط، يركب في أول طائرة تقلع نحو باريس، يقضي نهاية الأسبوع مع معشوقته ويعود صباح الأحد.

يجزم بعضهم أنه قاض، ويتاجر في العملة الصعبة والذهب والمعادن الثمينة الأخرى. كل الذين عاشروه، يحكون أن له بيوتاً كبيرة على شواطئ المتوسط. كل صيف يزور البلدة. ليوم أو يومين وبعدها يطير صوب المدن البعيدة. يلعن الأصدقاء القدامى. يصرخ كلما ورد الحديث عن أحدهم: يا لطيف جهلاء. لا يفرقون بين طز والحمد لله. يبصق على اليوم الذي قذفه إلى هذه البلدة والزمن الذي جعل من هذه التربة تأكل من دموع طفولته. ما عرفوا والو من الدنيا. ماتوا عيونهم مغمضة ويريدوننا أن نظل مثلهم. لا. الدنيا دنيا. والفلك ساير داير. خذ تأخذ. أعط تدّ.

C'est ça la logique de la vie. Laissez nous vivre en paix, merde

وبعدها يهمد كالجرار القديم ويحمد الله أن أطال في عمره.



ـ صدقني يا المهدي، حميدو يحل ويربط. في المدن الكبرى. تأكدت من ذلك من عند الكثيرين.

ـ لم أعد أفهم شيئاً. كان ينظر للثورة الدائمة في أوقات فراغه.

ـ يقول أهله. إنه قدم خدمات جليلة للبلدة. برأ العديد من الذين تورطوا في عمليات بيع الكيف والذهب والأشياء التي يمنع القانون تداولها.

ـ أنت ترعبني وكأن الدم الذي سال ذهب في الفراغ. للكسوف كل الحق بأن يمحو هذه الخربة التي نسميها مدينة. هل يعقل أن نرمي ثقل الذاكرة بهذه السهولة؟ من حقه أن يعيش كما يشتهي. من حقه أن ينسى الذين عاشرهم. لكن أن يشرب دمهم، ليس من حقه.

ـ ليس الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة.

ـ إنهم يحاربون الجياد. انتهى الزمن الذي كان يجمعنا على مائدة واحدة. كل واحد شق طريقه. بعضنا استشهد ويعاد الآن النظر في وفاته. آخرون يتألمون في الظل كالكائنات الحشرية. بعضهم اختصر الطريق والزمن فتحول إلى تاجر أو مسؤول بيروقراطي. العالم الذي كنت أعرفه صار عالمين.

ـ الماكنة يا المهدي. تلتهم الأخضر واليابس.

لم أقل شيئاً مهماً يستحق الذكر.

ـ تصور يا الحسين. يحدث معي أن أتساءل أني لو لم استشهد ماذا كان سيحدث؟ كنت ربما فقدت وجهي مثل غيري وضيعت المدينة كل ملامحي. وأنا أسمعك، أبذل مجهوداً لكي لا أندم على استشهادي. أشعر بالمجانية، لأن الشيء الذي قبلت أن أدفن حياً من أجله غيبته التفاصيل السيئة. افتقدناه، وبدأنا نمشي عكسه. ليس هذا طريق الشهداء يا الحسين. وفي أحياناً أخرى، أحمد الله لأني قبلت الموت على أن



أتآكل مثل النباتات اليابسة. مع ذلك كله سنظل نرفض أن يمر مقص المستشفى التجميلي على أنوفنا وألسنتنا وأمخاخنا وعيوننا. ربما هناك خلل ما ارتكبناه سبب وجود هذا المستشفى وهذه الحالة الرديئة. مسؤوليتنا كبرى في توسيع ثقب الخطأ. علينا أن نعيد النظر بدقة في كل ما يحيط بنا يا الحسين.

ـ أشعر باستحالة التصحيح. إذا راح هذا الدم مع الهواء لن نجد مبرراً لذكركم يا المهدي، بعد سنوات قليلة.

في تلك اللحظة. انطفأ ضوء المدينة. غاب وجه السكير المحفر بالجدري. لم أتفاجأ. لم أقل شيئاً. هذه العادة ألفتها في المدينة منذ أن عرفتها بشكل جيد. لكن علامة استفهام استقرت على رأس المهدي الذي كان ما يزال في حالة ارتجاج.

ـ الضوء راح يا الحسين.

ـ يا سيدي. سيعود. بمجرد مرور سيارة المسؤول الذي يخافون عليه من مفاجآت الأزقة. سيعود.

وقبل أن أنهي جملتي كانت أطراف المدينة، ثم المدينة كلها قد أنيرت من جديد. وعاد السكير يصوب عينيه نحو قمة البناية.

ـ السكير واحد من الآلاف الذين طحنت ضمائرهم المدينة.

ـ والله يا الحسين وليدي أنا عاجز عن التفكير. عاجز جداً. مرهق حتى القلب. أتعلم من جديد. الحياة يومياً تعلمنا. أريد أن أرتاح. أرتاح ولو قليلاً من هذا الدمار. أنت أقدر الناس على فهم حالتي يا الحسين.

ـ أنا كذلك متعب حتى العظم. لم أرتح طوال فترة غيابي عنك. أريد أن أعيد النظر في كل ما يحيط بنا. وربما ستأتي ساسافندا غداً. سأتفرغ لها على الأقل يوماً أو يومين وأحاول أن أتمم النصوص



والأرشيفات التي أحملها معي. أتمنى أن لا تكون غاضبة مني. مهما يكن فقلبها طيب. إذا احتجت لها ستساعدني حتما رغم أنها رفضت دخولي في هذا الجو منذ اللحظة الأولى. هذه مسألة ليست ذات أهمية. سنتحدث حولها فيما بعد. غدا ستكون لنا فرصة لتدارك كل السلبيآت. سنذهب مع السياح الأجانب إلى المستشفى التجميلي. نتجول داخل هذه المعجزة الغريبة التي تظاهر الناس ضدها في البداية، ثم صمتوا بعد أن وضعت الأكمام على أفواههم التي غابت ألسنتها.

إنها الحياة يا المهدي يا بن محمد. كما كنت تقول دائماً. علينا أن نتعلم من حرقتها.

ـ تصبح على خير يا السي الحسين.

ـ تصبح على خير يا بابا المهدي.

ثم نهض وغاب بين تفاصيل الأشياء. وجهه كان مشعاً داخل الإطار.

بالرغم من الإرهاق، لم أنم إلا بصعوبة كبيرة. أتذكر أني أغمضت عيني على وجه أمي وهي تصيح في شارع البلدة البعيدة. لقد أسموه شارع المهدي بن محمد. شارع المهدي بن محمد. وتمسح دموعاً تحجرت في عينيها اللتين ابيضتا منذ أن غيبت الغابة عظام المهدي.



تفاصيل يومية

خيل إلي أن خطوات ما تسحب نفسها على الدرج الخشبي بتثاقل. لكن متاعب مريم لم تتح لي إلا فرصة تأمل خطوط وجهها المتعب. لم أعد قادراً على تحمل غيابها. حين أريد أن أهرب منها إليها أجد نفسي بين الشعلة والسيف. بين السندان والمطرقة.

مريم.. مريم.. أوف يا الحسين عدت إلى هذياناتك؟. هذه المدن الحجرية لم تعلمك إلا الهبال. لماذا تملؤك مريم حتى القلب؟ حتى العينين؟ وتحولك في لحظات الغبن الطفولي إلى رجل يهذي بينه وبين المراهقة مسافة إصبع. أكبر قليلاً يا أخي.

لا يا الحسين. لا تخطئ. أنت لا تهذي. هذا حبرك الذي تكتب به، وهذا قلبك. هذا لحمك وهذا جلدك. اكتب يا الحسين ما تشعر به، فغدا ربما، في مثل هذا الوقت الصباحي البارد، سيأتي أناس قد يضحكون من كلامك كثيراً. قد يقول أحدهم لو كنت ستالين، لأمرت بطباعة نسختين فقط من أعمالك، نسخة لك ونسخة توضع على قبر مريم. لكن يا الحسين يا ولد أمّا، إنهم في لحظة وجد وانكسار، سيعودون مهزومين، وينزلون قبعاتهم من على رؤوسهم ويقبلون صدقك. اكتب يا الحسين. أكتب كل ما يمر برأسك. فغدا ربما لن تتاح لك هذه الفرصة وسيأتي من يقتلك لا لشيء سوى أنك تكتب كلاماً جميلاً.



أكتب والبقية اتركها للآخرين. قل كلمتك وامض، قبل أن يطمس الكسوف عيون المدينة.

لم يكن اليوم سيئاً في الحقيقة. أو على الأقل لم يبدأ كذلك. فقد قمت باكراً على غير عادتي المألوفة، بالرغم من ثقل عيني والتعب الذي كان يكبل كل حركاتي ويبدأني من مفاصل العظام. ومع ذلك كله، كان شيء ما، في داخل قلبي يحرقني، صعب علي تفسيره. شيء يشبه الورم الخبيث. كل الأمور الحياتية كانت تمشي بشكل طبيعي. الحياة. المؤسسات. الطقس. التلفزيون الذي فتح باكراً. الإذاعة. هه. الإذاعة هذا الصباح أوردت خبراً أخافني كثيراً لأني لم أكن أتصور أن الكسوف يمكن أن يطال عيون الأطفال. اسمعوا الخبر. فقد التقطته بسرعة فيها الكثير من النباهة. هذه الأيام تثيرني هذه الأمور التي تبدو عادية وهي ليست عادية: «**قالت الحكومة إنها تخشى من أن يصاب الملايين من قليلي المعرفة بالعمى الناجم عن النظر بعيون لا تحمل نظارات إلى الكسوف الكلي للشمس المتوقع رؤيته في هذه الأيام. وقال أحد مسؤولي وزارة الصحة إن الملايين من المواطنين، سيكون بمقدورهم مشاهده الكسوف فوق أواسط البلاد وأطرافها ولا أحد يستطيع تحديد مدته، لكنه حذر الكثير منهم وضمنهم ستة ملايين طفل من أنهم قد يحاولون النظر إليه من دون حماية عيونهم. وقال: إن الكثير من هؤلاء المواطنين هم من المتعلمين قليلاً وقد يراقبون الكسوف بعيون عارية. وهناك ستة ملايين طفل في المنطقة، حيث يمكن مشاهدة الكسوف هم الأكثر تعرضا للضرر. وتخطط وزارة الصحة لإطلاق حملة توعية في القرى محذرة من أن العمى الدائم قد ينتج عن مراقبة الشمس أثناء الكسوف. وقال وزير الصحة، إن علينا أن نشرح أن التحديق في الشمس يسبب العمى حتى أثناء الكسوف. وسيكتسح هذا الكسوف مساحة عريضة من أواسط البلاد**



وأطرافها. والمشكلة الأخرى التي ما تزال قائمة هي أن معظم المزارعين ليس لديهم نظارات شمسية وقد يريدون تتبع الكسوف. مع أن هذه الظاهرة النادرة، تعتبر فالاً سيئاً من قبل الجماعات الشعبية في البلاد».

أكدت الحكومة أنها ستعمل قريباً على توزيع نظارات الكسوف، كما طالبت الرعية بالتزام الصمت والهدوء حتى يمر الكسوف وترفع المتاريس والقوانين العرفية من الشوارع. الناس ينتظرون الحالة بعجز كبير. حتى علماء الأرصاد فشلوا في تحديد يوم الكسوف وفترة بقائه، لكنهم يعلمون جيداً أن الشمس ستغيب. وحين تهرب الشمس يأتي الظلام. ومع الظلام، وهذا يعرفه الذين تشكل لديهم هذه الظاهرة فالاً سيئاً، يكثر القتلة والمجرمون، والذين يبيعون ويشترون ويبدلون العملة الصعبة، والذين يحلون ويربطون. وستمتلئ الشوارع والأرصفة المظلمة بالذين يتضورون جوعاً وعطشاً. لا أحد يعرف متى سيكون. لكن كل الدلائل التي تحيط بالمدينة تؤكد أن كسوفاً طويلاً سيغلق عيون الأطفال والمدينة لمدة غير محددة، تقصر كما قد تطول. اعذروني. فأنا أحياناً لا أكتفي بكتابة ما يتعلق بالمهدي وحده. بدون شعور مني أدخل في تفاصيل كثيرة أحس بضرورتها وليس من أجل أن يكون التحقيق متخماً بكثرة الصفحات والأوراق الزائدة.

الخطوات على الدرج تقترب أكثر.

انفتح الباب فجأة. لم تدق. دخلت. عند الفجوة لمع وجهها البارد الذي كنت أنتظره. تذكرت قسمات مريم الرائعة التي كانت كلما نظرت إلي، ازدادت قدسية ونبوة في عيني. وضعت القلم على الطاولة حتى لا تتهمني بالتقصير في حقها. لم أعد أفهمها منذ أن ترقت في مسؤوليتها في الاتحاد النسائي. تفسر كل الأشياء من جوانبها السيئة.

ـ أنت لم تعد تفهمني يا الحسين.



كلمة حشت بها رأسي حتى صرت أقرف من سماعها. تتهمني في الفترة الأخيرة بالتقصير في حقها كامرأة. تقول، أنتم الرجال يخشى الواحد أن يثق فيكم وحين يرمي نفسه بين أيديكم ترمونه كقشرة ليمون صفراء وتهملونه. وحين يفعلها تحرقون العالم تحت أقدامه. وللصراحة، أقول، إنها لم تعد تهمني كثيراً. ولكني أشعر أحياناً تجاهها بالمسؤولية وبشيء غامض كعينيها. لا شيء ينجح وسط هذه الطاحونة. المرء يشعر يومياً بأشياء تنهار في داخله. والطاحونة لا ترحم أبداً. تطحن دوما. والحوامض تزداد في الأمعاء والمعدة وتكثر القروح.

معارف ساسافندا كثيرون في المدينة البعيدة، كثيرون لكني لا أعرفهم. لم تعد تقدم لي أي شخص من وسطها المهني. آخر مرة وجدت أحدهم عندها. قالت إنه يعمل في العاصمة وله علاقات كبيرة في البلدية وينوي مساعدتها في تغيير اسمها من ساس فندا إلى شهرزاد. تقول إن في الاسم الثاني أصالة لا تحد. مع كل هذه الملاحظات، أقول دائماً ربما كان التقصير مني. أؤنب نفسي باستمرار: تحرك يا الحسين، لا تكن غبياً. ساسافندا تحبك. أنت متعب ولا تفكر بشكل سليم. هزّ روحك قبل أن تطير من بين أصابعك. قبل أن تجلس على خازوق وتعود إلى الوحدة الحارقة. لأن المريض يرى كل ماعداه أصحاء حتى ولو كانوا أكثر تخرماً منه. أو على الأقل هكذا يحدث معي أن أفكر أحياناً. ساسافندا تتحمل مشقة السفر من العاصمة من أجلي. من البؤس أن أنهمك في الكتابة وأهملها عند فجوة الباب. كل هذا أشعر به، لكن اعذروني إذا قلت لكم إني أتساءل أحياناً كيف تورطت معها. كيف تورطنا مع بعضنا ربما كان الخواء الذي خلقته مريم هو السبب. ربما كان خواء المدينة. ربما كانت حالتها الأولى. يتيمة كبرت في شقاء البؤس. غيبت الأحزان طفولتها مبكراً. هذا المخ المتشابك يعذبني.



أتمنى أحياناً أن أقدمه هدية للمستشفى التجميلي، أن أستأصله وأرتاح منه نهائياً. مثلا في أمريكا، توصلوا إلى استئصال أكثر من خمسين عضواً في الإنسان وتبديلها بأعضاء اصطناعية ويتوقع الخبراء، أن يصل عدد الأعضاء القابلة للتغيير إلى رقم يتجاوز العدد المذكور آنفاً. وحسب ما يحكيه بعض الزملاء في الصحافة وفي المقاهي، أن المستشفى التجميلي احتوى على كل هذه الخبرة العالمية وسيصل قريباً إلى درجته القصوى في التطور وسيتوصل في نهاية السنة إلى القيام بأصعب عملية وهي الأولى من نوعها: زرع شبكة أعصاب كاملة محضرة في المخابر الطبية. ويحكى كذلك أن الشركات متعددة الجنسيات وضعت خبرتها تحت تصرف المستشفى إضافة إلى بعض الجمعيات الخيرية هنا وهناك. الآن ذكرت لكم بالمصادفة الشيء الذي يؤرقني وأشعر بعلاقة خطيرة بينه وبين دفن المهدي بن محمد حياً.

ـ ارفع رأسك، يا سيدي. نحن هنا.

ـ أهلا بك يا ساسافندا.

ـ شهرزاد من فضلك.

ـ خلاص. شهرزاد. ساسافندا، ثلاثون سنة ذهبت مع الريح.

ـ قل تفضلي على الأقل.

ـ بيتك يا ساسا. . . شهرزاد. كيف أحوالك وأحوال العامة.

ـ أحسن منك.

نسيت أن أقبلها. قمت من مكاني. شعرت ببرودة شفتي. عيناها كانتا ضامرتين وقاسيتين. يشع منهما شيء غامض. القبلة كانت باردة. الله غالب يا طفلة. لا يمكن أن نلهب شيئاً فقد حساسية الاحتراق. بإصرارها على المؤسسة الزوجية، فقدت قيمتها كامرأة. حالة جنون ربما. فقدت الحالة التي كنت حين أواجه مريم أشعر بها. صدقوني أن



مريم كنت أخافها بدون أن تتكلم. حالة ما يصعب تحديد تفاصيلها كانت تحركني من الداخل. أشعر بالاحتراق. كل شيء فيها يدعوني إلى الارتعاش. حين حاولت لأول مرة تقبيلها وكانت قد وقفت كالنور عند الفجوة نفسها، لم أتمالك. احترقت بين شفاهها. كانت رائعة في ذلك المساء الدافئ. . تأملتني. تأملتها حتى شعرت بأني سألتهمها دفعة واحدة. في الليل، حين كنا نبحث عن أنفسنا بشوق، حكيت لها عن عجزي عن تقبيلها في المرة الماضية. قلت لها إني كنت أحلم بقبلة منها لكني خفت من عينيها ولباسها الأسود الذي يورثني حالة هلع. وحين ضحكت بأعلى صوتها، كنا قد تحولنا إلى عصفورين متلازمين.

القبلة، ساسافندا هي التي شعرت بقسوة برودتها.

كانت تغلي مثل البركان. أشياؤها الدفينة اتقدت كالصخور.

تهالكت ساسافندا على الكرسي بعياء. رفعت رأسها. بان لها الإطار على الحائط أكبر من حجمه. بدا الانزعاج كبيراً على وجهها. في عينيها تراقصت أشياء مخيفة. أخرجت الصحفية من حقيبتها. فتحتها.

ـ هه. زاوية حيوية من عنوانها. **تعال معي** أفضل من جفاف **شيء من الأرشيف**. لا أدري لماذا الجزائري مولع بالمقابر؟

ـ يا ساسا. . . عفوا. يا شهرزاد. كل واحد يغني لأشواقه. أجد لذة مع الأموات لا أجدها مع الأحياء.

ـ سهرة جميلة يا الحسين. تجي معايا؟

شعرت في لهجتها نوعا من الود الزائف.

ـ لو كان تعرف واش فيها تهبل. جين مانسون، سهير زكي، عبد الوهاب الدكالي، العماري ديالنا وداليدا ستغني بالعربية. أحب داليدا لأنها لم تنس مياه الإسكندرية. وعشاء فاخر. ألا يعجبك هذا؟

هذه الأشياء التي تنبت في عينيها ترهقني. تعرف جيداً زاوية تعال



معي. بدأت تنبهر بها. قادمة من العاصمة وفي رأسها مواويل العالم كله. في البداية شعرت بها تستفزني أكثر مما كان يستفزني عنوان الزاوية التي حولت ذكريات الشهداء إلى سهرات وكرنفالات متلاحقة لا تتيح لك حتى فرصة التفكير. الزاوية كانت جزءا من تفاصيل حياتي اليومية. والآن يبدو أن العالم أصبح يجري على رأسه ويديه، وأحياناً يزحف بصعوبة كالحية، على بطنه.

ـ مع أن هذه الزاوية كانت تعجبك.

ـ العالم يا صديقي يتغير. ليس جامدا. علينا أن نواكبه وإلا علينا ننتحر أفضل للجميع.

ـ نواكبه بحرق ذاكرتنا.

ـ إنك تلعب بالنار يا الحسين.

ـ جئت من العاصمة لتقولي لي هذا الكلام.

ـ يعز علي أن أراك تتعذب في الفراغ. كن مثل جميع الخلق. إنهم أكبر منك. أدخل في الآلة. نعيش مرة واحدة في الدنيا.

ـ أنت تتغيرين بسرعة، يصعب علي متابعتك خطوة خطوة.

ـ وأنت مصر على الجمود والموت البطئ.

ـ أنت تتحدثين بلغة مخفية يا ساسافندا.

ـ شهرزاد من فضلك.

ـ طز على شهرزاد. ليست أكثر من دابة محترفة للكلام. أنقذت عنقها من الذبح بالكذب.

ـ إذا كان وجودي يزعجك يا الحسين. سأنطفئ من أمامك في الحال.

ـ لا. لا. لم أقل ذلك. ولكن يبدو أنك تشربين في العاصمة حليباً غير الذي أشربه.



ـ أنت لم تسألني ماذا أشرب.

ـ قهوة كالعادة. عفواً.

ـ لا. كوكا كولا. أظرف بكثير.

ضحكت بالرغم من المرارة.

ـ لا يهمك. إنها تملأ المدينة. أمريكية أصيلة. شكون يقدر يقف في وجه الماريكان؟ الله ينصر الماريكان حبيب العرب والمظلومين.

لم تجب ولا بكلمة واحدة. انزلقت إلى الطابق الأرضي وجئتها بزجاجتي كوكاكولا فأخذت تشرب بهدوء وتتلذذ بقصبة المص في فمها وتورق الملف الذي كان عند ركبتيها. ضحكت ضحكة منتشلة بصعوبة مثل غريق فيها من الافتعال.

ـ أعتقد أنك تحب الوحدة أكثر مني.

ـ أنا متعب. المدينة تقتلني بوداعتها المفتعلة.

ـ أتمنى أن لا تكون زيارتي قد أزعجتك.

ـ عدنا إلى الأسطوانة القديمة. لا تكوني غبية يا شهرزاد. ساسافندا. أنت متعبة وأنا متعب. دعينا من المشاجرات الفارغة. فقد سطرت برنامجاً أتصور أنه يعجبك أحسن من السهرة. سطرته حين كنت وحيداً، بعدما مللت من متاعب التليفزيون.

ـ أنت تفكر في مثلما أفكر فيك يا الحسين.

امرأة غريبة. تشعر بشيء، وتدفعني إلى الاقتناع بأني قصدته.

ـ سأنزل بعد قليل إلى الحمام الشعبي وبعدها ننزل معاً إلى الحديقة الكبيرة. فقد جلبوا لها حيوانات جديدة من أوروبا ثم ندخل إلى مأثرة المدينة: المستشفى التجميلي. يقولون إن الدخول غير مسموح به إلا للسياح أو غيرهم من الذين توفدهم مؤسسات رسمية. جهزت تكليفاً بمهمة من الجريدة التي كنت أشتغل بها.



ـ زورته يعني.

ـ قليلاً فقط. Pour la bonne cause

يقولون إن مشروع المستشفيات سيعمم في كل المدن والقرى. ينزعون فيها كل الزوائد التي تشوه خلقة الإنسان. الأنوف والألسن. يغيرون الأدمغة، يوسعون العيون حتى ترى بشكل أوسع وأدق. والآذان، وأعضاء أخرى بحسب الطلب.

ـ سنذهب إذا شئت. لكني هذه المرة جئت من العاصمة لآخذك معي. ويكفيك من هذه التفاصيل. أنت في غنى عنها.

ـ يجب أن نعرف ماذا يدور في مدينتنا يا ساسافندا. ما أشعر به يدعو إلى الجنون. قلت لك أنا متعب.

ـ دعك من هذا التعب المجاني. أنت تقتل نفسك بالتقسيط. إذا قلت لك أترك التحقيق سأبدو تافهة في عينيك ومع ذلك أقولها لك للمرة الأخيرة.

ـ أنت تتعبينني باقتراحاتك. أطلب منك أن تفهمي وضعي فقط.

ـ لماذا لم تفعل ما قاله لك بلقاسم.

ـ لماذا؟ لما يتنكرون لدم المهدي بن محمد أصير أطرش. بلقاسم طيب. لكنه واحد منهم.

ـ يا سيدي إذا كرهت العاصمة. أعرف أنك تكرهها. سأتوسط مع المسؤولين هناك لإرجاعك إلى وظيفتك. خذ صفحة الإعلانات. صفحة الوفيات. ماذا ستخسر. لن تبني البلاد وحدك. لن يسمعك أحد. أنت تبول في بئر عميق الهوة. لا تكن دونكشوتا يا الحسين.

ـ يا ساسافندا. كلامك يبعدني عنك كثيراً. إنك تعمقين الهوة.

ـ شهرزاد. حاول أن تفهمني أنت بدورك. رفعوني يا عزيزي. وظيفتي أصبحت ثابتة ونستطيع أن نعيش منها. وعدوني بالسكن في



ظرف هذا الأسبوع. لنتزوج يا الحسين. مازلت أفضلك على غيرك. إنهم يلاحقونني. مناصبهم عالية مثل دار البلدية أو مقر الحزب. دعني أكلمك بصراحة ولو مرة واحدة وأخيرة قبل أن يتفرقع هذا الشيء الذي بيننا ويخرج حممه في وجهينا. أنا كذلك أعيش تناقضاً مرهقاً جداً. أحبك لكني أحب العاصمة والتفاصيل التي أحياها هناك. الله غالب يا الحسين.

فكرت لحظة. لم يفاجئني شيء غير صراحتها التي أواجهها للمرة الأولى. تعاطفت مع ما كانت تقوله.

- ما بني على الخطأ. يوصل إلى الخطأ يا ساسافندا. أنا كذلك أشعر أني أحبك لكن هناك شيئاً ما يأكلني من الداخل كالسوسة.

- إذن ماذا تنتظر لرمي هذه الأوراق وتعود لحياة المرح والطفولة.

- كبرنا يا ساسافندا. نحلم بالطفولة لكننا للأسف لم نعد أطفالاً. جئت متأخرة جداً. التحقيق قد فتح في وجهي أبواباً من الصعب علي غلقها.

- جرب.

- عبثاً. التفاصيل تجري في العروق مع الدم. هذه هي حياتي، وهذا شأني الكبير. الآن بدأت أدرك أنه بينك وبين شهرزاد شبه الدم والنجوم. لكن الحسين عاجز عن التحول إلى شهريار. بين شهريار والمهدي بن محمد عداوة تقليدية يا ساسافندا.

- أنت مصمم يا الحسين تركب رأسك؟!

- انتهى. ربطت مصيري بالمهدي. أنت لا تصدقينني إذا قلت لك إن المهدي حكى لي أشياء غريبة حول وفاته.

- لكنك تهذي يا الحسين. إنها حالة الجنون يا ولد عيشة لمنورة. المهدي مات. الله يرحمه ويوسع عليه.



بانت في عينيها أدخنة وحرائق مهولة.

- صعب عليك فهمي. مع أني لو حكيت القصة لعمي حمو السكير، حمامة المدينة المذبوحة، لصدقني بدون تعب.

- أنت تجنني يا الحسين. حكاية المهدي لا تدخل رأسي.

- الشهداء يتكلمون يا شهرزاد. الشهداء لا يموتون. قبل مجيئك كنت مع المهدي.

قبضت على شعر رأسها. ارتعدت أصابعها. لم تعرف ماذا تقول.

- يا الحسين لا تكن غبيا. هذا الجنون سيهلكك.

- ليس جنونا. صدقيني أن حالة المهدي بن محمد حالة صحيحة.

تلمست رأسي. شعرت بحرارة كبيرة. حاولت تلطيف الجو.

- سأتكفل بإرجاعك إلى الجريدة. أصدقائي يحلون ويربطون.

- ألم أقل لك إنه من الصعب عليك تصديقي. فالمسألة لا تخضع لأصدقائك في العاصمة. في العاصمة لا يفكرون بمنطق الشهداء. حمو وحده يفهم كل شيء. حمو شهيد المدينة الذي يمشي على أظافر رجليه.

- يجب أن تعود إلى صوابك.

- هم أنبياء المافيا. ونحن أنبياء الجنون. سأفكر في كل شيء فيما بعد. الآن أتركي كل شيء من ذاكرتك. سأنزل إلى الحمام قبل أن أتحول إلى دابة نتنة. وبعدها نتنفس معا هواء المدينة حتى ولو كان مؤكسدا. علينا أن نتنفس قبل أن نختنق.

صمتت. شعرت في عينيها خيبة أمل كبيرة. سكن الحوار الأطرش، لملمت حوائجي. قطعة قطعة. الفوضى كثرت في البيت. الروائح الكريهة. الماء الذي لا يأتي إلا مرة في اليوم، وفي ساعة متأخرة من الليل. حتى الماء انقطع عن المدينة. يا لطيف. ذكرتني الحالة



وفوضاها، بذكرى احتفال المدينة بعيد الثورة الماضي. حين كان الجيش يعزف النشيد العسكري ولا يسمع في الشوارع إلا صوت الأحذية الثقيلة المنتظم، كان الناس يجرون بأصطلهم وأوانيهم الفخارية والحديدية والبلاستيكية في أزقة المدينة وعلى أطرافها، بحثا عن قطرة ماء. نسوا الشهداء. والثورة. والجيش الوطني. والدماء. لعنتهم، لكن حين وجدت نفسي في آخر الطابور، في يدي سطلي، أنتظر دوري لأغرف من العين الموجودة قرب مزبلة المدينة، عرفت أن وراء المسألة شيئاً كنت عاجزاً عن فهمه وعن تفسيره.

ـ لن أتأخر يا ساسافندا.

لم ترد عليّ. كانت منهمكة في تفرس وجه المهدي بن محمد الذي بدا لها أكثر من شخصية عادية.

في الشارع جريت كالديك المذبوح.

حمام العشاق. حمام تركي قديم. الماء فيه يوزع بالحساب مثل عام الجوع والعطش. إذا زحلقت في يدي الكياس بعض القروش يمكنك أن تنعم بقسط آخر من الماء. وأن تنزع قليلاً من الأوساخ التي أورثتك إياها المدينة. أحياناً أكفر على خلقته وعلى اليوم الذي رأيته يأخذ من الناس الرشاوي. لكنه جزء صغير من هذا النسق الذي لا يحد. أنا كذلك مارست العملية نفسها مع الميموني. ساعة. ساعة جميلة أخذتها عيناه.

من حيث لا أدري غيرت الفكرة. سأذهب إلى **دوش الهناء**. أحسن وأفضل بكثير. المسألة هناك لا تستهلك وقتا كثيراً. ثم لن أكون في حاجة ماسة إلى توزيع الرشاوى حتى أغسل وسخي وعرق المدينة. **دوش الهناء**، يقع في الحي الشعبي الذي يحمل اسم المهدي بن محمد الذي بدأ اسمه يمحي بفعل الزمن. أمر عليه يومياً تقريباً. ويومياً اشعر بثقل الأوساخ التي على جسمي. تتبعني الأصوات نفسها كلما مشيت،



الروائح نفسها التي لا يحتمل الأنف قسوة رداءتها. اسمع يا صحافي آخر زمان. اكتب عنا. عشرة دنانير فقط وتبطحها على الفراش. عجوز وتمارس الحب بشكل رائع. أخذها الناس يا الحسين. وصلت متأخراً يا ولد أما. يخصك الكيف. والله السيدة جميلة. عيونها آسرة. شيخات مواخير المدن الصغيرة أحلى. أضرت الصح ينبت. خسارة الدم اللي ضاع، خسارة الدم اللي ضاع. عيون حمو الضائعة وسط أنساق المدينة. هاه. هذا هو اللي لعبها لنا البارح. تعال هنا يا ولد القحبة. تخرج السكاكين. غلبناكم في الكرة لكن الحكم ابن شكامة العسكر هو السبب.

رفعت رأسي للتأكد. **دوش الهناء**.

دخلت وقبل أن أستلم مفتاح الدوش واجهني رجل قصير، فمه خال من كل الأسنان كأنه خرج لتوه بوجهه المحروق من حرب مدمرة.

ـ أمامك عشر دقائق وبعدها أفتح عليك الباب.

ليس مهما لأني أكثر علما منك بأني لن أتجاوز خمس دقائق. بيني وبين الحمام عداوة تقليدية. أشعر حين أمارسه كأني أمارس عملاً شاقاً. مثل الذهاب إلى التواليت والأكل. ربما رجع ذلك كله إلى التركيب الغلط الذي بني به دماغي.

والماء يسح على وجهي كنت أفكر في ساسافندا ـ شهرزاد. أحياناً أشعر بحكمة ما تنزلق خطأ من شفتيها وأحياناً أخرى تورث لدي انطباعاً بالاهتراء والتساقط. أنت يا الحسين لا تعمل إلا على تكسير رأسك. أفهمني قبل أن تنزعج. الكرة الأرضية كلها ضد تفكيرك الجامد. أشعر كأن الذي يتكلم فيها هو الجزء المهدم من هذا الشعور بالحياة المتبقي في عينيها الغامضتين. هذا الجزء المهدم مثل أسوار طروادة القديمة، إذا طاوعته، سيخربني، وبعدها، بدون شعور مني، أجد نفسي مثل السلالة المخصية، أسير نحو المستشفى التجميلي.



يقال إن المستشفى كان تجريبياً في هذه المدينة. هذه المدينة بالذات شهدت حملات الإسبان والفرنسيين والأتراك وغيرهم. قاومت ولم تسقط على ركبتيها وتتضرع للرؤوس الحليقة، العجيبة التي تشبه قطع الزجاج أحياناً وأحياناً أخرى لا تختلف عن كتل الحديد الصدئة. والآن ها هو ذا المقص الكبير يجهز لينزل على أنفها مع بداية الكسوف. وترمى مع دقائق الأنوف البشرية والعيون الفاسدة والألسن والأجساد المعجونة في المزبلة التي تقع على أطراف المدينة وتشتعل فيها النار لتتحول في الغد إلى مجرد غبار ونثار أسود.

من يدري؟ ساسافندا. شهرزاد. مدفوعة. حماسها يخيفني.

أوف يا الحسين. تطالب الناس أن يفهموا حالتك، لكنك لا تفرق بين الحالة الطبيعية، والحالة غير الطبيعية. إنها حالة إنسانية. من حقها أن تخاف عليك. لا تكن غبياً. أنت نيتك سيئة يا الحسين خويا. لماذا لا تقول إن حبها لك هو الذي دفعها إلى أن تقبل بانهيار أشيائها الجميلة مقابل المحافظة عليك. أنا كذلك كنت منزعجاً، متعباً حتى المصران الأعور. عليها أن تفهم وضعي. فهذه الأيام، أعيش حالة غير طبيعية. عند العودة سأحاول أن أوضح لها كل الأشياء الغامضة. التحقيق بالنسبة إليّ أصبح يتنفس في رئتي. لو تستطيع هضم هذه المسألة فقط، البقية محلولة. أنا متأكد من أنها أقل تعقيداً من قضية التحقيق وعليها أن تعلم أن المهدي ابن محمد يجب أن يعاد إلى الحياة إذا أرادت هذه المدينة أن تمشي بشكل مستقيم وتفكر بشكل سليم.

سأحكي لها عن نيتي للعودة إلى التعليم. وعندما أنتهي من التحقيق وأدونه، سأقدمه إلى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع لتنشره. لا أطلب مقابلاً لذلك. ما يهمني هو أن يسمع بقضية المهدي بن محمد كل الذين يعرفون فك الحروف الأبجدية ولكل الذين يرون ويسمعون. سأعود إلى



التعليم، كما كنت، وأعمل مساهماً خارجياً في الصحافة ولن أربط مصيري بها. وإذا رأت ضرورة للزواج، نتزوج. أنقلها من المدينة الكبيرة التي أكرهها ونحاول أن نجدد حب بعضنا بعضاً. تستطيع هي أن تشتغل هنا كذلك. يوجد مقر للاتحاد النسائي. ونحاول أنا وهي أن نبني عشاً جميلاً ونكتشف جمال المدينة. جمالها يزداد ليلاً. واحتراماً لشعورها سأعمل على عدم تذكر مريم قدر المستطاع.

أوف يا الحسين خويا. أنا قلت من زمان أنك ضحية أحلامك وطيبتك البدوية. تمهل قليلاً. تعقيدات الحياة أفظع مما تتصور الآن وأنت تحت مرش **دوش الهناء**. حين يواجهك هواء المدنية ستغير رأيك أو على الأقل ستتساءل كثيراً قبل أن تقدم على أي عمل.

ـ اسمع خويا. بقيت دقيقة واحدة بعدها سأفتح الباب.

سمعت صوت الرجل الذي فقد أسنانه كلها مختلطاً بمياه المرش.

سأعمل على حبها قبل أن تنطفئ الأنجم الجميلة من عينيها الغامضتين. لست أدري هل خرجت، أم أنهم فتحوا علي الباب، وجدت نفسي أتدحرج في الشارع المكتظ بالناس المتعبين. أين تشتغل كل هذه الخلائق الغريبة؟ أين تنام؟ كيف تفكر؟ ماذا تأكل؟ كلهم يحكون عن ضرورة تصحيح الاقتصاد الوطني. الإنتاج والإنتاجية. عن الرجل المناسب في المكان المناسب. عن المستشفى التجميلي الذي حلّ مشكلة التشوهات الجسدية. المواخير التي لا تفرغ من الوجوه المحروقة. هناك خلل ما يجب تطويقه. هناك شيء ما يمشي بشكل معكوس. أمي. عيشة لمنورة تنصحني بأن لا أكتب عن القضايا التي يعاقب عليها القانون. رئيس المخفر ينصحني بالعودة إلى الصواب. ساسافندا ـ شهرزاد تنظر إليّ بعيون اتهامية. الميموني يبتسم في وجهي وهو يدعوني لشرب قهوة، ويقسم برأس أبيه الذي أكلته أمه أن الطريق



الذي أمشي فيه مسدود، فقد جربه قبل هذا الزمن. يلح عليّ بأن أشرب كأس قهوة آخر. في هذا المقهى المكتظ بالناس حتى التخمة ويريد أن يعرف أين وصل التحقيق. ساعتي تنام في معصمه الأيسر. تتأملني أرقامها بشكل حنيني. الكل يتهم وينعتني بالجنون.

قمت من مكاني.

ـ شكراً يا الميموني على القهوة.

ـ فكر مليح قبل أن تركب رأسك وتذكر واش قال لك الميموني.

في الطريق، مررت بأحد الأكشاك، سألته عن جريدة العاصمة. قال إنها لم تصل بعد. واجهتني كتابة على أحد جدران الكشك زادت من خوفي أكثر فأكثر. هل تستطيع المدينة تحمل كل هذه المصائب؟: **قف وتأمل أيها العابر في هذا الشارع وفي كل الشوارع. توقف قليلاً. قصص عجيبة غريبة تمتعك حدّ الرعب. يقف لها شعر رأسك. كنوز أغاثا كريستي وأرسين لوبين وتشيز ترحب بك. دينار منك يغنيك عن سنة من المعرفة ويفتح أمام عينيك عجائب الدنيا. اقتن نسختك قبل نفادها.**

هذه المؤلفات تملأ المدينة. وقراؤها يزدادون بشكل يعمي البصر. عند مدخل النزل اعترضني السكير الأعور الذي يحوم يومياً حول البيت.

ـ عندك كبريت.

ـ تفضل.

أوقدت له السيجارة الطويلة. والله عجيب سكير، عربيد، مهمل ويدخن كنت KENT سيجارة الكمال بالمتعة، كما تقول الدعاية. فكرت في لحظة ما أن أسأله عن الشيء الذي ضاع له في هذا المكان، لكن الوقت بدا لي ضيقاً، ثم أن قضية وجوده في هذا المكان ليست مهمة للحد الذي يؤرقني. كل الاحتمالات واردة، فلماذا نطرح دائماً أسوأ التصورات.



صعدت الدرج بدون أن أتنفس ولا ألتفت. أقول لكم صراحة إني في لحظة ما شعرت بعين السكير تخرج من رأسه وتدخل من فتحة الباب الذي أعدت غلقه بسرعة وتجلس على الكرسي قبالتي وتبدأ في مراقبة حركاتي وحركات المهدي مشهرة في وجهينا الإعلان الذي قرأته على حائط الكشك الذي يبيع الكتب وصحف العاصمة.



أسوار المستشفى التجميلي

ـ ١ ـ

البناية بيضاء كيوم صيفي حار، تشبه قبة أو قلعة عالية. أنظر إلى الأمام يا الحسين ولا تلتفت إلى الوراء. الأيدي منتصبة في كل الأماكن. العيون مزروعة في قلبك. جهنم تلاحقك يا بن المهدي بن محمد. وراءك تقريباً نصف أتربة وغبار الكرة الأرضية.

آه يا الدار العالية..

آه يا المدينة الزينة.

شحال يحبك الناس، وشحال قتلت ناسْ.

كان المهدي يقول قبل أن تطعنه الشهادة، يا تكوني امرأة ونكون رجالاً يا تكوني رقية مميس، نحمل بنادقنا على ظهورنا. إما أن تحرقي أو نحرق. آه يا المدينة الزينة. أتذكر عمقك قبل عقمك. مريم كانت مثل الطير الحر. عمق عينيك يعذبني والبحر والسواحل الواسعة، فتحترق العصافير في كفّي وينهار ما تبقى من المدن الساحلية وروعة أحجارها القديمة.

تعذبني الوحدة يا مريم. لاشيء يهم الآن وسط هذا الدمار غير مسحة وجهك النبوي ونظرتك التي تخبّئ وراءها عالماً منتهكا في أبسط أشيائه الصغيرة.



لا تلتفت وراءك يا الحسين. العيون المحمرة والأجهزة الدقيقة، تلتقط الآن أنفاسها. أنت تشعر بها. تشع بالأشعة الحمراء والبنفسجية وفوق البنفسجية التي تقتحم صدرك مخلفة دواراً خفيفاً في دماغك. أمش باستقامة يا بن المهدي بن محمد. مت واقفْ.

أريد تذكيركم ببعض المعلومات التافهة ربما. حين هممت بالخروج أنا وساسافندا، وجدت السكير، غائباً عند أدراج النزل. رأسه ملقى على ركبتيه. من جهتي، لبست أحسن الألبسة. إنها المرة الأولى التي أرضي فيها ساسافندا من هذه الناحية. حلقت ذقني من الزغب الذي بدأ يعطي انطباعاً سيئاً على وجهي، كأني مريض، أو خرجت من مصحة عقلية. راجعت من جديد وثيقة التكليف بمهمة. ارتحت للتزوير الذي لا يكاد يظهر. بواسطتها، تمكنت من الانزلاق وراء أبواب المستشفى التجميلي الحديدية التي تشبه الزجاج المشبع بمادة رمادية. جلنا الشوارع التي كانت تمتد كأيام القيامة. وقبل أن نصل إلى هذا المكان بالضبط، عرجنا على حديقة الحيوانات الأليفة. رأينا الكلب الإنجليزي. القط الأمريكي البشع. وبعض الطيور التي اصطيدت من سواحل التاهيتي.

في الخارج، كان المستشفى يبدو رائعاً ومخيفاً. صمم على شكل قبة، أو قلعة دائرية، احترمت فيها التقاليد الإسلامية للفن المعماري. الأعمدة. المنمنمات. تركيب الحيطان. الزجاج المعشق بالذهب. الألوان الفسفورية المشعة. الزرابي التقليدية التي تمتد حتى الخارج لتغطي ممرات الحديقة وتعطي الانطباع وكأننا أمام قصر عربي قديم.

كلمة مستشفى تجميلي كتبت بخط كوفي رائع، تتنافس إضاءاتها ليلاً مع إعلانات **فيليبس وطوشيبا وغرانديغ وصوني وطوطال.**

الغريب أنه على الرغم من هذه الهندسة هناك شيء عميق وغير مرئي فيه يوحي بأنه مستشفى يقترب إلى حد بعيد من مسجد أموي قديم.



وأغرب شيء لمسته وأنا أدخل الحديقة، هو أنه بمجرد أن تتخطى باب الحديقة تبدأ الكتابات كلها باللغة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية. كل المعاملات تتم بهذه اللغات. حركة الناس غير عربية بتاتاً.

الطراز الإسلامي والأقواس والتقاليد المعمارية القديمة. والألوان الفسفورية المستجدة تورث لدى المتفرج خوفاً غير مبرر وتقلصاً بالمعدة والأمعاء والمخ. حتى أني في لحظة من اللحظات الطائشة وما أكثرها، فكرت في إلغاء فكرة مشاهدة أجنحة المستشفى. جمع من العسس ينكتون ولا يضحكون. في عيونهم غموض يشبه غموض هذا المستشفى. يشبهون في ألبستهم وبرودة وجوههم الأجسام التي وضعت لمراقبة أبواب المراحيض والحيطان المهجورة من العشب. المستشفى على ما يبدو من شكله الخارجي متكون من عدة طوابق لكنه يخلف انطباعاً خاصاً، بأنه مكون من طابق واحد عال جداً من شدة شموخه المخيف أمام هذه المدينة الناتئة. الإنسان يدوخ وهو يحاول أن يرى قمته العليا.

وقفنا عند الباب لحظات مترددين.

فهمت ساسافندا من عينيها.

فهمتني من دهشتي.

ـ هل من الضروري أن ندخل يا الحسين؟

ـ دخلنا الحديقة. نحن الآن في مرماهم وإذا خرجنا كارثة. سيتحول الأمر ربما إلى مس بأمن الدولة.

ـ دعك من التعقيدات. كلامك المضخم ينبت الرعب في القلب ويهريه من الداخل.

ـ سندخل حتى ولو كلفني الأمر جلدي اليابس.

ـ أنا وراءك. خذ المسألة ببساطة أكثر.



ـ يا ساسافندا. الإنسان عندما يفقد إمكانية الأمل في الحياة، يقدم على حرق العالم بأسره ولا يهمه. ربما كانت أنانية مني، ولكنها الحقيقة.

ـ طيب. دعنا نجرب بدون هذه الورقة المزورة حتى لا تضخم التهمة على نفسك.

يا الله. تذكرت. قد يطالبونني بوثيقة الصحافي. إنها آخر شيء يمكن أن يطلبوه. الورقة راحت. الله يلعن وجه البوليسي القميء. المسألة بدأت تتعقد. فكها بأسنانك يا الحسين بن المهدي. فكها قبل أن يفكّوا عظامك. المسألة ليست بالبساطة التي تتصورها.

ـ أنا قلت لك وأنت تحمل مسؤوليتك. مع أني خائفة عليك أكثر من خوفي على نفسي. سأجرب أنا الأولى، معي بطاقة الاتحاد النسائي.

ـ غير مهم أدخلي أنت وأنا سأتكفل بالبقية.

ـ آه يا الحسين. مع هؤلاء. اللي قراه الذئب حفظه السلوقي.

ـ يا الله الوقت ضيق. أدخلي.

ـ طيب. أتمنى أن لا نندم.

تقدمت ساسافندا. طلبوا منها الأوراق. عيونهم مخيفة. عليها بريق فسفوري مشع ملون. وشوشتْ في أذن الحارس ببعض الكلمات مع شبق ابتسامة غير واضحة. توقعتها تخبره عن مسؤوليتها في العاصمة ثم أرته بطاقة صغيرة انتزعتها من صدرها.

لم يقل شيئاً. طلب منها بأدب وانحناء أن تتفضل. لم يثرني إلا شيء واحد في كل ما وقع. ساسافندا التي كانت تستحي من أن تكلم رجلا نعرفه صارت أكثر حرية. كانت تقول دائماً أن تكوينها السيئ هو السبب. أصبحت قادرة على تحمل المسؤوليات والأكثر من هذا كله،



الدخول في اللعبة من أبوابها الواسعة. العاصمة تفتح العيون المغمضة وتعلم شوارعها المصائب الكبرى. بقي دوري.

هه. هز روحك يا الحسين. بقي لك أن تقدم رأسك إلى الأمام وتحاول أن تقطع حقل الألغام. ساسافندا أوصلتها برودة دمها إلى الدخول بهدوء كبير. بقيت أنت يا وليد عيشه لمنورة.

تمتمت.

الله يجيبها في الصواب.

تماماً مثلما كانت تفعل أمي حينما تتشمم الخطر.

ساسافندا، أظهرت لهم بطاقة شهرزاد ثم أفلتت بذكاء. بقيت أنت يا الحسين. تجاوز عجزك وانفذ كالسهم قبل أن ينفذوا داخل قلبك كالجمرة. للصراحة خفت من هذه الألوان المشعة من عيونهم. تأملت للحظة شهرزاد وهي تلتهمها إحدى القاعات لتعود ثانية مع رجل بدا قزما تحت كتفيها العريضين. يبدو أنه دليل خاص. اقترح أن تتبعه لكنها نبهته إلى مكان انتظاري. فهمت ذلك من تمتمتها وإشارة أصبعها. انتبه الدليل. شعرت في لحظة ما بعينيه تفترسانني. ضغط على زر الباب الزجاجي. انفتح. أطل بصلعته المزينة.

- في خدمتك. تفضل.

قدمت له وثيقة **التكليف بمهمة** حتى قبل أن يسألني عن سبب وجودي في هذا المكان. تأملها جيداً بعينين شعرت بهما أشعة ذرية قوية التأثير، قادرة على كشف ما يتخبأ وراء السطور الأصلية من كلمات مزورة. رجلاي أصبحتا عاجزتين عن حملي. لم أكن أتصور أني قادر على الخوف إلى هذا الحد. أحسست بالثلوج تتراكم على دماغي عندما رأيته يدخل الورقة إلى حجرة ضيقة، مظلمة مملوءة بالأجهزة الدقيقة التي أراها للمرة الأولى ويتمتم مع بعض الوجوه الواقفة.



نظرت إلى ساسافندا نظرة تأنيبية وحاولت أن تتدخل من جهتها. احتمالان حركاها. إما أنها خافت علي من الفضيحة التي قد تتطور، أو خافت على امتيازات العاصمة وعلى منصبها.

وقبل أن تفعل أي شيء، خرج الرجل من الحجرة الضيقة، وفي عينيه الابتسامة نفسها المقاسة بدقة. بدأ المعدن الساخن يذوب في داخلي. مهما يكن. وجه الدليل لم يكن مكدراً وهذا معناه أنهم لم يتفطنوا للتزوير.

نظر إليَ طويلاً. شعرت به يعريني.

ـ تفضلا.

وسبقنا. تمنيت أن أطلب منه وثيقة التكليف بمهمة، لكني لم أفعل. ربما منعني الخوف. حاولت أن أسأله بجرأة ولو كانت مفتعلة، لكن عينيه الحمراوين دفعتاني إلى التراجع، حتى لا أكون غبياً أو مثيراً للشبهات على الأقل.

خزرة هذا السيد متعبة. ثقته بنفسه عالية.

حين انزلقنا إلى عمق الداخل، كان رأسي ثقيلاً وقلبي معرقاً. العرق الذي بداخلي بدأ يتحول إلى برودة سامة. يا لطيف؟. كان يسبقنا برشاقة. وكنا نتبعه بتثاقل.

ـ أهلا وسهلا بكم في معجزة القرن.

قالها الدليل بشيء من اللطف المبالغ فيه وبنوع من الافتعال الظاهر. ومع ذلك، فهذا الترحيب كان كافياً ليجعلني أنسجم مع الوضع المستجد شيئاً فشيئاً من حيث أدري ولا أدري. كل شيء كان مختلطاً في دماغي. لا أتصور أنهم تفطنوا للتزوير وإلا كانوا طردونا من الأول.

مرة أخرى أثارتني الحيطان التي زوقت بشعارات وإعلانات الشركات متعددة الجنسيات. الشركات البترولية وأسماء أكبر المقاولين العالميين.



أسماء البنوك. شدتني إليها بعنف أكثر لكن بغرابة أقل، صور الأسلحة الذرية. أكبر مساجد العالم. أجمل الكنائس والأديرة لم أعرف منها إلا **نوتردام دو باري وجامع سيدي بومدين والمدينة المنورة.**

لم أفهم سر هذه الخالوطا. التفاصيل الدقيقة كانت تتجاوز مخي المتعب. واصلت التدحرج أكثر وحاولت إقناع نفسي على الأقل بأن ما في الداخل ليس من اختصاصي. وأنا أقف وراء الدليل، سجلت ملاحظة في ذاكرتي، قبل أن تفلت مني. بلاط المستشفى والموزاييك كانت إيطالية. الأضواء من مختلف الشركات الفرنسية. والتجهيزات والتسيير تقاسمت صناعتها الشركات الأمريكية والألمانية الغربية. أما الملاحظة الثانية، فيبدو أن الوجوه التي كانت تمر أمامنا مسرعة، في أيديها وعيونها أشياء غامضة، لم تكن من المدينة ولا حتى بها ملامح عربية. سواد العين تغير إلى اللون الأزرق الذي يبرق بإشعاع خاطف. في مشيتهم شيء من الغرابة. التفاتاتهم المتكررة نحو الأسطح أثارت انتباهي. رفعت رأسي بشكل فضولي. عالما من التجهيزات رأيت. تفاصيل دقيقة وعجيبة. خمنت ولا أتصور أني كنت مخطئاً في حقها، هي موجودة لتصوير الأوجه وقياس درجة التنفس وحركات الزوار وربما ضبط حتى طريقة تفكيرهم. وفي هذه الحالة ليس من المستبعد أن يعرفوا ما يعشش في هذا المخ الذي تمنيت أن لا يعذبني بالتفكير. التفكير في هذا العالم يورث الغثيان والألم. عندما التفت نحوي الدليل بابتسامة المقاسة بالملمترات خفت. شعرت به يعرف تفاصيل الحقيقة. يعرف كل شيء ويحاول مجاراتي فقط لشيء في دماغه.. لا.. لا أتصور.

الحسين أنبهك. لا تكن غبياً. امش باستقامة. ببلادة إذا شئت ولا تثر حساسية هذه الآلات وعيون هذا الرجل. لا تفضح نفسك بنفسك وأنت لم تر شيئاً مهماً. بدأت اللعبة تتكشف. امش وراءها. ابتسم إذا



استوجب الأمر. مسد على شعرك الطويل وعلى وجهك وعلى مؤخرتك كما يفعل السياح والصحافيون. حتى الآن لم يتفطنوا لك وإلا لكانوا أرجعوك من الباب حتى قبل أن تدخل.

ـ تفضلوا.. تفضل سيدي.

لم يحفظ إلا هذه الكلمة. الدليل لا يحكي ولا يثرثر كثيراً.

أدخلنا إلى قاعة واسعة. واسعة كالطحطاحة. تعطي الشعور كأننا في ملعب لا يحد. أغلق الأبواب كلها. بدأت القاعة فجأة تصغر وتضيق، ويتصاعد البخار الذي يملؤها. ذهب كل شيء ولم تبق إلا وجوه حشد من الناس يفصلنا عنهم زجاج شفاف كتب في أحد زواياه **ميد إن أمريكا**. كان الناس مضغوطين كأنهم في علبة أسماك ومصطفين وراء بعضهم في وحدات، عشرة، عشرة ومربوطين من أرجلهم حتى رقابهم بأسلاك الصناديق الخشبية. بين كل صف وصف، قطعة معدنية رخوة قابلة للحركة الحرة حين يضغط على زر ما، في مكان ما، تنزل القطعة المعدنية ومعها تميل عشرة أجسام بشرية ملفوفة. كل الآلات في هذا الجناح تحمل ختم **جناح تجميل الأنوف** باللغات الأجنبية. يسمع صوت زر الضغط، تبدأ الآلات الغريبة حركتها المتسارعة جدا. تندفع عشرة وجوه بحركة آلية داخل الجهاز الكبير الذي يغيب ملامح الوجه. يشبه في تفاصيله محرقة يونانية. يسمع صوت جاف كضربة مطرقة على سندان عملاق، مصحوباً بصرخة واحدة تحمل في عمقها آلام عشرة مخلوقات. يتبع العملية صمت مطبق في حركة الناس والآلات والوجوه الغامضة. تعود القطعة المعدنية إلى وضعها الأول وكذلك الجهاز الضخم. وفي ظرف كسور الثانية الواحدة تميل القطعة من جديد ومعها تميل الوجوه العشرة وتعود الآلات إلى عملها الأول. بينما من الجهة الثانية التي نبهنا إليها الدليل بأصبعه الوسط، كان دم يسيل ويصب من خلال ترعة صغيرة



في بئر اصطناعي. تظهر الأجسام العشرة الملفوفة من جديد. تأخذهم رافعة عملاقة دفعة واحدة وتضعهم على كتل الحشائش التي تورث انطباعاً وكأننا في فصل الربيع. يقول حكماء المستشفى الأجانب، إن الحشائش منعشة وتخفف الآلام. وبعد أن تفك الألياف التي تربطهم، يهجمون على الحشائش بنهم يملأون أذرعهم وأفواههم. يأكلون. تحمر عيونهم وتغيب ملامح أوجههم. ثم يخرجون من زجاج الأبواب بدون أنوف ولا ذاكرة إلى قلب المدينة، مسرورين حتى العظم. في أقصى درجات الفرح حيث يختلط الدمع مع الضحكات المقاسة بالملمترات. أو على الأقل هذا ما فهمناه من عيني الدليل، قبل أن تأكلهم الشوارع. رأينا على الجانب الأيمن من الجهاز الذي يشبه المحرقة، بساطاً عريضاً يتحرك ببطء. يشبه بساط معامل السيارات. يسمى لاشين يتحرك مع ضجيج لا يكاد يسمع وعليه مئات بل ملايين قطع الأنوف التي تصب في نهاية المطاف في شاحنة كبيرة تتلقى كل الأشياء المنزوعة من كل الطوابق والأجنحة، الأعين، الأنوف، الآذان، الأطراف الفاسدة، الأمخاخ التي يرى الحكماء أنها لم تعد صالحة للمدينة وبعض الأجسام المعجونة التي استعصى تجميلها. الغريب أن كل الطوابق، على ارتفاعها، تؤدي كلها إلى الشوارع الخلفية وبدون حتى أن يشعر المرء أنه في الشارع فعلاً. يبدو أن صانعي هذه الآلة الغريبة، راعوا كل شيء. حتى أدق التفاصيل التي تبدو لنا وكأنها تفاصيل زائدة وتعباً مضافاً.

حين قرأ الدليل علامات الدهشة في عيوننا قال بشيء قريب من التمتمة: أنتم لم تروا شيئاً. المسألة تتجاوز قدراتكم العقلية وأكثر عمقاً وتعقداً مما تتصورون. هذه التكنولوجيات هدية للعالم الثالث. إنه الواجب الحضاري.

كنت منهمكاً في تأمل هذه الحركات المدروسة بدقة لكل هذه



الآلات. تذكرت المستشفى الذي كان ههنا في المكان نفسه. كان يديره طبيب هندي بسيط وبعض الممرضين الكسالى ومع ذلك كان يفي بالغرض في هذا الحي. يختن الصبية. يقدم الإسعافات الأولية. لايبخل بالميروكروم، وحبات وجع الرأس وتضميد الجروح الخفيفة. كان تابعاً لأملاك البلدية. الآن تحول إلى قبة. رؤيتها وحدها توقف شعر الجسم بكامله. كان الناس يصطفون بالمئات عند المدخل. يكثر العياط والمشاحنات التي تصل حد الضرب. الآن كل شيء بالمواعيد وبالوجوه والبطاقات والتسيير يتم بالكمبيوتر. إنه عصر الكمبيوتر يا الحسين. العالم لا ينتظرك حتى تفتح عينيك المغمضتين يا بن المهدي بن محمد. شد حزامك وامش قبل أن تقام على روحك صلاة الغائب ويمشي الناس والأحباء في جنازتك وأنت مازلت على قيد الحياة تمشي على رؤوس أظافرك.

الدنيا تمشي بشكل مخيف. من أين جاءوا؟. كيف دخل هؤلاء الخلق ذوو العيون الزرق والفسفورية؟ أي باب من أبواب المدنية انفتح على مصراعيه لاستقبالهم؟ مرة أخرى أشعر بعجزي في مواجهة التفاصيل المعقدة. ترى هل الذين سبقوني إلى هذا المكان أتعبهم الإحساس الخطير نفسه الذي ربما تكون الآلات المعقدة قد التقطت كل درجات توتره؟ كل ما أعرفه بدقة كبيرة هو أني تأكدت من أن أنف المدينة أصبح مهدداً بشكل مريع. تمنيت لو كتبت هذه الملاحظات على قصاصات كما هي العادة، لكن عيون الأجهزة التي تلتصق بظهري جعلتني مرة أخرى ألغي الفكرة من جديد.

نسيت أن أذكركم بأن الآلة التي تشبه المحرقة، كثيراً ما تلتهم الجسم بكامله بدل قص الأنف فقط. حين حاولت الاستفسار عن الموضوع قال الدليل بعينيه وحركة يديه: إن الأمخاخ الاصطناعية بالآلة كثيراً ما تلعب



الدور الأكبر في تحديد الطبيعة التجميلية. ونادراً مثلما رأيت، ما تلتهم الجسم بكامله وتعجنه ثم تفذف به مع قطع الأنوف نحو الشاحنة الرابضة عند أحد أبواب المستشفى. طبعاً، العملية إذن لا تتم عن طريق المصادفة أو الخطأ، كما كنت أعتقد وإنما عن طريق هذه الأمخاخ التي تحسب بدقة غريبة. وراء هذه العقول المعدنية، عملية مركبة، يديرها بشر غامضون ويتقاضون ثمنها سلفاً.

البركان الذي بداخلي كان قد بدأ يغلي. إذا اندفعت حممه كارثة. مع ذلك لزمت الصمت في انتظار البقية وفي أعماقي كنت مصمماً حتى العظم على قول كل شيء للمهدي بالرغم من إدراكي المسبق لعجزه عن فهم هذه الآلية الغريبة التي أعيشها أو يتخيلها. صعب جداً على مخ انطفأ في الخمسينات أن يدرك تفاصيل ما يقع في الثمانينات. ثلاثون سنة. عمر بكامله يا المهدي. اعذرني فلست أنا المسؤول عن تغييبك. أنا مثلك تماماً. إنهم يعملون ليلاً نهاراً على تغييبي.

الأغرب في الحكاية هو أني لا أعلم هل ارتفع الطابق بكامله أم نزل الطابق الفوقي، أم ارتفعنا نحن. فجأة وجدنا أنفسنا في الطابق الثاني وفي جناح جديد خاص بتجميل العيون.

إنهم يغيرون العيون يا مريم. ما أقسى عينيك يا ابنة الناس وما أحرهما. لم يبق في هذه المدينة إلا الابتذال. حتى العيون الجميلة أفسدوها ببؤسهم. عيناك كانتا تعودان بي إلى الطفولة وتعطيان للأمطار الشتوية وقعاً خاصاً، حين تقدم على غسل أحزان المدينة وأتعابها. الأرياح الآن تصفر بقوة في دماغي. الليل أصبح مخيفاً مثل حكايات العفاريت. لكن روعة وجهك ما تزال حتى اللحظة ماثلة أمامي كالأنجم التي لا تنتهي روعتها. هذا الخوف الغامض يذكرني ببرودة قبرك وهذه الأمطار تذكرني، يا مريم، بأنك كنت قلبي الصغير. أجمل الأشياء كنت حين تلونك الأنواء.



ـ اسمع أنت. ما لك حال فمك؟ تحرك.

وشوشت ساسافندا في أذني وخزرتني بنظرة باردة.

ـ امش. يجب أن لا تندهش. بداوتك تفضحك. كن حضارياً حتى في وقفتك.

ـ تفضلا. تفضلا.

وجهنا الدليل.

يقولون بحسب الدليل الذي بدأت ابتسامته الممسطرة تقلقني، إنهم بدأوا بالبحث في القضية منذ زمن بعيد، يصعب تحديد أيامه. وتوصلوا في نهاية البحث إلى أنه يمكن تحويل العينين وتوسيعهما وفق الطلب المقدم. هذه التجارب التي كللت بالنجاح أخذت الكثير من متاعب الحكماء الأجانب ومن عمرهم. وهكذا أصبح من الممكن بكل بساطة القيام بالعملية التجميلية التامة. مثلاً، نقل العين اليمنى إلى الوسط. أما العين اليسرى بالإمكان تثبيتها على القفا. أو حتى تعويضها بعين اصطناعية قادرة على الحركة الحرة والسريعة بدون أن تفقد جمالية موقعها. وبهذه الطريقة يصبح في مقدور الإنسان امتلاك مواهب خاصة ورؤية كل شيء والمشي بحرية جيئة وذهاباً وبدون الاضطرار إلى الالتفات (لم يفسر الدليل كلمة مواهب خاصة ولم نسأله). وأكثر من ذلك كله. فالشرط المطلوب، هو أن يمضي الذي ستجرى له العملية ما لا يقل عن عشر سنوات بدون أنف. وكتحصيل حاصل، العملية لا يتمتع بها الذين يحملون أنوفاً طويلة. يوجد في المدينة من تتوفر لديه هذه الشروط كلها. إنها المدينة المقتولة. الأخضر واليابس فيها ينموان جنبا إلى جنب. حالة صعبة، وفيها استحالة شبه مخيفة.

هه. نسيت. عفواً لم يبق لي عقل قادر على التفكير بشكل طبيعي. نسيت أن أقول لكم إن التصوير والكتابة على القصاصات ممنوعان.



التسجيل يتم بشكل آلي ولا علاقة لمادتي الرمادية بالورقة والقلم. مرة أخرى نسيت أن أذكركم بتفصيل صغير يخص العملية. تضاف إلى العيون التي تغير من أمكنتها، أجهزة خاصة قادرة على إرسال واختزان أشعة ذرية بإمكانها كشف ما ينام تحت آلاف الكيلومترات داخل الأرض. ثم تضاف لها عدسة شفافة واقية من الأتربة والحشرات والغيوم. ولهذا فهم حين ينظرون إليك تشعر بدوار خاص وبألم في صدرك. والأكثر من هذا كله، تعرفهم جيداً من عيونهم الغامضة التي تخترق جلدك، فقلبك، فعظامك. عند إجراء العملية، لا يكبل الناس مثلما رأينا في العملية التجميلية للأنوف. يدخلون رؤوسهم بمحض إرادتهم في جهاز زجاجي مشبع بالأتربة النادرة. وتشد الرقبة بعدة مقابض تمنع الرأس من الحركة الحرة. يأتي الحكيم الذي لا تظهر إلا عيونه من لباسه الأسود. على فكرة ألبسة الأطباء والمعاونين والفنيين كلها سوداء. يخرج من حقيبته جهازاً يشبه مثقباً للحيطان، ذا ضغط عال ثم يدفع بقوة هائلة بإبرة المثقب وسط الجبهة ولا يتوقف إلا إذا خرجت الإبرة من قفا الرأس.

السيئ في العملية أنها تورث الغثيان وحالة إقياء خاصة. يمتزج الدم بالسائل المخاطي الأصفر وببقايا المخ الذي يبقى جزء كبير منه عالقاً بإبرة المثقب مع عظام الرأس المفتتة التي تنسدل على الوجه مخلفة وراءها حالة من الخوف والذعر في نفسية المتفرج.

العملية بالنسبة إلى الدليل عادية. لم تحرك شعرة في جسمه بينما كانت أمعائي وقلبي ومعدتي تتألم وتحدث أصواتاً وتمزقات. بعد هذه العملية يتم نزع العينين بمصاصة بلاستيكية وببساطة كبيرة جداً. ثم تفحص بدقة. في حالة صلاحيتها تثبت في الثقبين اللذين خلفتهما إبرة المثقب وتحشى محاجر العيون الأصلية بمادة ورقية لزجة تشبه بشرة الإنسان، تجفف بسرعة. ربما في كسور الثانية. وبعدما تقرأ بعض



التعليمات على المستفيد من العملية ينزلق من بوابة الطابق الثاني إلى الشارع وكأن شيئاً لم يكن. الغريب في العملية، أن هذه العيون لا ترى إلا في حدود ما تتلقاه من تعليمات صارمة. والتعليمات تختلف من شخص لآخر، بحسب الزاوية التي يرسل إليها في المدينة ليتحول إلى جرذ بعينين زجاجيتين.

ملاحظة يجب أن تعرفوها. فأثناء قياس المدقق مسافة الجبهة والنقطة الوسطية التي يجب أن توضع فيها العين، حدث أن ارتكب خطأ. القياس جاء ناقصاً ملمتراً واحداً أو أقل بقليل. حاول المختص أن يصحح الخطأ بواسطة العقول المعدنية الموضوعة تحت تصرفه ولكنه لم يستطع. فقد أرسلت كلها إشارات حمراء وبدأت ترسل دخاناً كثيفاً. فتح الحكيم الدرج بإتقان كبير. رأيته. أقسم أني رأيت شيئاً يشبه الدم يسيل داخل عينيه الزرقاوين. أخرج ساطورا قديما ونزل على الرأس. قطعه عند الصدر تماماً ثم هشمه إلى قسمين. والغريب في الأمر أن الدم لم يسل بل صعدت أدخنة كثيفة السواد في شكل دائري، خرجت من ثقب في أعلى الحائط. بينما تعجنت الجثة وسقطت في وسط البساط المتحرك الذي قادها إلى الشاحنة الضخمة الرابضة عند مدخل المستشفى، لتحرق فيما بعد في المزبلة الكبرى، على أطراف المدينة. داخل هذا الجهاز الضخم تشعر كأن كل العيون مصوبة نحوك كالبنادق، وتحس في الوقت نفسه أن لا أحد يعيرك انتباهاً خاصاً.

جناح تغيير الآذان المجاور، لم يثرني كثيراً. العملية بسيطة جدا مثل الزائدة الدودية. المرشحون للعملية يشترون الآذان من خارج المستشفى، من أحد المحلات الأجنبية في المدينة، ولا يأتون إلا لتركيبها. آذان طويلة جدا صنعت من البلاستيك المقوى في شكل يقترب إلى حد بعيد



من أذني الحمار ولكن بدون شعر وقد روعيت في صناعتها كل الخصائص الضرورية لالتقاط الصوت نقياً جداً.

حين صعدنا إلى الجناح الثالث الخاص بتغيير الأمخاخ، لم يتم ذلك عن طريق المصعد ولكن عن طريق شعاع أحمر ركبناه. أحسست في البداية بدوخة لكنها سرعان مازالت وعدت إلى وضعي الطبيعي. هنا تتم أدق العمليات وبأدق الأجهزة. أول ملاحظة يمكن تسجيلها هي أن الأمخاخ ليست مثل الأنوف والعيون والآذان. لا ترمى في الشاحنة إلا في أقصى درجات الخطأ الذي يحدث بشكل نادر جداً. في الحالات الطبيعية، عندما يقرر الحكماء نزعها، تعلب في صناديق زجاجية معشقة بالذهب والبلاتين بعد أن توضع وسط القطن وباهتمام كبير مصحوب ببرودة أعصاب خاصة ثم ترسل للبحث في تركيباتها النادرة في أنابيب جهزت لهذا الغرض، مرتبطة مباشرة بنفق سري بالمستشفى. يقولون إن الأمخاخ ترسل للبحث فقط وتعاد من جديد. لكن الذين يعرفون المدنية جيداً يؤكدون أنه ولا مخ من الأمخاخ التي أرسلت أعيد إلى المستشفى.

شعرت بخلل ما في الدعاية المجانية التي كان الدليل يتعبنا بها. حاولت أن أزعجه ببعض الأسئلة لكني قبل أن أفتح فمي قرأت في عينيه **ممنوع توجيه الأسئلة في هذا الجناح**. للدليل وحده الحق في التوضيح متى قرأ العجز في عيون الزوار. ملاحظة أخرى قمت بتسجيلها في دماغي قبل أن تفلت مني وهي أنه لا توجد صفوف كبيرة في هذا الجناح أقلية قليلة هي التي كان المستشفى يقبل تبني عملياتها.

من سوء حظي أني شاهدت فقط نصف العملية ولم أعد أتذكر بعدها ماذا وقع. بدا لي أن التيار انقطع. لم أعد أرى شيئاً. أقول لم أعد أرى شيئاً لأن ساسافندا تقول إن التيار لم ينقطع أبداً. ربما تعطل مخي عن العمل في ثانية من الثواني كانت هي الفاصل بين العالم الداخلي ومتاعب



العالم الخارجي. قبل أن تنزل أياد غامضة وتغمض عيني وأجد نفسي أتنفس هواء الشارع البارد، شاهدت الحكيم الذي يرتدي السواد هو بدوره يضغط على زر لا لون له، لتحريك المنشار الكهربائي المسنن، يفتح الرأس المثبت بقطعتين حديديتين متوازيتين، في شكل نصف دائري. أذكركم قبل أن أنسى فأنا آفتي النسيان. يفحصون الرؤوس بالأشعة الذرية الملونة قبل أن يقدموا على أية عملية. وكثيراً ما يرفضون الإقدام عليها إذا لم تتوفر الشروط الضرورية. وفي هذه الحالة فقط، لا يعيدون المرفوض إلى بيته أو إلى الشارع لدقائق وتفاصيل لا يعرفها إلا هم. يدخلونه في عمق مطحنة كبيرة. لا يصرخ. يخلط مع ماء لزج يحتوي على بعض الحوامض ويصب داخل بالوعة خاصة مصنوعة من نوع مقاوم من الحديد، تنتهي بدورها عند شاحنة خاصة.

هـ. عندما ينتهي الحكيم من النشر. يخرج المخ بدقة كبيرة يستحيل وصفها. يغسله من بقع الدم ويحاول أن يحتفظ بالقشرة الرمادية سليمة. يوضع في قطن ثم في صندوق زجاجي يجتذبه هواؤه نحو قبو مظلم، ومن هناك يرحل إلى المطار في طائرة خاصة.

وقبل أن يغلق الرأس بشكل نهائي، توضع بداخله قطعة جبس تشبه المخ، مجهزة بكل وسائل الالتقاط الدقيقة. العملية على دقتها لا تستغرق وقتا طويلاً. وتركب ضابطة إنذار ذات اتصال موجي بالجهاز، لا يعرف مكانها إلا المقصود بالعملية، فهي تمكنه من الاتصال بالمستشفى والعكس صحيح في الحالات الضرورية. يقولون إن من يخضع للعملية ينسى ذاكرته وأصدقاءه وأهله. ساسافندا أكدت لي ذلك. فقد شاهدت كل شيء بالعين المجردة بينما كنت في تلك الثانية أمارس غيابا إجباريا.

أعود لأذكركم بأني لم أشاهد العملية كاملة لأن التيار انقطع في



كسور الثانية، أو على الأقل هكذا بدا لي. حين فتحت عيني، وجدت نفسي في الشارع الممتد من **دوش الهناء** حتى النصب التذكاري.

كانت الأرياح تكنس الروائح القديمة. تذكرت الحرب. ورأيت المدينة تحتضر وتموت تحت وقع ظلمة قاسية كانت تكبر في الأفق مع الكسوف القادم من بعيد. الآبار تجف والناس يتقاتلون على قطرة ماء. نصفهم مات عطشاً وهو يحاول أن يشرب من مياه البحر. كانت المدينة الميتة تكنس كل راياتها وتبحث لوجه الله، عن خير يستعمرها لمدة سنوات أخر.

الحرب تدخل كل البيوت. تشعل المدينة وتحرق كل كنوزها وتفرخ أحزاناً وودياناً من الدم والهم.

قالت ساسافندا مع ابتسامة صفراء:

ـ لقد رأينا. كل شيء. حتى أدق التفاصيل.

ـ لكني لم أر العملية كاملة.

ـ أغمضوا عينيك لأن تفكيرك السيئ أتعبهم.

ـ أوف؟ Tu fabules trop.

قالت بحدة ويقين:

ـ المستشفى قادر على تغيير كل شيء. الحضارة يا الحسين. من هنا لسنة ألفين سيتوصلون إلى تغيير الإنسان بكامله وتبديله بإنسان مجهز في المخابر.

ـ وهكذا لا تصبح هناك ضرورة للتزاوج والإنجاب. سيبدلون حتى وجه المدينة ويحولونه وقتها إلى واجهة من الإعلانات للشركات متعددة الجنسيات وينشئون لنا شكلاً آخر لا هو مدينة ولا هو قرية.

ـ لن تجبر الأمهات على الحمل تسعة أشهر. وستزول عقدة الذنب التي تلازمنا طوال العمر.



حاولت أن أتذكر ماذا وقع والتيار منقطع لكنني لم أتوصل إلى شيء يذكر. اندهشت. شعرت كأنهم سلطوا علي شعاعاً أفقدني ذاكرتي.

ـ ٢ ـ

أقول لكم بصراحة إني لم أصدق كلام ساسافندا الأخير. يستحيل أن يحدث ما قالته لي ونحن نقطع الشارع الذي كانت تسكنه. هل تردّت الدنيا إلى هذا الحد؟ الحميد يسقط بهذه البساطة. الحميد شعلة المدينة. تقسم ساسافندا برأس المهدي أنها عرفته من عينيه وهم يغيرون مخه ويرسلونه بعيداً عن طريق القبو الموصل إلى المطار ويتحول بين لحظة ولحظة إلى أبله. فمه مفتوح عن آخره. يمشي بحسب ما تمليه عليه المدينة. كان شعلة، ناراً من التفكير. فقد رأته ساسافندا من وراء الزجاج المشبع بالذهب والبلاتين يركب له مخ من الجبس بأدق الآلات المغرقة في الصغر.

لم أصدق.

لكني في خلوة ما، داخل شرايين المدينة، التقيت بالحميد. لم يعرفني. كان صديقاً وفياً. حزنا مع بعضنا وأكلنا أملاح منازلنا وبيوتنا القصديرية. وجهه لم يعد يوحي بالذكاء أبداً. كان مثل الغبي، يمشي بصعوبة، تصفعه الأرياح الساخنة. عيناه لا تستقران على أي لون أو مكّان.

وأنا جالس في البيت. شعرت أني فقدت كل الأشياء الجميلة التي لم تستطع المدينة طوال أكثر من عقدين اغتصابها مني. يا الله. هل وصلت المدينة إلى خريفها مبكراً.

أين أنت يا الحسين وأين المستشفى؟

إنه المؤسسة المخيفة القائمة التي ظهرت بشموخ وفجاءة. ستصلنا



هذه الآلات الضخمة وستستفزنا في تفاصيلنا الجميلة. انتابتني في لحظة ما، وأنا أدخل إلى المرحاض، حالة خوف غير مبررة. رأيت عيني الحميد تتبعانني حتى الداخل، وحين أعود إلى الفراش تنامان بقربي.

البريق الفسفوري مخيف.

ساسافندا كانت صامتة، تتأمل عيني هي تتلوى ألما من سقوط الحميد الفجائي. لا أدري إذا كانت حقيقة صادقة.

- مسكين. لكن من يستطيع أن يحاسبه في جسده. يا أخي من حقه. الدنيا قاسية. فهو لا يريد أن ينطح حائطاً حديدياً.

- وأنا أريد طبعا نطح هذا الحائط. تفكيرك يخيفني يا ساسافندا.

- يا الحسين. أرجوك. إني أتخيل الآن أشياء فظيعة.

- مثلا.

- أرجوك. لا أريد أن أفقدك. خذ وأعط مثل جميع الناس.

- أخذوا مني كل شيء ولم يعطوني إلا الدمار.

- أطلب ما تريد وسأساعدك للحصول عليه.

- لا أريد شيئاً. يردون لي والدي الذي يتَّمني على الفراغ. ولا أطالبهم بأي تعويض.

- أنت فعلا مجنون. اترك قضية هذا التحقيق وتفرغ لشؤونك الخاصة. نحن المستقبل. نحن أولى من كل خرافاتك هذه. المهدي شبع موتاً وأنت تقتلني وتقتل نفسك.

- لم يعد شيء يهمني في هذه المدينة غير هذا التحقيق.

كنت منزعجا. عينا الحميد تستفزان ما تبقى من براءتي وعفويتي.

- أنت تركب رأسك. وأنا لم أعد قادرة على تحمل هذه الحالة.

- حرة.

- أعرف. هذه الكلمة تتقن قولها.



لقد انكسر الحميد في دماغي كالشعاع الميت.

أصرت ساسافندا بدون فائدة لأني كنت قد سرجت رأسي وركبته حتى الموت. مسيردي وراسه شاوي.

في خلوتي مع تفاصيل ذاكرتي، لم أكن أتصور أن قضية المهدي ستوصلني إلى كل هذه المتاعب وهذه الآلام. ربما لو كنت أعرف ما سيحدث لي من وراء هذه الوجوه، كنت رفضت من البداية الخوض في هذا البحث. لكن ذلك كله لم يحدث أبداً.

المدينة لا تنسى أخطاءنا تجاهها.

وحين تخطئ هي، وما أكثر ظلمها، لا تسمح لنا حتى بسؤالها. عيونها قاسية مثل أحجار الوديان الزرقاء.

ـ آه يا ساسافندا. مشيت في هذا الطريق ومصمم على عبوره.

ـ يا الحسين كلامك يتعبني. يتعبني. يتعبني.

وضعت رأسها بين رجليها. حاولت أن تبكي بمشقة، لكن ولا دمعة سقطت على وجهها الذي احمر بالندب. كل شيء فيها تبدل في لحظة الحزن التي حاولت مقاومتها مع خيبة الأمل. اقتربت من فراشها. كانت باردة كقطعة ثلج. ومع ذلك نمنا طويلاً. لم أشعر في الواقع برغبة جنسية كبيرة على الرغم من أني شعرت باحتراق جسدها تحت عيوني.

غمغمت:

ـ أنت تهملني.

ـ يبدو أننا لم نخلق لبعضنا.

لم أتجاوب معها كثيراً لأني كنت منهمكاً في التفكير في وجه الحميد الذي تآكل وراء أسوار جناح تغيير الأدمغة والمهدي والأشياء الأخرى التي يصعب تحديدها.

كانت تلهث. نزلت من على صدرها مهزوماً. هذه المرة تعذبت أكثر من المرات الماضية وتعذبت معي. وجهها يبعدني عن جسدها. لم أستطع التوحد بها على الرغم من أني لم أكن عاجزاً على ممارسة الحالة



مع مريم التي سرقتها مني المدينة والسيارة والضباب الذي طمس فجأة عيون المدينة.

صمتت. كانت تحترق. وضعت يدها بين فخذيها. أنَّت وتألمت. احمرت عيناها وارتجفت كقطعة قماش في مهب الريح. اصفرت. ثم استراحت وتراخت.

ـ أنت مريض.

لم أقل شيئاً لأن الألم الذي كان بداخلي كان يأكلني بسرعة. كان من الصعب علي التركيز على كلامها. اتهمتني في ذلك المساء البارد بممارسة العادة السرية بدل النوم معها في الفراش نفسه. ضحكت. ضحكت كثيراً، لكن الضحكة احترقت بسرعة القشة واختلطت بعواء ساسافندا والرعد وصوت السكير الذي دخل من النافذة المكسورة كالبرق ودمدمة الوجوه الغامضة التي قسمت الباب قسمين غير متساويين.

ـ قم يا وحد الفرخ. اليوم قيامتك يا الشماتة.

أخرجوني من الفراش عارياً كقط صغير أخذه الأطفال من ذيله. بدأت أتحرك في أياديهم. جرذ صغير فوجئ في عش من القش لم يبرز زغبه بعد.

ـ عندك ثانية واحدة للبس كسوتك القذرة، وبعدها. . .

لم يكن لدي الوقت الكافي للتفكير ولا للنظر إلى وجوههم المعجنة انزلقت إلى المرحاض. تضاحكوا طويلاً من مؤخرتي العارية، بانت أسنانهم الصفراء المزعجة. لملمت صورة المهدي في طريقي. وضعتها تحت القميص بعدما ثبت بشكل جيد حزام السروال.

حاولت أن أحدد موقعي وزماني وأعيد ترتيب ذاكرتي. لكن عبثاً. لم أستطع فعل أي شيء يذكر. كنت أعجز من أن أتوصل إلى تحديد تفكيري ووضع إطار لذاكرتي ووعيي.

ماذا وقع لهذه المدينة حتى تجن بهذه السرعة؟

وقبل أن أفكر في شيء ملموس. ضربوا على ظهري بقوة.



ـ هز روحك. ما عندناش وقت نضيعه.

في البداية فكرت أن وجودهم عندي بألبستهم الغامضة يمكن أن يكون قد حدث عن طريق المصادفة، لكن الآن تأكدت من أن العملية مدروسة. إنهم يعرفون اسم أبي وكل محيطي.

ساسافندا لم تفاجأ. أو على الأقل هكذا تصورت. لم تؤمر بالثانية التي أمرت بها. كانت تلبس ثيابها بهدوء. هدوء كبير أثار بداوتي. لم تستح من عريها. هدوؤها البارد يعذبني في داخلي. لبست ثيابها. أصبح جسمها أكثر إغراء. لم ينتبهوا لها نهائياً. عيونهم ظلت مثبتة على حركاتي وعلى جنباتهم حيث تنام مسدسات باردة. حين انتهيت أمرني كبيرهم بالخروج. لم يمسوا ساسافندا، بينما دفعت أنا إلى الخارج بقوة. سبقني السكير؟ يا الله؟ لا. لا. أعدت النظر مرة أخرى. والله هو. رأيت عيناً في قفاه وحين التفت نحوي بابتسامة الخبيثة شاهدت عينه الثانية التي وضعت في وسط الجبهة. مرة أخرى رفضت أن أصدق ما رأته عيناي.

خرجنا صفاً واحداً. كانت ساسافندا آخر شخص يخرج بعد أن أغلقت الباب بهدوء وببرودة دم. عند باب النزل، لم أجد السكير الأعور الذي ألفت وجهه والذي يحمل عينين غير متوازنتين. كان قد غير مكانه إلى زاوية أخرى في المدينة، لكن زبالاً كان يدفع عربة قديمة حط رحاله كالمسافر المتعب. وقف عند الباب وأخذ يتأمل البنايات المحيطة بالنزل واحدة واحدة وتحاشى أن يرى وجوهنا التي غابت ملامحها وسط ظلام المدينة.

رفعت رأسي نحو بيتي. لم أعد أدري ماذا رأيت لكنني أتذكر جيداً أن ساسافندا نسيت الضوء مشتعلاً والفراش مبعثراً.



الفصل الثالث

انهيار المدينة




Arab_Books

أقبية المدينة المغلقة

لا شيء سوى الظلام القاتم.

قلت لك، حاول أن تتذكر. حاول.

هذا المخ ممتلئ حد الانفجار والانشطار إلى شظايا. صار من الصعب علي أن أحرك رأسي كما أشتهي. لم أعد أتذكر شيئاً. صدقوني أني لم أتذكر شيئاً. لا كيف جئت إلى هذا المكان ولا كيف قضيت الليلة. الوقت يمشي بسرعة أكبر من قدرتي على استيعابه. حتى وجه مريم الهائم دوماً، الذي يحدث أن يملأ خوائي لحظات الانهيار، قد غاب وسط تفاصيل الفرحة المقتولة وغصت أنا حتى العظم في نار المفاجآت التي لا ترحم أبداً.

أنفاسي الآن مكتومة. أتهوّى بصعوبة كبيرة. أشعر بالعرق يسح على وجهي على الرغم من أني لا ألمسه. وسط هذا القبو المظلم يخاف المرء أن يفقد ما تبقى من أنفاسه المتعبة.

يا الحسين! هل بدأ اليأس يدخل عظامك وأنت الذي طالما تغنيت بضرورة المقاومة. أيها الشمس التي سودتها حرائق المدينة، ذاكرتك ما تزال حية. حياتها هي التي تورثك كل هذا العذاب. عندما تموت هي ستموت أنت كذلك. أن يتألم المرء يا الحسين، معناه أنه ما تزال لديه الإمكانية العميقة لممارسة طقوس الحياة على ذوقه. حاول أن تستعيد ذاكرتك. فما يزال بينك وبين المدينة متسع من الوقت للحوار والجدل.



صحيح أنه لم تبق إلا نوافذ صغيرة ومكسورة ولكن لديك الإمكانية للانزلاق منها. السكير الأعور الذي خضعت عيناه لعملية تحويل، ليس أفضل منك قطعاً. عليك أن تنتزع المدينة من بين أنيابه قبل أن يطحنها بأسنانه الخشبية المسوسة.

إنها المرة الثالثة التي يقع لك فيها مثل هذا الموقف الذي تحسن به بقوة ولكنك لا تفهمه. في المرة الأولى أخذوك وكنت متمترساً وسط الشارع تظن المدينة ملكك مثل البلدة تماماً. كانت أولى المحاولات التي تبذلها لخلق علاقة صحية بينك وبين الأزقة التي كنت تقطنها والتي أعطيتها أكثر من نصف عمرك. لكنك فشلت. فشلت فشلاً ذريعاً واضطررت إلى قطع كل معابر المدينة ليلاً والذعر يكسر عظام صدرك. خوف المدينة كان أقوى من ذكريات الطفولة التي جرجرتها وراءك من البلدة المدسوسة بهدوء بين جبلين شامخين وساحل البحر. ليست مستعدة مثل مريم المعلقة في القلب لسماع خرافاتك. أبداً. أبداً. وقتها ضيق. فردة حذاء. ستقول أيها بأنك كنت تجد لذة كبيرة وأنت ترعى الأبقار. وأنك دخلت الكتاب صغيراً وكنت تستيقظ في ساعة مبكرة جداً وتضطر إلى قطع سبعة كيلومترات مشياً على الأقدام حتى تصل إلى الجامع وبرودة الشتاء وأمطاره تأكل ما تبقى من جسمك الهزيل. تمحو بالصلصال الأبيض ألواح الخشب العتيق التي خطت عليها الكلمات القرآنية، وتوهم فقيه القرية بأنك حفظت كل شيء وأنت لم تفعل غير ذكر أمك وهي تئن جوعاً تحت قسوة الأمطار الشتوية. آه يا عيشه لمنورة كنت سيدة الدنيا. هل ستسمعك المدينة يا بن المهدي، إذا قلت لها إنك دخلت المدرسة البلدية القديمة التي خلفها الاستعمار ويوم نجحت في الإعدادية رحت تقبل حيطان الولي الذي يحفظ البلدة من العين ومن الزلازل التي بدأت الحيوانات الأليفة تشم رائحتها من بعد بعيد. ستقول



أكثر من هذا كله. إنك كنت تلتصق في عباءة جدتك الفضفاضة كل يوم أحد. وحين تتعب تضعك في عين الخرج وتضع في العين المقابلة حجرة بوزنك أو أكثر بقليل وتعبر بك البلدة حتى تأخذك إغفاءة النوم. واحميدا ولد الجيران، الذي مزقته شظية لغم. يومها لم تبك كثيراً ولكنك شعرت كقط معزول ووحيد أنك أنت كذلك أصبحت مهددا بالموت. بعد أيام حين عثرت على نفسك وحيداً أمام الألعاب التي كنت تصنعها من الأسلاك الشائكة وعلب السردين والحليب التي كنت تصطادها من مزابل الأغنياء. بكيت. بكيت حتى سمعتك حقول الألغام التي حولتها إلى لعب والتي خلفها الاستعمار في هذه المنطقة الحدودية. تمنيت لو تعود إلى حجر أمك، صغيراً بحجم النمل أو إلى بطنها ولن تنزل إلا بشروطك. نمت في ذلك المساء باكراً في فراشك القديم. أمك لم تسألك لأنها كانت تفكر في عشائك وأنت لم تقل لها إنك فوجئت بنفسك وحيداً أمام كومة الأسلاك وعلب السردين والحليب الفارغة.

هل تعلم المدينة كل هذه التفاصيل؟

لا يا الحسين، هذه المدينة التي أحببتها، لم تكن مستعدة أبداً لسماع هذياناتك. كنت تتذكر يومها، متمترساً وسط الطريق، وتظن أن العالم كله ملكك وملك أصدقائك مثلما في البلدة المنسية، ولم تستيقظ إلا عندما وقعت الزرواطة على رأسك بقوة مصحوبة بكلمة الشرطة المعتادة.

ـ تحرك. زل من الطريق الله يزول عمرك.

أخذك من يدك. لم تقل شيئاً، فقد كان ضخماً كفيل. أركبوك وعلى أطراف المدينة سرحوك. شعرت وأنت تحاول أن تجد الطريق الموصل إلى بيتك أن ذاكرتك هربت منك.

حاولت. لكنك فشلت ولم تعد تعرف شيئاً.

وفي المساء شعرت مرة أخرى بالوحدة وانتابك الإحساس القديم، حين ضيعت احميدا بين أتربة وشظايا الألغام.



الصعوبة، كل الصعوبة هي كيفية فهم ما وقع لي وربما وقع للكثيرين من قبلي وسيقع الذين بعدي. فهم كثرة. أنا لم أكن أتصور قبل هذا الزمن أن التحقيقات عن الشهداء يمكن أن تكلفني ذاكرتي وملامح وجهي.

علي أن أشغل مادتي الرمادية. هذه القشرة الرهيفة التي لم تنزع حتى الآن. وعلي كذلك أن أجهد نفسي لحماية هذا الأنف الذي أصبح جاهزا للقطف وهذا المخ الذي تحول إلى حجرة جبس.

أصبحت أشك في أتفه الأشياء. حتى نوافذ بيتي. الباب. الفراش الذي تركته ورائي مبعثراً. هه! الحمد لله، بدأت أتذكر. الضوء الذي بقي مشتعلاً. أهم شيء قمت به بكشل لاشعوري، وأنا أهم بمغادرة البيت، هو أني أخذت صورة المهدي بن محمد. وضعته تحت القميص بعد أن شددت حزام السروال. الذي استغربت له هو وضع ساسافندا. أعذروني إذا كررت كلاماً سبق أن قيل. فأنا أريد أن أتحقق من ذاكرتي. لم تبد على وجهها أية مفاجأة وكأنها كانت تترقب شيئاً مثل هذا. أقسم أنا الحسين بن مهدي بن محمد أني رأيت عورتها ذات اللون القمحي، لكني لم أشعر بأية شهوة تجاهها. كنت منهمكا مع جسدي العاري بدوره. لم يزعجوها مثلما أزعجوني.

يا لطيف! هذه الحفرة متعبة بشكل يضيع العقل. السوس يأكل عظمي المكسور. يبدو أنهم ضربوني وإلا ما مبرر هذا الألم في كامل جسمي. هه وماذا بعد؟

حين وقفت أمام رئيس المخفر. شعرت بفرحة قديمة تعود لي في هذا الليل. كنت أعرفه. وعدته بإعادة بعث زاوية **شيء من الأرشيف**، وإزالة الزاوية المقحمة **تعال معي**. سبق أن التقينا عن طريق الصدفة. لم أبذل جهداً كبيراً في تذكره. تذكر وجهي قبل أن أصافحه ويسحب يده قبل أن تلمس يدي.



عين السكير الزجاجية تستفزني. مع ذلك، شعرت بفرحة داخلية تنط. هذا لم يمنعني من التساؤل: ترى ماذا سيكتب عني هذه المرة. حتماً لن يكرر التهمة الأخلاقية نفسها. تحولت الفرحة إلى فرحة المحكوم عليه بالإعدام يفاجأ بعد أن يقطع رأسه برجل يرفع يده ويقدم للقضاة أوراق براءته.

ـ السي الحسين. محمد الهمّ.

قالها رئيس المخفر مع ابتسامة تبعثرت بين أسنانه التي لم أرتح لها منذ أول جلسة. كنت واقفاً. أشعر بالبرد والعري. لكن ساسافندا جلست بدون حتى أن يأمرها بالجلوس على الكرسي الخلفي الوثير، المخصص عادة للضيوف الكبار. كانت تتحرك كمن يعرف المكان جيداً. كم تمنيت، لحظة الإحساس بالغبن، أن أكشف الأسرار التي بعينيها. فقد بدت لي غامضة أكثر من أي زمن مضى. وحز في خاطري أكثر جذب الكوميسير لها إلى بيت صغير وبقيا قرابة نصف الساعة ثم عادا لتجلس هي وأبقى أنا في وضعية المتهم بارتكاب المعصية الكبرى.

ـ الحسين. قلت لك في المرة الماضية أنك تلعب بالنار. الغ فكرة التحقيق وسأتدبر البقية مع الأجهزة.

ـ وطي صوتك. المهدي في صدري ويسمعك.

انكسرت على وجهها الكثير من التفاصيل الغامضة.

ـ يبدو أن الأمور وصلت إلى نقطة اللارجوع. الجنون دار فيك حالة. لم تبق لك ذرة من العقل.

التفتت نحو الخارج، كان الكوميسير في البهو يتحدث مع أحد أصدقائه. استغلت الفرصة أكثر لمواصلة الحديث.

ـ قلت لك أنك مازلت صغيراً عن ممارسة هذه اللعبة القذرة، لكنك حين تركب رأسك لا تسمع إلا لنفسك. النفس أمارة بالسوء يا الحسين. استيقظ قبل فوات الأوان يرحم والديك.



كلامها هزني في الأعماق. بدأت أشعر بقليل من الخوف ولكن كان علي أن أحارب لحظة التردد هذه. أقسم برأسك يا المهدي أني خفت. ما هي التهمة التي سيسجلونها هذه المرة؟ تذكرت كلام المهدي: لو كنت مكانك لرفضت التوقيع. وأنا وقعت. الكوميسير أو الريس كما يسميه أصدقاؤه المقربون، هذه المرة لم يكن بشوشاً ولم يأمرني حتى بالجلوس. كنت أكاد أسقط على ركبتي كالجمل لحظة الذبح. تمنيت أن لا يجرح شعوري أمام ساسافندا. فهي مهما يكن صديقتي. تحبني وأقدرها بالرغم من أنني أشعر أحياناً أننا لم نخلق لبعضنا البعض. مع ذلك كله، تصورت أنه سيطلق سراحي مثل المرة الماضية ولكنه لم يفعل. شعرت أني أكذب على نفسي. كل شيء فيه كان يوحي بأن دماراً كبيراً سيقع. كانت رجلاي حافيتين. البرد والإسمنت. وجهي بدأ يفقد ما تبقى من فرحته.

فكرت بالجلوس من تلقاء نفسي ولكني تراجعت. ماذا لو جلست وأمرني بالوقوف؟ كيف ستكون وضعيتي؟ ستكون الهزيمة أمام ساسافندا مزدوجة.

نظرت إلى وجه ساسافندا التي لم تعد تصر على تسميتها شهرزاد، كانت عيناها باردتين مثل هذا الرجل تماماً. وقبل أن أتحسس تفاصيل وجهها انفتح الباب، دخل رجلٌ أصلع. سمنتهِ مقرفة. يجر بطناً ثقيلاً. عندما رأته ساسافندا قامت ببشاشة كبيرة. عانقته. تأبطها. لم تقاوم بل رأيتها تبتسم ثم خرجا. الكلمة الوحيدة التي قالتها ما تزال تطن في رأسي واستجاب لها الكوميسير كالكلب الأليف بذيله.

ـ سأعود يا ريس.

لم يحدث شيء من الأشياء التي تمنيت حدوثها. شعرت بأني بدأت أفقد ساسافندا. بقيت واقفا بينما لحست عينا الكوميسير جسدها بكامله قبل أن تخرج.

ـ ننتظرك يا شهرزاد، ما تنساييناش.



ـ وشكون ينسى الريس؟

غاظني أنهم كانوا يعرفون حتى اسمها الذي لا يعرفه إلا أنا، أو على الأقل هكذا تصورت. فتح الملفات القديمة وأضاف إليها بعض الملاحظات وبعض الأوراق. أثارت انتباهي مسألة في غاية الدقة والأهمية. الورقة التي بين يديه، لم يلفها بسرعة وكأنه كان يريدني أن أعرف كل شيء. وقبل أن أصرخ بأعلى صوتي من هول المفاجأة، قال كعادته مع ابتسامة مصطنعة، ارتسمت من ذقنه حتى غزت كل وجهه.

ـ هه يا السي الحسين. العالم ليس نائماً مثلما تتصور. هذا هو التكليف بالمهمة الذي دخلت به المستشفى التجميلي.

ـ وماذا في الأمر؟

حاولت أن أفتعل هدوءاً انكسر على عيني المذعورتين.

ـ لا تتغابَ يا صديقي. أعرف أنك ذكي بالقدر الكافي. هذا يسمى تزويراً. ألم أقل أنك تلعب بالنار. ستحرق أصابعك يا الحسين إن لم تكن قد فعلت ذلك.

ـ لكن يا سيدي. كل شيء يبدو أنه يمشي على عكسه. أنت نفسك. . يا الله ما هذا؟ حتى أنت أيها الكوميسير الخاوي؟ أعدت التأمل في ملامح وجهه التي بدأت تغيب شيئاً فشيئاً. ماذا أقول؟ كيف لم أنتبه عندما دخلت إلى هذا المكان في المرة السابقة؟ انتابني ذعر حقيقي. مكان التزوير في وثيقة التكليف بالمهمة كبّر حتى أصبح المرء لا يحتاج إلى كبير ذكاء حتى يكتشف اللعبة. نسيت كل ذلك. عدت إلى وجه الكوميسير. خرجت الكلمة بدون وعي مني. كنت أرتعش وخائفاً.

ـ أين أنفك يا سيدي.

لست أدري أي جرأة دخلت فمي حتى استطعت قول هذه الكلمة.

لم يجبني.



ـ كشفوك يا الحسين. المدينة ليست نائمة كما تتصور.

هو إذن واحد من أهل المستشفى التجميلي. ضربت على رأسي أكثر من السابق لأني رأيت، عندما أحنى رأسه، خطوط تلحيم العظام. معنى ذلك أن المنشار الكهربائي مرّ على دماغه. عضضت على يدي حتى لا أصرخ. سمعت خرخشة تشبه خرخشة مذياع مثبت على موجة ضائعة. قبل أن يخدشني بعينيه، رأيته يدخل يده داخل فجوة في صدره لم أستطع تحديدها بالضبط ويتمتم بخوف.

ـ إنه عندنا. لا. لا. م م م. حضرنا له مكانا جيداً. لم يفعل شيئاً. يبدو أنه هادئ وغير مؤذ. م م م. سنسهر على تربيته يا سيدي.

ثم أخرج يده من صدره.

هذا هو الزر الذي قال عنه الدليل. لا يعرف إلا صاحبه المباشر. سجلت هذه الملاحظة على أمل تسجيلها في قصاصة ورقية عند العودة إلى البيت.

ملفي بكامله كان على طاولته.

الآن غبنك يشبه غبن الحسين بن علي. أين فرحتك الكبرى التي منذ أن وجدت على وجه هذه الكرة الأرضية وأنت تتمنى حدوثها؟ أين هي هذه الهزة التي ترجع الناس إلى جادة الصواب؟

كنت تنشد في أذن مريم مثلما ينشد الليل للمدينة.

يا مريم يا طفيله. ضفايرك تكتف الخيالة.

وعيونك شعلة تطيح الفرسان.

مريم! أخذوك، ويأخذون الآن ما تبقى منك من السعادات الصغيرة.

لغة رئيس المخفر أصبحت تدعو فعلاً إلى الخوف.

ـ صورت نسخاً من ملفك وأرسلت به إلى كل الجهات المختصة بما فيها المستشفى لدراسة أهدافك المدسوسة.



ـ لكن المسألة يا سيدي لا تستحق كل هذا العناء.

ـ هذا ما تتصوره أنت. لاشيء يغيب عنا في هذه المدينة. حذرناك ولم تستفد من الفرصة. راعيناك لأنك صديق امرأة نقدرها ولا تستحقها.

ـ لا أتذكر أنكم حذرتموني.

ـ في المرة الماضية كنت أعرف جيداً أنك كنت قادماً من مهمة في البلديات البعيدة لفائدة رجل يزورك ليلاً سمى نفسه تمويها المهدي بن محمد. استقلت من الجريدة، وزاويتك حولتها الجريدة لأنها أصبحت تمس أمن البلاد. ماذا تريد أكثر من هذا لتصدق بأننا لا ننام.

لم أقل شيئاً ولكني كنت أتأمل عظام رأسه التي فتحت وأعيد لحمها. آه يا سيدي الكوميسير لو قلت لك إن المهدي حقيقة وليس تمويهاً لن تصدقني ستلصق بي تهمة الجنون أنت بدورك. أنت أعجز عن فهم ما يقع بعيداً عن المدينة. لا يمكنك يا سيدي أن تفهم إلا ما يحددونه لك من المستشفى. ماعداه، عيونك لا تراه وآذانك لا تسمع به أبداً.

كابوسك أيتها المدينة يوجعني حتى القلب.

رجع الكوميسير أو الريس كما يسميه الأقربون، إلى الملف وأخذ يورقه صفحة، صفحة. هنا. آه. لا. ليست هنا. هنا. لا كذلك ليس هنا..هه. هو ذا الذي كان يبحث عنه. فجأة انفرجت عيناه عن آخرهما بشكل مدهش. ماذا وراء هذه الخزرة يا سيدي الريس؟

ـ كنت معك في المرة الماضية لكن الآن؟ كبرتها يا صاحبي.

ـ أنت تتناقض مع نفسك يا سيدي. قبل لحظة قلت إنك كنت تعرف كل التفاصيل التي خبأتها عنك.

ـ ومع ذلك. كنت أحاول في خلوتي مع نفسي أن أجد لك أعذاراً. أعرف أنك طردت من عملك أو استقلت. لا يهم. المهم أنك لم تعد تعمل بالجريدة ولا تزورها إلا لرؤية الأرشيف. مهنتك القديمة. المسألة



حتى هذا الحد ليست خطيرة أبداً، لكن أن تعمق فهذا هو الأخطر الذي لا يرحم عليه المشرفون.

ـ لم أفهمك جيداً. المشرفون أو القانون.

ـ المشرفون على القانون. سيقيئونك الدم. عليك أن تعرف من الآن الشخصية التي تعمل لصالحها. ليست المهدي بن محمد طبعاً، لأن لا أحد قادر على تصديقك حتى ولو كنت محقاً. كلهم يعرفون أن المهدي، أكلت عظامه أتربة القبور وأحجاره أصبح عمرها أكثر من عشرين سنة.

وضعت رأسي بين يدي. يستحيل أن يكون العالم قد وصل إلى هذا الحد من الرداءة. يستحيل أن تخلع المدينة جلدها بشكل فجائي. ويستحيل أن أتحول بين يوم وليلة من جرذ كما يسمينا البوليس، إلى رجل خطير على أمن الدولة، يعمل لدوائر غير معروفة. أية دولة هاته التي تتهاوى بسبب رجل مهما كانت قدراته؟

من يسمع صيحتك يا الحسين المسكين ومن يختبر أسئلتك؟ ارفع رأسك بشموخ وصح حتى تنهض الدابة المتوحشة في البحر السابع الذي تلونت زرقة مائه بمادة حمراء يجزم حكماء المعرفة أنها دم.

ـ في هذه الحالة، أنت أعرف الناس يا سيدي بأني ذهبت لإتمام ملف المهدي وليس لشيء آخر.

ـ هذا لم يعد سراً. لكن لمصلحة من يا بن عيشة لمنورة؟ أنا على كل حال لا أجبرك على قول الحقيقة، لأن المسألة ليست من اختصاصي أبداً. جهز مقاومتك لغير هذا المكان. ادخر دموعك للأجهزة الدقيقة التي ستقيئك كل الأخبار التي بدماغك.

شعرت بالرجفة وبالبرودة القاسية تصعد من قدمي إلى رأسي وبالحرارة التي في قلبي تنزف كالجرح وتنزل لتخرج من أظافري.



تصوروا. لم أجرؤ على طلب إذن الجلوس على الرغم من حالة الانهيار التي انتابت كل جسدي. كنت تماماً، كقرد، انتهى من تأدية دوره في السيرك وسط الحيوانات الكثيرة ثم وقف ينتظر من سيده أن يأمره بالخروج. لكن سيده ظل منهمكاً في التمتع بأيدي المصفقين والمعجبين.

توقفت حركة الدم في جسمي. توقعت أني بعد لحظات سأتحول إلى شكل من أشكال النصب التذكارية سيئة الذكر في هذه القاعة التي أتمترس في وسطها.

كنت جامداً كقطعة ثلج.

ساعة من الزمن مرت قبل أن تدخل ساسافندا ـ شهرزاد من غير انتظار، بصحبة الرجل الأصلع الذي ترهقه سمنته وبطنه الذي يشوه وجهه. لست أدري من أين جاءا. من الشوارع. من البيوت. أم من قاعات الاجتماعات؟ لم أفكر في الأسوأ، ولكني مع ذلك تساءلت. فالسيد منذ أن دخل وهو يلحس في شفاهه كالقط الهرم الذي فوجئ بالفأر في فمه.

لم يبد على وجهها أدنى الاندهاش.

المفروض أنها خرجت لكي لا تعود.

رحب الريس بقدومهما مرة أخرى مركزاً عينيه على نهديها البارزين. فاجأني بسؤال لم أكن أنتظره أبداً.

ـ اتركنا من الأشياء التي ليست من اختصاصنا. ماذا كنت تفعل في تلك الليلة في الزقاق المظلم مع المرأة التي فوجئت وإياها في وضع سيئ. لا نريد معرفة اسمها حتى لا نحرجك. لكن نود معرفة سبب وجودك معها، وفي ذلك المكان بالضبط وأنت الصحافي المعروف بالتزامه وجديته.



ـ لكن يا سيدي أنت تعرف. . .

فجأة اندلع كبركان من غير سابق إنذار. حتى البراكين تخبر بأدخنتها أما هو فلم يفعل ذلك. قبل دخول ساسافندا كان هادئاً.

ـ كل ما أسألك ترد علي وكأني أبوك؟ لا أستطيع أن أغطي عليك في كل مرة. لم أكن معكما في نفس الفراش حتى أجيب في مكانك.

انتحرت الكلمات والعيون الجميلة في حلقي. ماذا يدور في رأسه يا الله. إنه يعمق أموراً هو اقترحها علي ولا أساس لوجودها.

ـ أصرّ على المعرفة.

نظرت إلى ساسافندا بعيون مهزومة. لم تعرني أي انتباه.

ـ يا سيدي هذا غير صحيح؟

ـ الحسين، أرفض رفضاً صارماً أن تستغبيني. يوم ضبطوك سجلت كل شيء. وقد وقعت على ما كتب في المحضر. تعالي يا شهرزاد. أليس هذا توقيعه.

لم تتكلم. ولكنها هزت رأسها موافقة.

بدأ يقرأ بصوت مرتفع كل ما سجله عني تلك الليلة ولم أرفضه لأنه أقنعني أن تهمة أخلاقية ليست شيئاً أمام تهمة أعمق. كانوا يحسبون كل شيء وكنت غائباً عن أسرار هذه المدينة. أردت أن أشرح كل شيء لساسافندا. ولكنها آلمتني بنظرة اتهامية وبابتسامة ساخرة وبدون أي اندهاش. حتى أنا عجزت عن الكلام. بحثت عن لساني، وجدته قد غاب مثل السيف داخل حلقي. حاولت أن أخرجه ولكني لم أستطع لمس رأسه. عيناي متعبتان. قلبي متكوم داخل الصدر كقطعة كتان محروقة. حاولت عبثاً أن أتشجع أكثر لأن علاقتي بساسافندا أصبحت مهددة بشكل نهائي. على الأقل لا أريد أن نفترق بهذه الطريقة.



مصممون على مسخي إلى مجرد جرذ هزيل. ومصممون على تحويلها إلى شهرزاد بكل الوسائل الدنيئة. الكذبة محبوكة.

ـ لكنك يا سيدي أنت قلت. . .

ـ أنا لم أقل شيئاً. أنا أريد أن أعرف. سؤالي واضح.

فاجأني بانزعاجه المخيف، وبعينيه الجاحظتين وببقع الدم في أسنانه الصفراء.

ـ التهمة ليست أخلاقية فقط ولكن لها خيوطا أخطبوطية.

ـ لكن. . .

ـ أرجوك لست مستعداً لسماع الكذب. على كل هناك محاكم مختصة في قضيتك. أتمنى أن تظهر أمامها شطارتك. أنا هنا مهمتي الوحيدة أن أكتب. أكتب كل ما أشعر به أنه هو الحقيقة.

صفق بيديه، بعد أن انتهى من كتابة رموز لم أفهمها.

أمرني بالجلوس. شعرت برجلي ترتجفان.

أمرني بالتوقيع. وقعت بدون أن أحاول فهم ما كتب.

وقعت ساسافندا كشاهدة على الجلسة.

صفق من جديد. شمر الرجل الأصلع البدين على ساعديه.

ـ خذه يا باربو إلى الحجز. عينك عليه.

أخذني من تلابيبي وكنت قد بدأت أتلذذ بالجلوس.

ـ أمش. سأشرب اليوم من دمك يا وحد الفرخ.

قال كلمات بذيئة أخرى أعجز عن تكرارها. كلها كانت تستفزني في أبي وأمي وفي شرعيتي وفي النطفة التي تألمت في الرحم حتى كونتني.

قبل أن يصفع الباب في وجهي وأنزل إلى هذه الحفرة، رأيت الريس متأبطاً امرأة تدعى شهرزاد. بدت لي عارية تماماً. نظرت إلي. لم تبتسم ولكنها قهقهت بشكل حرك المادة الرمادية السائلة في قلبي ثم كشرت وتدلى ثدياها كالكلبة العجوز واستعدت للانقضاض.



هززت رأسي. لا، يستحيل، ليست ساسافندا. شهرزاد. دققت النظر في وجهها وهي تمر أمامي. يا الله. إنهم يتساقطون واحداً واحداً كأحجار الدومينو. لأول مرة في حياتي، وطوال كل هذه العشرة، أكتشف أن ساسافندا تحولت إلى شهرزاد بدل أن يذبحها شهريار، قطع أنفها وجذمه من جذوره.

حاولت أن أدقق لكن الرجل كان قد غيبها في إحدى الحجر الضيقة. حرقني صوتها وتنهداتها وشهقاتها وهي تتلوى من المتعة. .آه. .آه. . زد يا ريس. .زد، لا تتوقف. .مم. .ما أحلاك. .ما أشهاك. . A h comme c'est bon.. Oui... Oui... encore. كان الصوت المتقطع يأتيني وأنا أنزل أدراج القبو: آه يا ريس لولاك. . مرة أخرى أهزم في حياتي العاطفية. لم أكن أريد أن أذهب إلى آخر الحدود. مهمتي انتهت. سأمر على المستشفى لإجراء عملية تجميلية على عيوني وبعدها ألتحق بالعاصمة. عملي ينتظرني. أنا تحت تصرفكم يا سيدي. متى احتجتموني، لا تتأخروا أرجوكم.

وقبل أن أنتبه لموقعي وللروائح الكريهة التي تلف دائرتي، وقع على أذني صرير الباب الحديدي العالي الذي أغلقه الرجل الأصلع البدين بإحكام.

خفت من الأصوات الغامضة، وبعدها غامت عيناي، ولم أعد أتذكر شيئاً مهماً مما وقع لي. كل ما استطعت استرجاعه كان مشوشاً مخلوطاً بمخاط الأنوف المنزوعة وصديد الأمخاخ والآذان وحمرة العيون المبدلة والوجوه التي غابت ملامحها والتفاصيل الضائعة وعظام المدينة التي تبعثرت عند بوابات المستشفى الزجاجية. ثم هذا القبو ذو الرائحة الكريهة. بدأت أفكر في سر اللعبة المركبة. شرعت أتسلى بالناس الذين أعرفهم، أضعهم الواحد وراء الآخر، بالترتيب. وحين أسقط الأول



يتداعى الكل كالحائط الهرم. لم أكن أدري، هل مازال الليل في بدايته أم انقضى. في هذه الحفرة الكل متشابه.

الظلمة الكبيرة. ربما يكون الكسوف قد بدأ وهذه علاماته.

تذكر يا الحسين. تذكر أكثر. ألم تنس شيئاً يمكن تسجيله. ذاكرتك متعبة كهؤلاء الخلق الذين فقدوا كل شيء إلا الرغبة في الحياة حتى آخر العمر.

العداوة بيني وبين هذه المدينة استفحلت.

التعب كان قد كسر كل أطرافي ولم أتوصل إلى إغماض عيني بالرغم من كل المحاولات اليائسة.

عدت إلى لعبتي التي كنت قد بدأتها. الذين أشك في عيونهم أضعهم الواحد تلو الآخر بانتظام ثم أدفع هذه المرة بالأخير، فيسقطون دفعة واحدة. كررت العملية مراراً حتى أخذني النوم على الرغم من البرد والجوع والروائح الكريهة والذاكرة التي تعبت فانكسرت.



آخر الحوارات السرية

الانتحار ليس رغبة تنتاب المرء في حالة فقدان اتزانه مع مدينة ما. حالة مرضية تنمو مع الواحد من يوم ولادته كالسوسة، وحين تنتفخ بالدم تنفجر ويحدث الموت. أحياناً كنت أفكر في المسألة لكن هذه المرة بدأت تحتل حيزاً كبيراً من دماغي وتعذبني. تؤلمني أكثر لأنها مرض. تذكرت ما قرأته عن الانتحار: «**قد يؤدي اكتشاف علمي حديث إلى معرفة أسباب النزوع للانتحار، وهل هو نقص مواد كيماوية معينة في الدماغ تدفع الإنسان إلى الانتحار؟. هذه المادة الكيمياوية المهمة تدعى سيروتونين، وهي عبارة عن جهاز إرسال عصبي مسؤول عن نقل الرسائل من خلية عصبية معينة إلى أخرى. وطبقاً لدراسات الدكتور مايكل ستانلي، الأستاذ في جامعة واين ستيت في ديترويت، يقول إنه يحدث نقص في هذه المادة في أدمغة الأشخاص ضحايا الانتحار. عمد ستانلي إلى مقارنة أدمغة تسعة أشخاص من المقيمين في مدينة نيويورك والذين سبق لهم أن حاولوا الانتحار مع أدمغة تسعة أشخاص ماتوا لأسباب أخرى، فتبين أن أدمغة المنتحرين احتوت على مواقع أقل بنسبة ٤٤ % بالمائة حيث يمكن لمادة السيروتونين أن تتصل مع خلايا عصبية الأمر الذي يدل على نقص نشاط السيروتونين. النتيجة النهائية لهذه الدراسة تفرض إمكانية تطوير فحص الدم إلى درجة يمكن بواسطة هذا الفحص التعرف على حالات الانتحار الأكثر احتمالاً. وسيكون بالإمكان عندئذ**



معالجة الانتحار بمادة الترازودون المضادة للاكتئاب مع استخدام عقار تجريبي سمي. زميلادين بالإضافة إلى رفع إنتاج السيروتونين».

تقبلوا مني هذه التفاصيل. صدقوني أنه ليس استعراض عضلات علمية وإنما هذه هي ذاكرتي. أحياناً تفقد كل شيء، حتى صلتها بالعالم. لكن القصاصات التي تنام في الدماغ، حرفة الصحافة، تبقى دائماً حتى في أتعس الحالات. أصدقائي كانوا يسخرون مني. ولكن مع ذلك فأنا أجد في أمر مثل هذا تسلية. خصوصاً إذا كان الخبر مهما وذاكرتي لا تلتقط إلا الأشياء التي لها اتصال خاص بحياتي اليومية المتعبة.

شعرت بنفسي، في لحظة ما من اللحظات المنكسرة، دودة. مجرد دودة تتكور على نفسها وتحاول عبثاً أن تجد لها مخرجاً.

ثم ماذا لو انتحرت؟ هل سيسقط العالم على مؤخرته بدل السقوط على رأسه؟ يوه! أنت لا تتعلم. أنت هكذا دائماً يا الحسين، في لحظة انكسارك تتمنى مثل الذي على حافة الموت، أن تعود إلى ممارسة طقوس الطفولة بحب أكثر. أصبر يا الحسين. يجب على أيوب أن يتنفس حتى في أتعس المواقف. لحظة وستمر. أنت تولد الآن من رحم الزمن الثاني. خيارك يا الحسين الذي ظلم في كل العصور أن تكون أقوى من مهازل الحياة. خيارك صعب ولكنك مجبر على ممارسته حتى ولو كلف حياتك. حتى اللحظة هذه كنتَ مواطناً عادياً غيبته تفاصيل الحياة لكنك الآن بدأت تتحول إلى كائن بشري آخر تماماً. خيارك الوحيد أن تقف وسط هذه الساحة كالشعاع ولا تنكسر مهما كانت قسوة الظرف. ما ينتظرك أعقد بكثير مما تتصور.

ـ احك يا الحسين. الصمت، في أغلب الأوقات، لغة الهزيمة..

ـ المهدي، هل تسمعني؟ هل تراني؟



ـ أنا بجانبك. فيك يا الحسين.

ـ المهدي خويا أنا مرهق حتى العظم. ماذا تريدني أن أقول. أنت تعرف كل التفاصيل. ماذا أفعل. مخي صار معطلاً. أنا متهم بك.

كان وجهه يشع في قلب الظلمة القاسية.

مرة أخرى مر الانتحار برأسي لكنني حجزته في أول مخفر في دماغي. إنه أتعس موقف يمكن أن يواجه به الإنسان سخافات هذا العالم.

ـ أعتقد أنه الكسوف. يا لطيف! هذا البرد بدأ يزعجني. يذكر بأجواء الخمسينات يا الحسين حين كانت المياه تهرب بوساطة محارم الأنف من خلال ثقوب شبابيك السجن الضيقة. وحين كانتِ الأسلاك الشائكة تنغرس بقوة على أجسادنا. والجرذان تهرب الوثائق السرية من قبو لقبو. الكسوف يا الحسين. بدأت أفكر فيه بجدية. ينتابني شيء ما يشبه الرغبة الكامنة في التقيؤ والغثيان. البرد يا لطيف كأنه لسعة بعوض.

ـ أنا كذلك بدأت أتعب يا المهدي. لست أدري هل سأقاوم طويلاً أم أضع سلاحي عند باب المستشفى التجميلي وأعلن انسحابي من الدائرة وهزيمتي لهذه الشوارع التي ملأتها الأورام الخبيثة. الكسوف حين يأتي حتماً لن يتوقف نشاط المدينة وسيقوم المستشفى التجميلي بتنفيذ كل مهامه الأساسية. لقد جهز جيشاً من ذوي الأنوف المقطوعة والآذان الطويلة والعيون الزجاجية والأمخاخ الجبسية التي لا تتحرك إلا بالإشارة.

ـ المستشفى يا الحسين بني خصيصاً لهذه المرحلة لنزع ما تبقى من وجه ناس هذه المدينة وملامحهم في محاولة لتحويلهم إلى قردة. إنهم يعرفون كل شيء عنك. عليك أن تتعلم كيف تفكر وكيف تتجاوز لحظة المصاعب. في هذا المستشفى يصعب التكهن بمصيرك وبمصيري ولكن مع ذلك يجب أن نظل أقوياء.



- أنت تتكلم بشكل وكأنك موجود. أنت غير موجود.

- موجود ونص. أنا فيك ولا يهم الآخرون. أنت كذلك لا تضخم المسألة حد اليأس. عيناك نافذتان ولا أشك في ذكائك.

فكرت لحظة من الزمن. شعرت بنفسي حقيقة ميالاً إلى التعقيد.

- يريدون أن يسرقوك مني بعدما قتلوك. صحيح، حتى الآن لا توجد تهمة خطيرة يمكن أن تتعبني مثلما صور لي رئيس المخفر الموقف. هناك تهمة أخلاقية ثبتوها عني في المحضر ما عداها لا أعلم شيئاً يكتسي أهمية كبرى. آه نسيت, هناك تهمة أخرى. التزوير.

- تعلم أن لا تتعب نفسك. عندما يريدون كسرك. Tous les coups sont bons. . فكر عما يمكن أن تدافع عنه باستماتة.

كنت قد بدأت أذبل كالتينة اليابسة. شعرت بنفسي أكذب إنسان في العالم. أكذب على نفسي وعلى محيطي المنكسر. يبدو أني لم أستوعب بعد بأني خسرت كل شيء. يوه! لم أخسر إلا ما كان مؤهلاً أصلاً للخسران. تذكرت وجه ساسا... عفوا شهرزاد، فانتابتني حالة عميقة من الكآبة والحزن حفرت لحمي حتى شعرت بها تنخر عظامي.

- تصور يا المهدي خويا، حتى ساسافندا افتقدتها. فقدتها يا المهدي بغباوة مثلما فقدت مريم. ألم تكن هناك حلول أخرى غير هذه الخسارات المتتالية؟ مع أني بعد الانكسارات الأولى، شعرت بشيء ثقيل ينزاح من على قلبي. ربما أصلاً لم نكن لبعضنا البعض وأن الدنيا والأقدار لم تفعل شيئاً جديداً سوى تصحيح حماقاتها.

كان المهدي ما يزال منزوياً في الركن. هادئاً. سمعت خرخشة الورق. عرفت أنه بدأ يلوي لفافة تبغ شعبي قديم. نفذت إلى أنفي رائحته الكريهة. ذكرتني بروث الأبقار المجفف الذي كنا ندخنه ونحن أطفال صغار.



المهدي صار الآن يعرف كل تفاصيلي الحياتية. من الطفولة التي لم يعشها معي إلى مآسي اللحظة. عادة لا أتكلم كثيراً لكن هذه المرة شعرت برغبة عدم التوقف حتى شروق الشمس بعد كسوف طويل، وقبل أن يمر على لساني الجهاز المسنن الخاص بقص الألسن الطويلة. أما المهدي، هو هو، لا شيء يحرك هدوءه وصفاءه. مثلما هو في الصورة. مثلما تخيلته كان. عيناه مشبعتان بالقوة والحب، تحيط بهما هالة من نور المقدسين والأنبياء.

مرة أخرى وأنا ألوك تفاصيل الوحدة، عاودتني فكرة الانتحار. بدت لي الحياة خاوية من أي معنى. داخلتني شكوك كثيرة في سلامة عقلي. الألم يأكل خلايا الدماغ بنهم كبير. خفت أن يكون قد اخترق دماغي شعاع أفسد كل قدراتي على التفكير الصحيح. كل شيء ممكن.

عدت المهدي حتى أخرج من دوامة الخوف. في ثانية ما انكسرت على هذه الظلمة، أحسست بأن المهدي، هو نفسه المهدي الذي ينتظره كل الناس. هذه المزاوجة في شخصيته ليست وليدة المصادفة. نظرته ثاقبة، وفيه الكثير من صفات الأولياء الصالحين، والأنبياء الذي ظلموا. كل تصوراته أشعر بوقعها على قلبي، فهي دائماً نافذة وصحيحة.

- آه يا المهدي، لم تكن مخطئاً. سنوات الموت علمتك أن لا تخطئ. وغيابك المفاجئ والغامض أعطاك وقار المظلومين. دفنت حياً وها أنت تبعث من جديد أيها المسيح المصلوب. السكير لم يكن سكيراً. وساسافندا كانت شهرزاد. وأقسم برأسك الذي شاب فجأة أن الزبال الذي يدفع عربة قديمة ليس زبالاً.

- ما تغبنش روحك. أنت لم تقل إلا ما رأيت أنه هو الحقيقة.

- ولكن سأحاكم يا المهدي بتهمة حتى الآن أجهل طبيعتها. وقد تحاكم أنت في محكمة أمن الدولة بتهمة التشويش والشغب واختراق



طقوس الأموات. خرجت من كتل التراب التي وضعت على قلبك وعدت لترى البلاد والوعود التي قطعت على أرواحكم قبل أن تغمضوا عيونكم.

ـ تعلم يا الحسين كيف تكون رجلاً. كيف تدافع عن نفسك. فالواحد عندما يحفظ هذه الخاصية، سيعرف كيف يدافع عن الآخرين كذلك. كن رجلاً كما كنته حتى الآن وأنت تتمدد على برودة الحفرة التي وضعوك فيها.

ـ أنت أكبر مني يا المهدي. أكبر بكثير. لم تسقط حتى وأنت تحفر حفرة بيديك المتعبتين. عفواً، ربما وأنت تحفر القبر خفت كثيراً من الموت، لكني متأكد من أنه بعد أن أغلقت التربة عينيك نسيت كل شيء إلا البلاد التي عشقتها كما يعشق رجل امرأة. وكنت كمن نام للحظة وظللت تنتظر حتى يعود زمانك. وعندما عاد بعد طول انتظار، جئت مع غيومه وضبابه وأحزانه.

الظلمة. ياه؟ هل هذه هي علامات الكسوف التي تحدثت عنها كتب الأولين؟. يبدو أن زمن السواد سيكون طويلاً.

اختلط الحلم باليقظة، وبوجه المهدي الذي لم يبرحه هدوؤه ولا تبغه الشعبي. فركت عيني من جديد. الظلمة القاسية ما عدا الكوة الصغيرة التي ينفذ منها النور والتنفس. قمت من مكاني. تصورت أني بالبيت ويجب أن أدخل المرحاض. لا وجود للمراحيض في هذا المكان المقفر إلا حفرة صغيرة مرمية في زاوية ما، تنبعث منها روائح كريهة وحشرات سامة. مع وجود المهدي المسألة تعقدت أكثر. غير معقول. أخذت ألف في مكاني كمن ضيع شيئاً ثمينا. شعر بحاجتي الماسة. التفت صوب الحائط أو على الأقل هكذا بدا لي. عندما انتهيت من حاجتي كان الألم قد أخذني من قلبي. ألهذه الدرجة يصبح الإنسان لا



يساوي شيئاً؟ حاولت أن أنفض رأسي لكني لم أستطع. فقد كان أثقل مما كنت أتصور.

ما زلت هنا بين الحفر والظلمة والأوساخ ووجهك الدافئ يا ولد أمّا.

ما زال قلبي بين يديك يا المهدي. ساسافندا ـ شهرزاد، رجعت إلى العاصمة. البيت اختلط سافله بعاليه، الباب مغلق لكنه مكسور. الوجوه الغامضة لم ترحم قدم أخشابها. الحميد. شعلة المدينة أصبح يحمل في رأسه مخاً من الجبس. أبله أصبح يدفع ببلادة سيارة هوندا أهداها له الجناح الخاص بتجميل الأدمغة في المستشفى... و... و... القائمة طويلة. صديقي المتبقي في هذه المدينة هو أنت يا المهدي. أنت وحدك. علينا أن نتشبث في ألبسة بعضنا بعضاً حتى الموت.

لا تنزعج من قصوري، فما زلت طفلاً. ما زال بيننا حليب جف في ثديي عيشه لمنورة وعلاقة لم تتم وخوف منك ودم سال ذات مساء مظلم في غابة مهجورة والوجوه الغامضة وعظام ذهبت مع الريح الصحراوية. ولا أحد يدري أين دفنت.

أنت مازلت نبياً. وقبرك ما زال غيمة. ترحل حين يأتي الفجر، وإذا جاء الليل بسواده، تتوقف، ومع صياح الديكة تواصل سفرتها الأبدية إلى يوم لا أحد يعلمه. ستنزل غيثاً على هذه التربة التي بدأت فرحتها تجف.

حين تنزل، يكون المهدي ابن الآتي، قد امتطى صهوة جواده الأدهم وبدأ يرشق سيفه في الأشياء العتيقة التي تثير التقيؤ. أنا أعلم وأنت خير العارفين أنك واحد من سادة هذا الزمن. أنت كالمسيح المظلوم، الذين باعوك، يشربون الأنخاب على موتك. ولكنهم قبل أن ينزلوا الكؤوس من أفواهم، يفاجأون بحضورك في السهرة. يهرعون نحو الأبواب، تتلقفهم الشوارع التي مازالت تمارس صمتاً مريباً. وجوههم فقدت



ملامحها. نساؤهم عاريات. تتكسر في أكفهم كؤوس الشراب. أوسمتهم من النحاس المغشوش وعيونهم من زجاج معشق بأتربة عظام الموتى. يجرون. يدخلهم ذعر، يصرخون بأعلى أصواتهم: المهدي عاد. المهدي عاد. المهدي عاد. تضيق بهم الشوارع. يعودون إلى البنايات، فتضيق عليهم. يهربون إلى الغابات فتحترق عظامهم. المهدي عاد. المهدي عاد. المهدي عاد. يدخلون التراب، يلفظهم لتأكلهم الكلاب الضالة. لم يفهموا سر العودة الغريبة ولا الألم الذي تحمله منذ أكثر من عشرين سنة. لا أحد منهم فتح لك قلبه وحاول أن يستفسر عن بقع الدم التي تملأ ثيابك العتيقة وهذا الحذاء الخشن الذي مزق رجليك ولم يتمزق. لا يساوون حجرة واحدة من أحجار وديان هذه البلدة التي شربت من روحك ومن رحلتك التي لم تنته.

ـ صمتك طال يا الحسين. مالك ساكت؟

ـ أفكر في هذه التفاصيل التي لم أفهمها إلا متأخراً.

ـ لا تقل هذا يا الحسين. أنت بدأت تفهم هذه المدينة المقفلة. أنا أعلم جيداً أنك حين تخرج، ستمنحك المدينة مفاتيحها الأخيرة وستجبر شوارعها وأزقتها وناسها الطيبين على تقبيلك. ستقيم لك غاباتنا مأدبة رائعة، وأعدك بأني سأكون بجانبك. يا ابني اليأس هو الذي يعمي، ما عداه، تظل الدنيا فوق شهوة الناس.

ابني! الله! كم كانت دافئة عندما خرجت من فم المهدي. بيني وبينها زمن من القحط والموت والتربة الخائنة. إنها الكلمة التي اختلطت مع رعي الأبقار والأسلاك الشائكة والألغام التي نزعت روح احميدا ولد خالتي حبيبة. الكلمة التي أكلها الحليب المحروق والأثداء الذابلة كعيون الأيتام. ابني! لم أذق طعمها من المهدي. إلا من الكتب والرسائل التي كان يبعثها من البلاد البعيدة قبل أن يعود وتأكله حرب الدمار. هي ذي



الآن، تأتي مضخمة بأفراح الأعراس والولادات الجديدة وحنين يغزو القلب كالشعاع النافذ. تعود إلى مزامير البلدة وأهازيجها البدوية التي لم يجف نسغها بعد.

أحبّ يا الحسين. أحبّ المهدي حتى يدور رأسك. حتى تسقط كالمجاذيب، لا أحد يحاسبك على جنونك. فما يزال هناك متسع للحب والفرح. أبواب المدن العتيقة لم تغلق بعد في وجهك المتعب. أحبّ. أحب يا الحسين قد ما تقدر، قد الشمس. قد البحر. قد الدنيا قاطبة لكن لا تفرغ قلبك من النور. الشمس في مكانها والأرض لم تتخل لأحد عن دورتها. فمريم ليست خطيئة والمهدي ليس جريمة.

ـ أنا لم أفهم صمتك.

ـ بكل بساطة، ليس من المؤكد أن أخرج سالماً من هذه الحفرة. قال رئيس المخفر إنهم سيقيئونني الدم. ماذا تريد أكثر من هذا الكلام. إنهم مصممون على الذهاب وراء قضيتي إلى أقصاها.

ـ سينجحون إذا يئست. يدفعونك إلى فقد ذاكرتك لتصبح بعدئذ عملية نزع أنفك الطويل أمراً سهلاً. بهذه الذاكرة الحية أنت تعقد من مهامهم. يصعب عليك أن تمشي على أربع أرجل، وأن تأكل من الحشائش التي يقدمها المستشفى التجميلي لزبائنه.

ـ سأمنعهم. سأمنعهم باسم الدستور والميثاق الوطني وكل قوانين الجمهورية التي لا يمكنهم أن يدوسوها كلها.

ـ جبلوا على القتل والنسيان ولا قانون يوقفهم. مستحيل. القانون هم من وضعوه وهم أول من يدوسه. هل استطعت إيقافهم حين أغمضوا عينيك أثناء عملية تبديل المخ؟ وحين كسروا على وجهك الباب والنوافذ؟ وحين وقّعوك على تهمة هم من فبركها؟ ما تستطيعه هو أن تكون أنت.



ـ سأقاومهم حتى الموت. سأقول إن قصة المرأة التي وجدت معي ليلاً في أحد شوارع المدينة كذبة. سأقول إن شهرزاد حرقتني في كبريائي وأن المهدي شخصية حقيقية. سأقول إني أعمل لحساب الشهداء والأنبياء. وإذا كبروها سأدين بشاعتهم وأكشف ما أعرفه من أسرارهم.

ـ هذا إذا اقترضنا أنهم سيتركون لك فرصة الدفاع عن نفسك.

ـ ليست بلادهم وحدهم وأرضنا ليست مزرعة خاصة.

ـ هي كذلك بالنسبة لهم على الأقل، لكن الذي لا يعرفونه جيداً هو أنك أنت كذلك، ابن هذه الأرض ولك القناعة الصارمة في أن تطالب بحقك في السعادة. لن يمسخوا أرضا بكاملها ولو شوهوها مؤقتا.

ـ مهما يكن. أنا مازلت مقتنعاً بأني لم أفعل شيئاً يحرك هدوء المدينة ضدي. فليحاسبوني عن التزوير إذا شاءوا. عن التهمة الأخلاقية. سأعترف. لكن المسألة ليست بكل هذا التعقيد. أنا لم أخن تربة هذه البلاد الطيبة حتى أنكس من أقدامي في الملعب البلدي ويستدعي كل الناس لرجمي كالشيطان.

ـ هذا إذا افترضنا مرة أخرى أنهم بقوا وسط دائرة هذه التهم. على كل حال ليس مهماً. ربما كانت المسألة أكبر من تعقيداتنا. أنت مشيت في طريق اخترته بإرادتك. امش فيه حتى النهاية. مبرر الخوف يجب أن يسقط من دماغك وإلا ما مبرر وجودنا معاً وسط هذا المسخ. مكاننا الأصلي ليس هنا. مكانك في جريدتك. ومكاني في مقبرة الشهداء.

ـ اسمح لي يا المهدي. لكني أشعر أحياناً أنك تعكس علي زمانك وأزمتك.

ـ أنت مخطئ يا الحسين. تعجبني جرأتك. زمني وأزمتي أعقد مما تتصور. أنت سيحاسبك أبناء هذا الزمن، أما أنا فسيحاسبني الشهداء والأحياء معا وإذا أخطأت خطأ صغيراً في التقييم سيدفع ثمنه الجميع. لو



تعلم. فقد كان زمناً قاسياً كالدم الذي سال بالمجان. واجبي أن أعطي فرحي وحزني لهذه البلدة. واجبي قدمته وما أزال أقدمه وأخشى إن بقيت أكثر من الفرصة المعطاة لي أن أتحول إلى عجوز جالس على حافة أحد الأولياء، يبسمل ويحوقل ويسبح لرب نسيه في أرض مقفرة. ينتظر متى يفاجئه عزرائيل بنزع روحه الهرمة. أخشى أن أفقدك وأفقد ملامح وجهي. افهمني يا الحسين. من الصعب جداً أن ترمى عظام شهيد دفن حياً في قبو لا فرق بينه وبين المزبلة. أنا لا أعكس عليك زمني ولا أزمتي. أحاول فقط أن أفهمك حتى لا تخطئ وتندم العمر كله. أخطأنا في التقييم فقط، وها أنت ترى، مازلنا ندفع الثمن حتى اليوم وندفعكم معنا الثمن نفسه. المسألة معقدة يا الحسين وتحتاج إلى لباقة وحنكة في التصرف. عليك أن ترتاح حتى يأتي فجر المدينة ليأخذك إلى حيث يجب أن تذهب. وأنا كذلك يجب أن أرتاح قليلاً. ومهما يكن، فلن يأخذونا إلى أعواد المشانق بالبساطة التي يتصورون. سترى.

حين انزوى، سمعت شخيره وبعدها لم أعد أراه نهائياً. شعرت في لحظة ما بصغري. فالرجل لم يقل إلا القليل ما في قلبه. لم أتساءل كيف خرج. تلمست الإطار قبل أن ينقطع شخيره. كان فارغاً. بعد لحظة شعرت بحرارته وهو يدخل صدري كالسهم الحارق. تحسسته. إنها فرحة الاكتشاف البدائية للأشياء الجميلة التي يعذبنا دفؤها. كان داخل صدري. بدأت أسمع حشرجته وأنينه، مثل شخير رجل ذبح وترك ينزف بين الحياة والموت في حفرة أجبر على حفرها بنفسه.

علي أن أنام قليلاً. يأتيني لحظة سكوتي وصمتي ضجيج الأصوات الغامضة من فوق مصحوباً ببعض الصرخات المكتومة ونباح الكلاب الذي يذكرني بجو البلدة البعيدة والأمطار ورائحة القهوة ودق المهاريس والجنازات اليومية ونط الأطفال ورغوة الحليب وصرخة الطفولة الأولى.



ـ قم يا قواد، سادتك في الانتظار. وقتهم ثمين. هز روحك.

تختلط الصرخة بصرير سلاسل الأبواب الثقيلة وبالوجوه التي لم أستطع تحديد قسماتها وسط هذه الظلمة التي تتعب القلب والذاكرة.



المحاكمة التي سبقت الكسوف

كنت عارياً وثيابي في يدي حين دفعوا بي إلى قاعة المحاكمة المليئة بالوجوه التي يكتنفها الغموض. في هذه المحكمة الموقرة التي تخوف باتساعها، يفقد المرء ذاكرته. أو ما تبقى من هذه الذاكرة. مادته الرمادية تشتعل بصعوبة كبيرة. يشعر بصغره حتى يتحول إلى مجرد جرذ لا حول له ولا قوة له.

أتذكر الآن أننا ركبنا سيارات ثقيلة. مغلقة بالشبابيك وكتل الحديد أكثر من الحفرة التي مكثنا فيها أياما متشابهة الليل والنهار. تشبه مقبرة لولا الثقوب التي كنا نرى من خلالها الخارج. العصافير والأبقار. الجبال. الطبيعة الممتدة على مرمى العين. أنغام الرعاة التي تعيدك إلى الطفولة. سارت بنا يوماً وليلة. حين نزلنا كانت أضواء المدينة التي يبدو عليها الإجهاد، مشتعلة. تشع بنور متعب. في طريقنا إلى الحفرة الجديدة، وقبل أن ندخل إلى المحكمة، رأى المهدي وجوهاً مسحت أنوفها وعيونها. هل فقدت المدينة كل إمكانية للحياة حتى صارت تتفنن في القتل. لقد بدأت السلالة التي ورثت البلاد والعباد، تعود إلى أصلها القردي الأول. ماذا كان سيفعل داروين لو كان هنا في عين المكان؟ لتعقد عليه تفسير السلالات وتواريخها.

واقفون بخوف وجزع.

الجميع وقوف قبل أن يأمر القاضي بالجلوس وبافتتاح الجلسة الأولى



والأخيرة. تربع بشكل جيد. وضع عدة رؤوس بصل أمامه وأخذ يأكلها. يقول العارفون إن البصل يفتح شهية الكلام. والأكثر من هذا كله، فالقاضي مولع به حد الهوس. يا بن عيشة لمنورة. جهز حالك هذه المرة. إنهم مصممون. ألم يقلها لك رئيس المخفر وحاولت تكذيبه. السيف سيشقك من القلب وقد لا تتاح لك فرصة الدفاع عن نفسك ولا فرصة الدفن حتى لا ترى عيناك مسخ المدينة من جديد. عبثاً تحاول فهم ما يدور يا الحسين بن المهدي بن محمد. عقلك محدود أمام وضع جاهز سلفاً.

صرخ القاضي. فاحت من فمه رائحة البصل القوية.

- التفكير، التهريج، التنوير، التقليل، التكثير، التفجير، التحجير، التثوير، التهليل، التأويل.. كلها أمور ممنوعة. جلوس.

اعتدل في مكانه من جديد.

- أيها الحاضرون والغائبون. باسم بلادنا التي... والتي... والتي... وباسم شهدائنا الأبرار الذين... والذين... والذين... ومحكمة أمن الدولة التي... والتي.. وهذا.. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على... إن الله سبحانه وتعالى أوصى بـ.. وبـ.. وبـ.. وإن.. فاعدلوا.. صدق الله العظيم. أعلن افتتاح الجلسة الأولى والأخيرة. الجلسة عادية ونتمنى أن تحسم بسرعة وواضحة ولا تحتاج إلى استفسارات كبيرة. الرجاء من المحامين أن يختصروا من مرافعاتهم. هذا رجاء وقد يتحول مع وقائع المحاكمة إلى أمر.

فجأة. امتلأ قلبي فرحاً. حمدت الله على نعمته في البداية، لأن القضية لن تحتاج إلى اهتمام كبير من المحكمة، معنى ذلك أنها ليست ذات قيمة كبيرة. ولن تأخذ وقتاً واسعاً. معنى ذلك أنها حالة عادية. لكن لماذا محكمة أمن الدولة؟ القاضي مصمم على حسم القضية بأقصى



سرعة ممكنة حتى يذهب كل واحد إلى شأنه الخاص. لكن التساؤلات الكثيرة التي لم تبرح داخلي، جعلتني أعدل عن رأيي. حتما ليست القضية بالسذاجة التي أتصورها وإلا ما مبرر كل هذا الحشد من الناس وهذه الملفات التي تنام بين يديه ورؤوس البصل لفتح شهية الكلام عنده. ملف المهدي بن محمد من بين الملفات المهمة. لم أعد أتساءل كيف وصلوا قبلنا إلى هذا المكان. فمنذ أن رأيت المستشفى لم يعد في ذهني شيء اسمه المستحيل. قادرون على قتلك وإعادة بعث الروح فيك في ظرف كسور الثانية بدون أن تعلم بذلك. المفروض. لو كانت المدينة تمشي على المفروض. لاحترموا الملف ووضعوه في عيونهم لأنه يهم رجلاً يشكل جزءاً من تاريخنا. أحياناً تخرف يا الحسين. افتراض يقف على قدميه لو كانت المدينة مدينة الشهداء ولو كان المهدي شهيداً عادياً. على كل حال، لم يكن محتالاً ولا مزوراً ولا حتى سارقاً عادياً. هذا يا الحسين ما تتصوره أنت، لكن قناعاتهم تختلف. يفكرون مثل المدينة بمنطق آخر. تمهل قبل أن تطير وتكسر أجنحتك في الفضاءات الواسعة.

المحامي المكلف بالدفاع عني عرفني من تحليق رأسي وعريي. لم يعرني انتباهاً كبيراً. راح مع طاقم المحكمة يستمع إلى تمتمات القاضي الذي بدت على وجهه البارد علامات الدمار والخوف. لم يقترب المحامي مني حين ترك القاضي، ولكنه اكتفى بتسجيل بعض الملاحظات من بعيد. كان ينظر إلي بعيني نافذتين. كان كرسام يحاول أن يجسد وجها نسوياً بدقة. في يده اليمنى حجرة تشبه الفحمة. ويسجل على لوح أبيض كل ما يمر برأسه. لديه قدرة غريبة، وتحكم لا يحد في تحريك عينيه وتثبيتهما كل واحدة في زاوية. يرى حركاتي، ويسمع ويرى في الوقت نفسه القاضي وبقية طاقم المحكمة. يضع رجلاً على الكرسي



وأخرى يثبتها على الأرض. ينزل. تعجبت كثيراً. يرفع رجليه إلى فوق، بعد أن ينقلب على رأسه ليراني معكوساً تماماً. يقوم، يتحرك حركات رياضية خاصة. يفرج رجليه. يحرك يديه يميناً وشمالاً. يخرج شيئاً من جيبه. يأكله. تصورته في البداية حلوى أو زريعة أو فستقاً سودانياً. كان يمضغه بسهولة. اقترب مني بحذر. سجل عدة ملاحظات على اللوح الذي بيده. سجل عدة ملاحظات على اللوح الذي بيده ثم أدخل يده من جديد وأخرج شيئاً وضعه في فمه. ثم حفنة أخرى. سقط منها القليل على الأرض. تمتم في أذني القاضي بعد أن سجل كل ملاحظاته عني. شدني ذلك الشيء الذي سقط من يده. مددت رجلي. سحبته. تفحصته في يدي. لم أكن أحتاج إلى وقت كبير لمعرفته. كدت أجهش بأعلى صوتي. شددت على رأسي حتى أقيه من الانفجار بقوة مخلفاً وراءه شظايا العظام وسط هذه المحكمة العجيبة. أيعقل أن يكون هذا؟ التبن. المحامي يأكل التبن. تبن يا الله. أعدت تفحصه. لا.لا. لا أفهم ما يحدث أمام عيني. أعدت النظر مرة أخيرة. تبن غامل مرت عليه سنة على الأقل.

حين رجع من عند القاضي كان ما يزال يمضغ ويعيد المضغ كالبقرة، لكنه لم يكن بشوشاً مثل المرة الأولى. جلس بقربي. انتبهت إلى جيبه المنتفخ. كان ممتلئاً بالتبن المدروس. رائحة فمه مقرفة. يتكلم كأنه حمار عجوز. نظر إلى عيني بدقة وكأنه يريد أن يفك رموزاً غامضة بهما.

- اسمع يا ولد. القاضي يلح على إنهاء المسألة بسرعة. حتى لا نتعبك وحفاظاً على وقتنا الضيق. أنت تعرف. . . عليك أن تساعدني.

فهمته بصعوبة. فهو يتكلم ويمضغ في الوقت نفسه. صدقت كل شيء بالرغم من صعوبة تصديق ما كان يدور أمام عيني. أشعرني بخوف



في أعماقي لم أستطع فهم مصدره. فإلحاحه على إنهاء المسالة مهم. معناه أن قضيتي ليست بالصعوبة التي أتصورها. لكن هذا الجو الذي يسير بشكل معكوس. لا يطمئن ويخلف انطباعاً بأن شيئاً مفاجئاً سيحدث بين اللحظة والأخرى.

تحسس القاضي مكان أنفه. عدل نظارتيه الصغيرتين. فتح فمه عن آخره. التهم رأس بصلة كاملة. قبل أن يتكلم كنت مرعوباً داخل هذا الجو الغريب. وللصراحة أقول لكم إن عربي كان يزعجني. وفي أحيان أخرى كنت أقرف من نفسي لدرجة أتمنى أن أتقيأ. لكن مع مرور الوقت ألفت الحالة ولم أعد أتساءل أبداً. فقط كنت أفكر في اللحظة التي أدفع فيها نحو منصة القاضي للإدلاء باعترافي. ستكون قاسية عليك يا الحسين أنت الذي كنت تستحي أن تتعرى أمام مريم. قلب المدينة. وساسافندا. كآبة خيبة الأمل. سيرون مؤخرتك يا الحسين. سيضحكون من عضوك المنتصب في محكمة يمنع فيها كل شيء منتصب. سيضطرونك كما أكد لك المحامي ذلك، إلى القيام ببعض الحركات قبل بدء المحاكمة لإثبات صحة عقلك وحسن نيتك، كالنوم على الطاولة مثلاً مع رفع الرجلين عالياً. الانحناء إلى أقصى درجات الانحناء حتى تظهر مؤخرتك لطاقم المحكمة بوضوح تام. الدوران في المكان نفسه عشر مرات أو أكثر. الجري وسط القاعة...

الكرسي الذي عليه ثيابي كان هادئاً.

داخل ثيابي كان ينام إطار المهدي الذي لم يفارقني لحظة واحدة. أفكر في حضوره أكثر مما أفكر في نفسي. كان من المفروض أن أترك الثياب في الحفرة لكنهم رحمة بي، وبفضل جهود المحامي سمحوا لي بأخذ ثيابي معي بالرغم من أنهم في البداية رفضوا المسألة رفضاً باتاً واعتبروها اختراقاً لطقوس محاكم البلاد. المحامي أكد ذلك مراراً:



المسألة يا ابني خارجة عن القانون، لكني اجتهدت ما وسعني الاجتهاد حتى وجدت مخرجاً قانونياً للحصول على هذه الفرصة التي قد لا تعوض مرة ثانية. يا لطيف رائحة التبن الكريهة تدفعني إلى حالة إغماء بطيئة ورغبة ملحة في التقيؤ. كان يشبه دابة هرمة. تحرك القاضي في مكانه مرة أخرى بدون أن يمس رؤوس البصل المتكومة على الطاولة الممتدة أمامه. تبدو على وجهه صرامة مفتعلة.

ـ نريد من المتهم أن يقترب وأن يقوم بكل ما يمكن أن يثبت سلامة عقله. بسرعة.

هاه. المحامي كان محقاً يا الحسين. أنت في الطريق الصحيح يا ابن أمي. المحامي على حق. نظرت إليه. كانت عيناه تبتسمان. ابتسمت في وجهه كطفل كسول يفاجئ معمله بحفظ المحفوظة الصعبة عن ظهر قلب. الحمد لله. أوصاني، قبل أن أفاجأ بشيء غريب وطقوس لا أعرفها. حين قمت من مكاني. احمر كامل جسمي. خفت. جرى المحامي نحوي منزعجاً بشكل أخافني. تمتم في أذني وهو يضغط على الكلمات بقوة. تحملت رائحته الكريهة.

ـ لا تكن غبياً. إنك تضيف إلى تهمك الكثيرة تهمة جديدة. وغذ. ستقضي على كل استراتيجية الدفاع التي حضرتها.

ـ لم أفهم يا سيدي. هل فعلت ما يشين إلى المحكمة؟

ـ لا تكن مستقيماً في قامتك. انحن قليلاً وأرجوك أن لا تحمر. ستتهم بالشيوعية. لا تدفعني إلى الاستقالة.

هذه سخرية. مسرحية رديئة. ما هذا؟ ضربت على رأسي. قاطعني بقوة.

ـ القاضي طلبك. لا وقت للجدل. ساعدني في نجاح القضية.

لم أكن أي شيء. حاولت أن أتشجع أكثر. شعرت بنفسي أصغر من



حجمي الاعتيادي. التفت إلى المحامي بشيء من الخوف. شجعني بحركة يديه وبتمتماته لكن فمه الذي ظل يمضغ. أعاد لي رغبة التقيؤ.

ـ افعل ما قلته لك. قبل أن ترسل إلى مصحة عقلية يا بن المهدي. كن عاقلاً ولا تركب رأسك.

يعرفون اسم أبي أكثر مما يعرفون اسمي.

ـ انحن قبل أن يراك القاضي ويصدر الحكم. وقبل أن يعجن لحمك وتطحنك الآسيدات وترسل في بالوعات المدينة. انحن.

فعلت ما طلب مني. لم أمش شامخاً كنخلة كما كنت أتصور. براءة التربة التي أغمضت عينيك يا المهدي لوثتها المحكمة ووطأتها الأرجل الخشنة. أغمضت عيني وأعتقد أنني بكيت كثيراً، ثم بدأت في تنفيذ توصيات المحامي الذي لم تكن ترى عيناه وسط هذه المحكمة كلها إلا حركاتي. كنت خائفاً من أن يضحك الحاضرون مني لكن يبدو أن لا أحد استهوته جثتي. مرت المسألة بشكل جد عادي. حين وقفت في مواجهة القاضي شعرت برهبة بتقلص في أمعائي. أقرفتني رائحة البصل التي تنبعث من فمه. سال دمعي من رداءة البصل. التفت نحو الحاضرين. كانت عيونهم مفتوحة عن آخرها. وضعت يداً على المؤخرة واليد الثانية خبأت بها عضوي الذي بدأ ينتصب. امتعض القاضي. ومعه امتعض الحاضرون. صرخ في وجهي بانزعاج أسال عرق جبهته.

ـ استح أيها المسخ. استح. مقرف. انزع يديك.

وقبل أن أنزعهما، كان المحامي قد قفز عند أنفي برائحة فمه الكريهة.

ـ أرجوك يا بن المهدي. أرجوك لا تكن غبياً. رزق أبنائي في هذه القضية.

نزعت يدي. عاد الوضع إلى حالته الطبيعية وخفت من تمتمة



الحاضرين وجف العرق على جبهة القاضي. وعاد إلى المحامي إشراقه الأول.

ـ قل يا بن المهدي كل ما تريد قوله. اقتصد قدر الإمكان. أطالبك بالاختصار.

ثم انهمك في أكل البصل وتفحص الملف. التفت إلى الناس. كانوا منهمكين في قراءة الجرائد اليومية والألبومات المصورة والكتب البورنوغرافية. المحامي غاب بين الكراسي لكن رائحة التبن الغامل وصلتني.

من أين أبدأ؟ شعرت بالوحدة ثم بالقصور ثم بلساني يغيب وسط بطني. وبكل شيء يتبدل وبمنطق آخر يسود المحكمة. كل شيء غامض. ماذا أقول.

رفع القاضي عينيه نحوي.

ـ هل انتهيت يا ابني.

ـ لا.

ـ طيب أسرع.

ثم عاد يتفحص كومة الأوراق التي كانت بجانبه. أنا لم أبدأ. وهو يسألني إذا كنت قد انتهيت من الكلام أم مازلت؟!! يبدو القاضي، المحامون، وكلاء الدولة، البوابون والحاضرون منهمكين في شؤون لا علاقة لها بالمكان. لا أحد يعلم بقضية الحسين بن المهدي بن محمد. لا أحد. المسألة الأخلاقية لا تحتاج إلى كل هذا المهرجان. التهمة السياسية لا يمكن أن تتم في هذا الجو العجيب. مسألة التزوير ما علاقتها بمحكمة أمن الدولة.

أوف يا الحسين. العالم يا حبيبي يخضع لمنطق المحاكم. منطق آخر لا تعرفه. يا سيدي الوثائق بين أيديهم وبإمكانهم إصدار الحكم الذي



يحلو لهم وانتهى. صدقوني أني في لحظة ما ندمت لأني لم أنتحر. تمنيت على الأقل أن أعدم بأقصى سرعة ممكنة. يا الله، ما معنى أن يأكل المحامي التبن؟ والقاضي، ما علاقته برؤوس البصل؟ ثم لمن أوجه كلامي؟ من يسمع الصيحة التي تنتحب بداخلي. من يخرج المهدي من صدري؟ وهؤلاء الخلق، لماذا هم منهمكون بهذا الشكل النهم في قراءة هذه الكتب المبتذلة؟

من يسمعك يا عصفور الجنة؟

أنت منهك ومنتهك، والعيون التي تتبع حركاتك غير أليفة.

لماذا يصمت هؤلاء الناس بمجرد أن يحني القاضي عينيه وينهمك في قراءة الملفات التي أمامه. وأنت يا الحسين، يا بن المهدي الذي غيبته حفر الغابات والليل والعطش والموت المجاني. ما موقعك وسط كل هذه الأنساق؟ حماقتك الوحيدة هي أنك بدأت تعرف مسخ المدينة. فتحت عينيك على التفاصيل الدقيقة التي لم تكن لتعرفها ولا لتثير انتباهك لولا انغماسك في قضية المهدي. كنت على الهامش يا صديقي ومحاكم المدينة تعمل على قتلك وترقيمك.

آه يا الحسين خويا، وراءك الآن سيوف القتلة وأغنياتهم المشوهة. من سيقف بجانب قلبك يا بن عيشة لمنورة التي انتعل صدرها العسكر والسماسرة والمشبوهون. ستموت يا الحسين أفظع ميتة ومع ذلك، أنت ترفض أن يشبهوك بحالة الحسين بن علي. كلاكما مظلوم حتى القلب. حتى المخ وحتى العظم. المسألة يبدو أنها أعقد مما يصورها لك عقلك المنهك. سيدخلونك يا الحسين في جو الخوف والرعب. تذكر المهدي. قبل أن تغمض عينيه الأتربة ولا ينفض يديه من متاعب بلدته. تذكر جيداً أنهم يلعبون معك اللعبة الكريهة وعليك مقاومتها قبل أن تطلقك كل الأحياء الشعبية التي أحببتها ووجه مريم الذي لا يبرح ذاكرتك.



تصور يا الحسين! القاضي. حتى القاضي لا يعيرك انتباها. من سيكتب ما تقوله. كل شيء يعطي الانطباع وكأن الحكم جاهز من قبل، ولا خيار لديك غير أن تكون أو لا تكون. غير أن تتكلم أو لا تتكلم. بماذا ستبدأ يا الحسين؟

نزع القاضي لحظة الحنين بضربة قوية على الطاولة هزت آذان الحاضرين، فاستقاموا وثبتوا عيونهم في المتهم كأنهم يتحركون بأزرار.

- وقتنا ضيق. هل انتهيت.

- ولكن يا سيدي. لساني لا يطاوعني.

- لو كان لسانك قد خضع لعملية تجميلية لعذرناك وقرأنا كل شيء في عينيك.

قالها الدليل وهو يدخل القاعة تحت تصفيق حاد وموسيقى النشيد الوطني. عرّفته من صوته. لكن هذه المرة، كان وجهه قاسياً. أشار بيده. جلس الناس وطاقم القضاء كذلك. سلم على الجميع ثم تربع بجانب القاضي الذي خزر إلي من جديد باستفزاز.

- لسانك طويل. والمسألة تخصك. احك.

- عن أي شيء مثلاً.

- عن كل شيء وعن لاشيء. عن الملف مثلاً.

حاولت أن أتشجع أكثر بعد أن ربت المحامي على كتفي وراح ليختفي من جديد في نهاية القاعة الواسعة.

- آ.. آ.. الملف. نعم.. نعم.. الملف.. نويت أن أقوم بتحقيق لصالح الجريدة.. ولكن..

انزعج القاضي من جديد وزعق في وجهي حتى وصلني لعابه ورائحة فمه.

- هذه الأمور نعرفها جيداً. نعرف أنك سافرت لإجراء تحقيقات في



مختلف البلديات. وأنك اشتريت المسؤول عن الأرشيف بساعتك أو على الأقل حاولت ولكنه كان وطنياً كبيراً فرفض إغراءاتك. وأن شخصاً سمى نفسه تمويها المهدي كان يزورك ليلاً. لا يهم. لاشيء يهم. ليست قضية أنك زورت وثيقة تكليف بمهمة للدخول إلى المستشفى. هذه أمور كنا نعلمها حتى قبل حدوثها. الذي نريد أن نعرفه الاسم الحقيقي للشخص الذي كنت تتعامل معه سرياً. والأهم من هذا كله. من كان وراء العملية. إذا فهمنا هذا كله. أصدرنا الحكم بسرعة. أنت ترتاح ونحن كذلك.

ـ مجرد رغبة. وحق الله مجرد رغبة شخصية يا سيدي. جنون، لاستذكار الشهداء الذين تفتحون عادة جلسات القضاء باسمهم. وليس الأمر جديداً. في الجريدة التي كنت أشتغل بها، كانت وظيفتي هي التحقيقات. أكثر من عشر سنوات وأنا أعمل ولا أحد أزعجني يا سيدي والآن لماذا يقف العالم كله ضدي. ألم يكن المهدي أحد الشهداء الطيبين. أفهموني يا سيدي القاضي. إنه أبي. وحق الله هو ولا أحد غيره. المهدي بن محمد. لا. لا. أنتم لا تفهمون. عقليتكم أخرى تماماً.

ـ لست شغلنا الوحيد يا بن المهدي. للمحامي مع غيرك قضايا أخرى. أوجز ولا تستغبينا الله يرضى عليك. قضيتك ليست بالأهمية التي يخسر فيها المرء هذا الصباح بكامله. حتى نختصر عليك القضية نطلب منك أن تذكر الجهة التي تمول مشروعك وبعدها ندلي بالحكم. والسلام. يا الله.

كان الدليل صامتاً. في يديه أجهزة غريبة. تخيلته في لحظة ما يتحول إلى نيزك طائش ينزل على رأسي فيفلقه إلى نصفين غير متساويين. تمتم في أذن القاضي. سمعته بشكل غير واضح.



ـ سيدي. . . سأعرف كيف أقيئه الحقيقة.

ـ تفضل يا. . .

ثم زم شفتيه ولم يقل اسمه.

وجه نحوي ضوءاً حاداً من آلة كان يمسكها في كفيه. أحدثت صوتاً غريباً جعل الحاضرين يفتحون عيونهم عن آخرها. ثم قال للقاضي مبتسماً بشكل ساخر:

ـ هذه قادرة على مساعدته ومساعدتنا.

شعرت بألم مزعج من الشعاع الذي اخترق دماغي كالسهم. عميت لمدة صعب عليّ تحديدها بالضبط وجمدت في مكاني بدون أن أبدي أية حركة. لم أر شيئاً، ولست أدري هذه المرة كذلك هل طالت المدة أم قصرت. الذي أدركه جيداً، هو أن وضعية الناس لم تتغير بتاتاً. حتى عيونهم لم ترمش منذ أن فتحت عن آخرها على شعاع هذه الآلة العجيبة.

عكف الدليل برأسه نحو القاضي. تذكرت ساسافندا. تمنيت أن أبصق لكنني خفت أن تتحول البصقة إلى قنبلة ضبطت داخل فمي، فأضيف تهمة جديدة إلى التهم المتراكمة ضدي.

ـ يبدو يا سيدي أن مخه يشتغل على غير طريقة أمخاخ أهل المدينة. ذاكرته لا تخبئ إلا أشياء عادية وورماً يجب معرفته واستئصاله. يبدو أنه يقول الحقيقة. سأحاول مرة أخرى أن أدقق في الورم.

شعرت بالنار تخرج من عظام رأسي. حاولت أن أصرخ لكنني لم أستطع أبداً. لم يتوصل إلى شيء. بدا له مخي كتلة من الرماد المحروق الذي لا حياة فيه تذكر. شده الورم من جديد.

أحسست بجسدي يزداد احمراراً. وقبل أن ألتفت إلى المحامي، كان قد قفز عند وجهي بقامته المقزمة واللعاب يتطاير من أطراف فمه مصحوباً بدقائق التبن الغامل المسحوق.



ـ أرجوك لا تجعل نفسك في موقف لا تحسد عليه. لا تزد الطين بلاً. لا تكن أحمق أرجوك بحليب أمك. إحذر من الاحمرار. أكل أولادي معلق على رقبتك.

هذه الاسطوانة الأخيرة، يكررها كثيراً. ومن بعد؟ ورقبتي أنا، معلقة على ماذا؟ على كف عفريت؟ على مقصلة. على يد القاضي. لا يهمك. أكل أولادك هو قضيتك؟ مع ذلك تشجعت من جديد ووعدته بوضع كل شيء بين أيدي المحكمة. سأقول ما أعرفه يا سيدي وما لا أعرفه. أبعد عني فقط فمك الذي يكاد يقيئني وسط هذا المجلس الذي يبدو عليه وكأنه موقر بالفعل. دعوني فقط أصلي صلواتي الخمس دفعة واحدة قبل أن تقدموا على إصدار الحكم الذي سيعذبكم حتماً حين تنتهي اللحظة التي بدأت تباشيرها تخيم على المدينة. دعوني أتذكر أمي. والطفولة ومريم حبيبتي، عصفورة المدينة المنكسرة.

أيقظتني أصوات الشوارع العامة. زمور السيارات. البارود. الصراخ غير المنسجم. الأناشيد الوطنية. كانت المدينة في الخارج قد بدأت تحتفل بعيد الاستقلال. الكرنفالات تملأ الطرقات كالعادة. يزعق رجال الشرطة في وجه المارة والمتفرجين. الطريق. افتحوا الطريق. العمى يا وحد الخامج! عندك. شوف قدامك. الأطفال والألعاب النارية. صفوف المجاهدين بجلابيبهم القديمة. باقات الزهور التي توضع على أضرحة الشهداء. الكسوف الذي يبطش بالمدينة كالنسر القاتل، بعد فترة قد تقصر وقد تطول.

انزعج القاضي من شرودي.

ـ لسنا هنا في خدمتك. أسرع. وراءنا الاحتفالات. اليوم عيد الاستقلال. هز روحك. لا تجبرنا على القسوة، نحن كذلك آباء ونريد أن نكون عادلين في قضيتك إلى أقصى حد ممكن.



ـ سأحكي يا سيدي. صممت أن أحكي حتى أدق التفاصيل. أخذوني كنت أمارس الحب مع صديقتي التي غيرت اسمها من ساسافندا إلى شهرزاد. تصورت أن المسألة أخلاقية لأننا لم نتزوج بعد على الأقل حتى ذلك اليوم، لكنهم في المخفر عقدوها...

ـ قلت لك ما تخبئه في قلبك. هذه الحكايات نعرفها جيداً. سؤالنا واضح جداً. كلمة فقط.

ـ وإذا لم أجب. أعني إذا قلت لا أعرف.

ـ سنصدر الحكم ونرفع الجلسة. ونخرج لحضور الاحتفال.

ـ لكن يا سيدي الدليل نفسه وبآلته الغريبة، لم يتوصل إلى شيء يمكن الاستفادة منه، فلا تطلبوا شيئاً لا أستطيعه.

التفت المحامي نحوي من جديد بعدما انتهى من ملء جيبه بالتبن من كيس بلاستيكي ينام في أحد زوايا هذه القاعة. كان إلى جانب كومات من الحشيش، موضوعاً تحت تصرف طاقم المحكمة وحتى الجمهور الحاضر.

بدأ القاضي يتفرسني من جديد من أخمص القدم حتى آخر شعرة في رأسي ثم يعيد النظر، مركزاً عينيه على قضيبي الذي بدأ ينتصب. لست أدري نوع التهمة التي سيقوم بتوجيهها بعد لحظات. شعرت بالأرض تنفتح. رجلاي تدخلان بين الشقوق التي تفغر فاها كجثة رجل عطشان. دخل نصفي السفلي كله، هكذا شعرت. كان الخجل يقتلني. انتظرت أن يحتج المهدي الذي ينام بين ثيابي على الموقف ولكنه لم يفعل شيئاً.

تحرك يا بابا المهدي قبل فوات الأوان. باسمك الآن أهان. وباسمك يغمرون نصفي السفلي تحت أكوام أتربة الأرض. ماذا سأقول لهم. أنك كنت تقابلني ليلاً؟ سيضحكون مثلما ضحكت ساسافندا، ويتهمونني بالجنون. بالقصور في الفهم.



صفق القاضي مرة أخرى بعد أن التهم خمسة أقراص بصل. جاءه القضاة الآخرون والمحامون ووكلاء الدولة وقفوا وراءه ووراء الدليل مثل زمرة عسكرية فرحة بانقلابها. لست أدري ما العلاقة، لكني تذكرت سقراط وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن تجرع السم الحاد. صمت الجميع في انتظار ما يدلي به قاضي القضاة. لم أفهم شيئاً ولا كنت قادراً على تصور أي شيء. القاضي لم يصفق إلا عندما تمتم الدليل في أذنه. هل فهموا شيئاً خاصاً من حركاتي. من عيوني. من ذاكرتي. من هواجسي التي لا تحد. هل قرأ الدليل شيئاً جديداً من خلال آلته ما يدور برأسي. حين تكلم، كان قد بدأ يكشر عن أسنان مخيفة فضحت كل هدوء وجهه المفتعل ولغة عينيه الزرقاوين.

ـ تلافيف مخه تخبئ شيئاً خطيراً على صحة المدينة. أظهرت لي الآلة بشكل لا يدعو إلى الشك أن الورم ليس شيئاً آخر غير وجه رجل هيئته ولباسه وسلاحه وعظامه تشبه وجه رجل عرفته البلاد ووسمته بصفة الشهادة.

بدت على القاضي سحابة حزن أو شيء يشبهها.

ـ ماذا تقترح يا سيدي الدليل المحترم. القضية طالت ونريد أن نختمها. تريدني أن أقرأ الحكم، فقد جهزته البارحة عندكم في المستشفى أم ننتظر لحظة أخرى.

ـ يجب استئصال الورم حتى نتمكن من مقاضاته بشكل عادل. لا نريد أن تمس المحكمة في نزاهتها.

المهدي تحول إلى ورم؟؟؟ لا أفهم شيئاً ولم أبذل مجهوداً لذلك، هذه المرة. في هذه اللحظة ذاتها لم أعد أسأل عما يمكن أن يحدث بين لحظة وأخرى. بدأت أنتظر كغيري من الناس صدور الحكم بعد محاكمة



لم يتكلم فيها أحد ما عدا القاضي. الحركات وحدها هي التي كانت تفضي بما يفكر فيه كل واحد من هؤلاء الناس.

مسح القاضي شفته السفلى. مسد على جبهته العريضة التي ما تزال بها بعض الشقوق من جراء عملية تلحيم العظام. حرك مؤخرته كمن تحركت في مصرانه الأعور دودة صحراوية شديدة الألم.

ـ الأمر الذي لاحظه سيدي يجعلك في حالة عقلية غير طبيعية.

ـ لكن يا سيدي. أنت ترى. أنا في كامل قواي العقلية والبدنية وإن بدا نوع من الهزال على جسدي سببه الحفرة المظلمة والجوع.

ـ المفروض أن نحاكمك في كل الظروف، لكن وجود هذا الورم مقلق ونحن لا نريد أن نظلمك.

ـ لا ورم بدماغي.

ـ لا. ورمك خطير إذا كنت تريد الصراحة.

قالها بقوة اهتزت لها حيطان القاعة الخشبية.

ـ أكثر من هذا، ورمك مشبوه. ويجب استئصاله.

قبل أن أدافع عن نفسي مرة أخرى، خرج المحامي من المرحاض يجري وهو لم ينته من لبس سرواله وغسل مؤخرته. فمه مملوء بالتبن الغامل. تدخل، يستنجد عطفاً من المحكمة وهو يحاول أن يقفل حزامه.

ـ سيدي. سيدي القاضي. يا قرة عين هذه البلاد الآمنة، أرجوك. أتوسل إلى الدليل المحترم أن تمهلوني وموكلي دقيقة. دقيقة واحدة نتشاور فيها قبل الإقدام على أي قرار، ربما استطعنا إجلاء الغموض الذي يكتنف وضعيته.

نظر القاضي إلى عيني الدليل البراقتين. هز هذا الأخير رأسه بالموافقة. اعتدل القاضي من جديد على كرسيه بهدوء مريب.



ـ أمر مثل هذا سيؤخر المحكمة وأنت تعرف أن وقتنا ضيق ومع ذلك سنمهلك هذه الدقيقة على أمل أن تختم هذه المحكمة بكلامك، واعتراف موكلك.

جذبني إلى الزاوية التي تنام فيها أكياس التبن الغامل والحشائش. أغراني بحفنة مما كان يأكله.

ـ تفضل. إنه من صنع أجنبي وسيمنحك طاقة لم تشعر بها طوال حياتك.

ـ شكراً يا سيدي. سأكتفي بسيجارة إذا سمحت لي سيادتكم.

ـ طيب. تفضل.

أعطاني سيجارة مارلبورو. كانت نكهتها طيبة جداً لكني شعرت بالمادة القطرانية تتحول في داخلي إلى حالة إحباط جديدة.

ـ قل لي ما الذي يدور برأسك. ماذا اكتشفوا. أنا كنت في المرحاض.

يجب أن تقول لي كل شيء قبل أن تتهم بالجنون وأعزل أنا من منصبي. عليك أن تجيبني يا ابني. ما قصة هذا الورم؟ لقد أجبرتهم على التسامح معك بالرغم من أنفك المتعب وعينيك المزعجتين واللباس الذي تحمله معك. أرجوك اشرح لهم الحقيقة وغير الحقيقة كما وعدتني.

ـ أنا نفسي لم أعد أفهمهم. لغتهم ليست لغتي. لا يوجد ورم بمخي. بذاكرتي المهدي بن محمد. والمهدي شهيد وليس ورماً.

ـ عليك أن تعود إلى المحكمة، وتحاول أن تتخلص من هذه الصورة حتى يتمكنوا من الإدلاء بالحكم. إذا لم تفعل ذلك من أجلك، افعله من أجلي يا بن المهدي.

ـ أنت تمسخني يا سيدي. لا أستطيع.

ـ تستطيع. كل قليلاً من الحشائش أو تبناً وتخيل نفسك دابة. سيمر كل شيء بسرعة وأنا متأكد من أنهم سيطلقون سراحك.



ـ لا أستطيع. أرفض أن أكون دابة. حتى ولو شئت فأنا عاجز عن فعل ذلك. الله غالب. لم أعد أهتم كثيراً بالقرار.

بدأ الدم يغلي في رأسي. أنا آكل التبن؟

ـ دعني وشأني يا سيدي. افعلوا ما تشاءون. لغتنا ليست واحدة.

ـ إذن سأطلب تأجيل المحاكمة حتى تستأصل من دماغك هذه الصورة. أضم صوتي لصوت الدليل. فأنت بهذا الدماغ تستفز كرامة القاضي وسماحة الحضور.

ـ لكن يا سيدي المحامي، جوهر القضية لا يحتاج إلى كل هذا التأخر وهذا الخوف. أنا مواطن أكثر من العادي.

ـ أنت لا تعرف أصول المحاكم. من يدخل هذا المكان عليه أن يدخله فارغ الذاكرة والقلب.

في آخر المقاعد. التفتت نحوي امرأة، جمالها يثير الأعصاب. لم تقل شيئاً ولكنها عرتني من جلدي بعينيها الواسعتين. ركزت نظرها على مكان معين في جسدي. أخرجت لسانها، بللت أصابعها قبل أن تزحلقها عميقاً داخل صدرها، سرتها، ثم فرجت رجليها ثم بدأت تتأوه. شعر المحامي بحالة الاحتراق التي كنت أعانيها وأنا في وضع يفترض أن ينحني فيه كل شيء.

ـ لا! هذا كثير. تواجه القاضي منتصباً؟ سيرفض استقبالك بهذا الشكل. سيطالب باستئصال كل الأشياء الزائدة فيك. أنت تبالغ يا ابني في سخريتك من المحكمة الجليلة.

ـ لست أنا ولكنها أحاسيسي. المرأة التي قبالتي لا أستطيع مقاومة غواياتها.

ـ أنت عبد للغرائز. هنا لا مكان للأشياء الواقفة. الحياة يصنعها الآخرون. هنا الاستسلام والرضوخ للصالح العام.



بدأ الذعر ينتابني. ركبتاي ترتجفان. قلبي يخفق. يحترق ويتحول إلى كومة صغيرة من الرماد الذي تبعثره أرياح الحارات الشعبية.

ـ يا الله. للمرة الأخيرة، تشجع. كل شيئاً وسيمر الخوف بسرعة.

هذا فظيع. في لحظة ما فكرت جدياً في أكل التبن والخروج من هذا المسخ، لكني شعرت بأسنانيَ تنكسر، وتنزل كحائط عتيق محشو بالفراغ والطين.

حين قطعت بهو القاعة، حافياً عارياً، متوجها نحو القاضي، كان كل الناس مندهشين. على رؤوسهم أطياف الغرابة مثل الغربان. كلهم تساءلوا في أعماقهم. لا يصدقون ما يرون حدوثه أمام أعينهم. يا الله. من عندك الستر. ويا محمد احم رعيتك من الانقراض. كيف ينتصب عضو رجل متهم وسط قاعة مليئة حتى الفم بالناس المحترمين وممثلي الدولة. كيف؟ يحكون أعينهم الزجاجية. لكن الموقف يظل نفسه. اللوحة لم تتغير. الشيء الوحيد الذي شعرت به تغير، هو خطواتي التي اتسعت أكثر من اللازم وحريتي.

يا للفظاعة. يحدث هذا في محكمة موقرة؟ الإعدام. الإعدام.

الوشوشات صارت أصواتاً جماعية، تصرخ إلى أقصى حد ممكن. شعرت بالدم يسيل من أذني من عنف الأصوات وحدتها. أدخلت الرعب إلى قلبي. مزقت داخلي. تتعالى الأصوات من جديد لترجعها القاعة إلى أفواه وآذان ذويها. الإعدام. الإعدام. الإعدام. لم يعد شيء يهمني. حاولت أن أستعمل عقلي الذي بدأ يفقد اتزانه أمام مشهد قضائي أراه للمرة الأولى في حياتي. صرت متأكداً من أن الكسوف يكون قد بدأ في هذه المدينة. وما يحدث الآن، مظهر من مظاهره.

حاولت أن أقف باستقامة أمام القاضي. خبأت بيدي عضوي



التناسلي. لكن حتى مسألة مثل هذه كان فيها من التحدي والجنون مما أخرج القاضي من جلد جلده.

ـ استح يا وحد الفرخ؟ الزامل ابن الزامل يزي ما تقود علينا.

كلامه كان وقحاً ومع ذلك لم يثرني كثيراً. لا أعرف لماذا. تخيلت نفسي في لحظة من اللحظات، أني كنت أقف وجهاً لوجه أمام رئيس زمرة مجهولة النسب والهوية والهدف. لا. لا. هناك شيء ما يمشي بشكل غير طبيعي. البصل، التبن. انحناءة الظهر. الورم. والآن اللغة القضائية الرفيعة. لمحت وجه القاضي في لحظة من لحظات إغفائي. كان قد تحول إلى كلب مفترس. ثم إلى ذئب تضخمت جثته أكثر. يكشر عن أنياب حادة مثل سيف قبلي مخبأ لا ينزع من غمده إلا لقطع الرؤوس ثم يرجع من جديد إلى وضعه الأول.

وحين لاحظ القاضي حالتي المرتبكة والوضع المتردي الذي وصلت إليه كاد يفقد عقله. قام من مكانه. التهم فجأة عشرين رأس بصل بقشورها حتى صار فمه لا يختلف عن طنجرة قديمة. بينما علت ابتسامة ساخرة شفتي الدليل الذي اكتفى بحك ذقنه ووجهه الذي لا يوجد به أي زغب.

وقبل أن يفتح القاضي المنفعل فمه. تجارى المحامي نحوي فجأة، كأنه سقط من السماء. جلس على ركبتيه متضرعاً بيديه.

ـ سيدي القاضي. سيدي الحبيب. الطيب القلب. أرجوكم أن تؤجلوا المحاكمة لعدم توفر الشروط اللازمة لذلك.

ثم التفت إلي. نظر ملياً إلى فخذي ثم ركز عينيه على دماغي الذي كان قد بدأ يغلي بقوة. ثم أدار رأسه من جديد نحو القاضي.

ـ أرجوكم. أيها الصديق. الأب الحنون المتفهم لكل تفاصيل الحياة.



المربي الكبير. أنت قدوتنا يا سيدي القاضي ونحن العبيد. أقبل رجليك الصغيرتين، الظريفتين، الأنيقتين....

قاطعه القاضي بعنف بعد أن احمرت عيناه بشكل مزعج. بينما صفق الحضور طويلاً للدليل الذي كان منهمكاً بإخراج المخاط من أنفه، ومطاردة ذبابة كبيرة، زرقاء. لم يرتح إلا عندما قتلها. فاهتزت القاعة.

ـ اسمع يا محامي نمّي. هذه أمور كان يفترض أن تفكر فيها من قبل وليس الآن. روح تقود أنت وموكلك. تسامحنا معكم كثيراً. اللباس. الأنف الطويل. والورم. لم يبق إلا أن تدخلوا أصابعكم في خرازينا هذا ما كان وتستلذون بتأوهاتنا. لا. لا. يعني لا. سنصدر الحكم ولا أعتقد أن الدليل يختلف معي في القضية. ما نحبش في هذا العمر يجي من يحشيها لي. اللي يحشيها لي ما زال ما زادش ولم تلده أمه بعد. إلعب ألعابك بعيداً عني.

الدليل كان مرة أخرى، منهمكاً في دفن الذبابة في منفضة السجائر. بينما أنا لم أعد أفهم شيئاً في هذه اللغة البذيئة. أعدت النظر في كل التفاصيل حتى أتحقق، هل أنا في محكمة أم بين أيدي عصابة قتلة. وللصراحة، حتى عندما حاولت أن ألتقط شيئاً يجعل من هؤلاء الناس قضاة. لم أستطع. توقف مخي عن كل تفكير. محامي نمّي. روح تقود. الأصابع. الخرزة. تقززت للحظة ثم عدت لوضعي الأول عندما رأيت المحامي يتمرغ على الأرض ويبكي بجنون ويصيح ملء رأسه الذي بدأ يفقد شعره.

ـ آه يا سيدي القاضي. بروح الشهداء الميامين. الشهداء. أجّل المحاكمة. لا تنطق بالحكم حتى نعرف تفاصيل هذا السيد. وأعدكم بمعرفتها بدقة في المرة القادمة. أرجوكم يا سيدي رجاء التائب لربه.

دمعت عينا القاضي بعدما حك وجهه بالبصل كثيراً.



ـ الشهداء. لماذا تحرجني بالشهداء يا رجل. الشهداء تراث هذه الأمة. نوافق. قم. نحن نوافق، فمن يرفض الشهداء؟ مع تثبيت تهمة المساس بأخلاق المدينة، وأمن الدولة. ولن نصدر الحكم حتى استئصال أعضائه الزائدة ونترك لك بعدها فرصة إقناعه.

لم يصدق المحامي نفسه. كنت أتخيله أنه سيرتمي على أقدام القاضي، يغسل حذاءه بشفتيه ولكنه لم يفعل. نزل جرياً إلى نهاية القاعة، وبدأ يلتهم أكياس التبن والحشائش. لم يتنفس إلا عندما انتهى منها. تجشأ بأعلى صوته كالحلوف.

ـ الحمد لله. الحمد لله. الحمد لله على نعمه وخيراته.

ـ أيها السادة الحضور، سنكلف الدليل بأخذ المتهم إلى المستشفى التجميلي لاستئصال التفاهات التي تمنعه عن الكلام، وعن وقول الحقيقة.

قام من مكانه. قام من ورائه طاقم المحكمة دفعة واحدة، بينما بقي الدليل جالساً. كل العيون كانت مثبتة على شفتي القاضي، ورأس الدليل.

ـ أيها السادة الكرام باسم الشهداء الذين استرخصوا الغالي والنفيس أعلن رفع الجلسة و(. . .).

قبل أن ينهي جملته الأخيرة، ارتعدت القاعة فجأة من حجرتها الأساسية بقوة بعد انفجار صم كل الآذان. سمع صوت كالبرق. كالرعد ولكنه ليس رعداً وليس برقاً. كان يشبه شيئاً يصعب تسميته. انطفأت الأنوار كلها ثم عادت بعد ثانية من الزمن شيئاً فشيئاً. امتد الخوف في جوف الحضور وامتزجت الدماء بالماء في أوردة هذه الكتل البشرية التي جئ بها من المدينة ومن خارج المدينة. كل الموجودين أصيبوا بالعمى لعدة ثوان. لا أحد يدري السبب بالضبط، ولكن الذين شاهدوا المحاكمة



يقولون أن كسوة الحسين بن المهدي بن محمد احترقت ومعها احترق الكرسي الذي كانت به. علت ألسنة النار عالياً. كانت فظيعة مثل نيران القيامة. ثم فجأة، انفجر زجاج الإطار الصغير ليخرج منه جسد عليه جروح وعروق متدلية وحروق قديمة. في البداية كان يئن. ثم فجأة تنصل من لحمه ودمه وعروقه وأوردته وتحول إلى هيكل عظمي مرّ عليه من عشرين سنة. صرخ في وجه طاقم المحكمة الذي ركن مرتعداً إلى أحد الزوايا حيث بقايا أكياس التبن والحشائش التي التهمها المحامي عن آخرها.

ـ كفى كذباً أيها السادة.

من أين يأتي هذا الرعد؟ لم أكن أتخيل أن المهدي بن محمد قادر على التحول بهذا الشكل الذي يوقف حركة الدم في الأوردة.

ـ أرجوكم باسم جميع الأموات المظلومين، أن تختموا هذه المهزلة. اختموها بالموت إذا شئتم. بالإعدام حرقاً، شنقاً، بالقوانين، بالرصاص. لكن اختموها ودعوا الشهداء للشهداء. دعوهم ينامون فقد أتعبتهم الدعاية. ظهورهم تقوست من كثرة الركوب عليها. دعوهم ينامون فقد انهاروا في قبورهم. فقدوا أعصابهم ولولا التربة التي تثقل صدورهم لعادوا. دعوا الشهداء للشهداء. إني أرى في الأفق كسوفاً يخلي هذه المدينة من أنفاس أحبابها. أرى الجبال الشامخة تنهار والوديان تفيض بالدم. تفيض بالحمم والنار. تأكل الأخضر واليابس. المدينة تتحول إلى قبائل بدائية فرحة بأتربتها. ينقلب العالم على نفسه. القاتل يصير بريئاً والبريء يصير قاتلاً. الذين تحاكمونهم اليوم كان يفترض أن يحاكموكم. أنتم المخطئون حتى العظم وليسوا هم. خلاص.

صفق بيديه سخرية. طقطقت عظامه. علت رائحة كريهة من القاعة. كان الحضور يبولون ويتغوطون في سراويلهم خوفاً.



ـ خلاص. دفنتمونا؟ وضعتم الأكاليل على رؤوسنا وصورنا ورحتم تشربون الأنخاب على موتنا! لم نمت. لم تتح لنا فرصة الشهادة وعدنا الآن نطالب بها كأي مواطن من مواطني هذه المدينة.

كان القاضي قد بدأ بدوره يرتعد من أظافره حتى شعيرات رأسه. مدّ يده بهدوء، وبخوف إلى قطعة بصل. وضعها في فمه. سمعتها تتفرقع بهدوء تحت أسنانه. ثم انهمك في تأمل تفاصيل الهيكل العظمي من وراء طاقم المحكمة. كان الهيكل الصامت، الهادئ، قد بدأ يمتلئ باللحم. الشحم. الدم. الجلد. حركة القلب. بدأت الدورة الدموية سريانها. فتح الرجل عينيه.

فتح القاضي عينيه أكثر. شد على بطنه وعلى قلبه. تمتم في أذن الدليل. لم يفهمه. تمتم من جديد. نزلت الهزيمة من عينيه.

ـ المهدي يا محاينك ولي. المهدي بن محمد يعود من جديد. لا. لا. المهدي مات. ذبحناه في الغابة. وضعناه تحت التراب. لا. جثته تفتتت.

تحرك المهدي ومعه تحرك طاقم المحكمة إلى الوراء. كل واحد يحاول أن يتخبأ وراء الآخر كذئب. لا أحد يعلم تفاصيل القضية إلا القاضي الذي كان أكثر الناس اندهاشاً من غيره. كل الحاضرين تساءلوا في أعماقهم عن حركة وجهه التي بدأت تزيد تشوها على تشوهاتها القديمة.

ـ أتصور أنك عرفتني الآن يا السي الجيلالي. يا قاضي قضاة هذا الزمن. عرفتَ المهدي الذي أكلته الغابات وأصداء الوديان. تعرفني، أنا أعرفك جيداً يا صديقي، وهذا ما دعاني إلى الانفجار. اسمك الحركي السي حميدو. لم يعد الآن بيننا غير هذه الوجوه، وهذا الصمت. ولحظة الخوف والتبن الذي ينام في بطونكم. لا يخاف من النار إلا اللي في كرشه التبن. وأنت في كرشك الحطب.



شعر القاضي في لحظة أصيب فيها بالعمى بفقدان الأعصاب وبشيء ساخن يحترق في معدته. لم يعد يصدق ما يحدث أمامه. سأل الرعية، هل يرون ما يراه. أجابوه موافقين برؤوسهم التي أصبح حجمها أصغر من اللازم. ظن نفسه يحلم. حاول أن يمحو الصورة من عينيه لكن ضخامتها استفزته. ضرب على الطاولة لكن يديه كانتا هزيلتين مثل عود القصب.

- من حقك يا السي حميدو أن تحب أخاك وأن تلعن الثورة بكاملها. أن تبصق عليها، لكن ليس من حقك أن تركب عظامه وتحولها إلى باخرة تهاجر بواسطتها إلى بلاد الغرب التي كنت تعشقها، لتصير فجأة قاضياً يحكم المدن وتعيد صياغة العالم على ذوقك وتحاكم الناس الذين أجبروك على ترك كراسي الدراسة. نحن لم نجبرك أن تتبعنا. وضعناك بين خيارين، فكنت جباناً حتى مع نفسك. اخترت أن لا تذبح. خرجت من عظام أخيك المشتعلة. نعرف الآن بعضنا يا السي الجيلالي - حميدو. لا أحد يفصل بيننا غير هذا الكسوف الذي يوشك أن يفاجئ المدينة المهزومة. أليس من حق هذه العظام أن تتهمك بالخيانة العظمى. أليس من حقنا أن نقودك من رقبتك إلى الذبح أو الشنق كما تفعل الآن مع الحسين. المستشفى سيتهدم. وستتهدمون معه كالأحجار العتيقة. سيعم الكسوف وسيتبهدل العباد ويصيرون لا شيء وسيحرقون الأخضر واليابس ولكنكم ستكونون أول من يأكلون رؤوسهم. إنكم بأنانيتكم تصنعون آلة جهنمية ستدمر العمران والحنين وتصير العدو صديقاً والصديق عدواً. هل تعلمون فداحة ما تفعلون؟

ضربت رأسي على الحائط مراراً حتى أتذكر. ما أغباك يا الحسين؟ فقدت ذاكرتي. هذا هو إذن السي حميدو الذي هرب من البلدة راعياً ليعود إليها على أجنحة الريح قاضياً كبيراً، عمل الكثير من أجل ناس



البلدة وخلص الكثيرين ممن تورطوا في تجارة المخدرات والممنوعات. هذا هو السي حميدو الذي كان مع المهدي بن محمد. المهدي تحول إلى عظام بينما يتحكم هو الآن في أنفاس المدينة. فعلا أصبحت خطيراً وأستطيع الآن أن أؤكد هذا أمام مجلس المحكمة.

تأكد القاضي من عينيه، أن الرجل الذي يقف أمامه هو المهدي بن محمد بلحمه ودمه وليس شيئاً آخر. كان السي حميدو يرى ما لم نكن قادرين على رؤيته ويفهم ما نعجز عن فهمه. بينهما عشرة الجوع. وكسرة الشعير. والقهوة المرة والجراح والبطاطا التي كانت تؤكل نيئة. الأمور كلها تداخلت. المواقف تبدلت والزمن تغير. انقلب الآن على رأسه. وفي أحيان أخرى يزحف على صدره كالحية لكنه في كل الأحوال لم يعد يمشي على رجليه.

صمت المهدي قليلاً. طوال المرافعة لم يقل لي ولا كلمة. لم يلتفت نحوي بتاتاً. نظر إلى عيون الحاضرين الزائغة. تأوه بألم كبير. اختلط الدم الذي نزل من محاجر عينيه بالقيح، والدموع وأشياء أخرى لزجة. علا نشيجه وشخيره في القاعة. فتح فمه. حاول أن يصرخ بأعلى صوته لكنه لم يستطع. جرب أن يتحرك من مكانه لم يفلح. حاول أن يطير كانت كل النوافذ مغلقة. تلمس أنفه. تحسسه من جديد، وجده شامخاً في مكانه. بحركة آلية تلمس الحضور أنوفهم. فلم يجدوا شيئاً. آذانهم كانت طويلة. عيونهم بلاستيكية أو زجاجية. أمخاخهم. جبس صلب. حين رفعوا رؤوسهم إلى المكان الذي يقف فيه المهدي، لم يجدوا شيئاً غير إطاره المكسور الفارغ من كل وجه.

رجعت المحكمة بعد تردد كبير إلى مداولاتها. جلسوا من جديد مفتعلين موقفاً من الوقار والاحترام. في خفاء ما، داخل القاعة، بحثوا عن المهدي لإعادة مقاضاته أمام الملأ لإزعاجه لراحة الحاكمين



والمحكومين والحكام وللخيانة الوطنية العظمى التي مارسها ذات زمن، لكنهم لم يجدوه.

الذي رأيته، أنا. أقول أنا، لأن كل واحد داخل هذه المحكمة شاهد شيئاً مختلفاً عما شاهده الآخر. في كسور تلك الثانية التي صعب علي تدقيقها، تحول المهدي بعد أن بكى، إلى نار حارقة خرجت من النوافذ بعد أن كسرت زجاجها بقوة. في الخارج التأمت ألسنة اللهب لتتحول إلى نجمة صغيرة وسط آلاف الأنجم التي استقرت فوق ليل المدينة. يقول البعض الآخر، من الذين حضروا المحاكمة، إنهم رأوا الشرطة، وبأمر من القاضي يخرجونه من الإطار ويضعون السلاسل الثقيلة في يديه، وينزلونه إلى قبو مظلم يشبه القبر. ولا أحد من الذين رأوه ينزل يتذكرون مكانه. لقد فقدوا الذاكرة إلى الأبد. ويقول آخرون إنه بكل بساطة انطفأ ولم يعد شيئاً فراح القضاة وفقهاء البلدة يفتون الفتاوى بعدم النظر إلى السماء لمدة سنة حتى تتضاءل هالته، ويبحثون عنه ليلاً ونهاراً في مقبرة الشهداء. ولما فشلوا في إيجاده أخرجوا عظام المقبرة جميعها وبدأوا يتفرسونها لكن الهياكل كانت كلها متشابهة حتى في أدق التفاصيل. قيل إنها حوكمت جميعاً لتواطئها وعملها لجهة غير معروفة وصدرت العقوبة حرقا. فوضعت في الساحات العامة وأبيدت ورميت في عمق المحيطات البعيدة. ويقسم آخرون برأس المدينة أنهم، حين خرجوا من القاعة، راحوا يبحثون في شوارع المدينة المظلمة عن أنوفهم التي قطعها المستشفى التجميلي، فوجدوا المهدي مشمراً عن ساعديه مع آلاف الأنبياء والشهداء والأطفال ويهدم الأسوار والحدائق التي تغطي قبة المستشفى.

والحكايات طويلة.. طويلة مثل أنهار الدم. مثل أيام القيامة.

الذي بقي أن أقوله هو أن القاضي قبل رفعه للجلسة من جديد كان



يرتجف. اتسخت ثيابه وفاحت منه رائحة البول والأوساخ بدل رائحة البصل الكريهة. بدأ يهذي وكأن به مساً من الجنون:

ـ التهـ. . التهـ. . التهـ. .مة تسجل في الدوسي ديال الحسين بن المهدي بن محمد. المس بأمن الدولة وتنظيم مجموعة من الأشرار ضد الوطن العزيز. تثبت بدون جدل. السحر ما ياكلش معنا. إنما هو سحر لا أكثر وتنضاف هذه التهمة إلى البقية، وسيصدر الحكم تباعاً بعد استئصال الزوائد. وسنكون عادلين مع أنفسنا ومع. . . . أنفسنا. . .

كان يريد أن يقول الشهداء الله يرحمهم، ولكنه خاف من عودة المهدي فغير الصيغة التي كشفت حالة انهياره الداخلية.

حين فتحت عيني، بحثت عن القضاة والمحامين. لم أجد أحداً. كانوا في زاوية ما يمزقون الملف ويقهقهون عالياً. ثم يحرقون المزق الصغيرة وريقة وريقة. يتقاسمون البصل والتبن والحشائش وأشياء أخرى لم أستطع تحديدها ولا معرفتها. تذكرت مريم، شعرت بالعزلة والوحدة القاتلة، تمنيت أن أبكي لكن الدمع استعصى علي. فقد تحول كل شيء إلى عواء ذئاب مفترسة والمدينة إلى كومة رماد محترقة.

في الخارج، كانت طبول الاحتفالات تصمّ الآذان على الرغم من ظلمة الكسوف. تذكرت كلمة عمي البوحفصي:

خسرناك يا المهدي يا خويا. دمك تعلم فيه الشمايت والأنذال.

كان في أقصى درجات اليأس والألم عندما قالها.

دفعني الدليل المدجج بالأسلحة بقوة إلى الأمام بعد أن أخرجني بضربة على ظهري من أحلام الطفولة وأخبار البلدة.

ـ أمش ولا تدر رأسك. إلى الأمام. سر. أحد، اثنين. أحد، اثنين.

لم أدر رأسي. مشيت. لكني مع ذلك شاهدت حينما ثبتت عيني على التربة، أحذية خشنة جداً وأصداء خطوات عسكرية تسير ورائي



بشكل مقصي. من حيث أدري ولا أدري بدأت أتحسس أنفي. عضوي التناسلي. أذني. شعرت بنفسي تحت الوقع المخيف لخطواتهم، أصغُر، أصغُر حتى أصير نملة، والأجسام الغامضة من ورائي تكبر وتتسع. كانوا يمحون بعيونهم كل آثاري. رؤوسهم تصل إلى السماء. يمسحون بخوذاتهم الحديدية كل الأنجم التي كانوا يمسونها.

كانت المدينة تحتفل بعيد الاستقلال تحت ظلمة الكسوف. الطبول تزداد حدة. وحركات المارشات العسكرية تطن في أذني. وفجأة سكتت الإذاعات الوطنية ولم أعد أتذكر غير كلام جدتي التي كانت ترويها لنا ونحن في الفراش. الشهداء سيعودون حين ينزل الظلام على المدينة. سيتكاثرون كحبات المطر. قالت: فلنرفع الأيادي والحكايات الجميلة والمواليد الجدد لاستقبالهم عند بوابات المدن الحديدية. سيأتونكم صفوفاً صفوفاً من الغابات ومن المغارات. ينشدون الأناشيد التي يغنيها العسكري قبل أن يدخل غمار الحرب العادلة.

و أنا أسير في الظلمة نحو المبهم، أشهد أني رأيت القتلة. رأيتهم مثل الموت يدخلون إلى مخادع الأطفال والنساء من الأسطح القرميدية ومن النوافذ المكسورة وتنزلق عيونهم الزجاجية الواسعة المثبتة في وسط الجبهة والقفا من فتحات الأبواب ومن أعين المفاتيح.

ها هو السواد يعمي المدينة. الشمس تحولت إلى قرص أسود. وأقسم برأسكم، إني شاهدت في تلك اللحظات، الكسوف وهو ينزل نهائياً على وجه المدينة في وضح النهار ويغيب ما تبقى من قسماتها الرائعة. في إحدى زوايا سماء هذه المدينة فوجئت بصوت حمو وهو ينشد قاموسه المعتاد مختلطاً بالمارشات العسكرية والطبول التي كانت تصم الآذان:

خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع.



لست أدري هل رأيته لكني مع ذلك أتذكر أني شاهدت عينيه تسيلان دموعاً وأشياء تشبه الدم المتخثر. ثقيلة وحارة مثل هذه الشمس التي احترقت على أسطح البيوتات الواطئة. والأكثر من هذا كله، لن تصدقوني إذا قلت لكم إني شاهدت المهدي الذي تشتعل النار في قلبه، قد تحول إلى نجمة حقيقية وسط آلاف الأنجم فوق ليل المدينة. النجوم كانت بعيدة ولكنها في الوقت نفسه كانت تقترب ببطء شديد حتى اتضحت كافة أضلاعها. الذي حدث معي هو أن خطواتي فجأة بدأت تثقل وجسمي يتضخم والنجوم تتكلم وتحرضني. ولساني يتحرك أكثر من العادة والأحذية الخشنة تتقزم ورائي وشيء ما يسحبني نحو طريق النجوم.



ميت من المهد إلى اللحد

يوه! هل تصدقون ما حدث لي؟ عفواً ما سيحدث لي في مستشفى المجانين والمستشفى التجميلي؟ تلك قصة أخرى أكثر سوءاً مما رويت، ربما إن طال العمر بي ومدّني الله ببعض السنوات الإضافية وسلم العقل قليلاً من التلف، سأرويها لكم. سأرويها لأني لا أستطيع الحياة إلا بالحكاية.

أما الآن؟ لا شيء الآن سوى أني سأعتبر كل من حولي مجانين وأني العاقل الوحيد وسط هذا الكم البشري الذي لا هوية له.

سأغمض عيني وأحاول أن أنام على جنوني الذي اختاروه لي لكي لا أرى الخراب الكبير الذي ينسج عقدة عقدة مثل زربية سوداء، معشقة بالألوان الوهمية.

انتُهيَ من تدوين الوقائع المروية في سنة الوباء الكبير، في شهر الورق الأصفر والخوف، بحوافي حاضرتي الشام وبلاد الجزائر، الموافق في التقويم الإفرنجي، لخريف وشتاء سنة ١٩٨٥.



الفهرس

فاتحة الراوي ٧

الفصل الأول: العلامات الأولى ٩

أبواب الجنون ١١

شارع المهدي بن محمد ٢٥

عودة المهدي بن محمد من منفاه ٤٠

أرشيف الخوف ٥٥

كشف ما خفي من السيرة القديمة ٦٧

الفصل الثاني: بداية الرحلة ٨٦

الوجوه الغامضة ٨٨

عودة إلى الحكايات القديمة ١٢٤

تفاصيل يومية ١٤٠

أسوار المستشفى التجميلي ١٥٧

الفصل الثالث: انهيار المدينة ١٧٩

أقبية المدينة المغلقة ١٨١

آخر الحوارات السرية ١٩٦

المحاكمة التي سبقت الكسوف ٢٠٨

ميت من المهد إلى اللحد ٢٣٨



هذا الكتاب

يوه! هل تصدقون ما حدث لي؟ عفواً ما سيحدث لي في مستشفى المجانين والمستشفى التجميلي؟ تلك قصة أخرى أكثر سوءاً مما رويت، ربما إن طال العمر بي ومدّني الله ببعض السنوات الإضافية وسلم العقل قليلاً من التلف، سأرويها لكم. سأرويها لأني لا أستطيع الحياة إلا بالحكاية.

أما الآن؟ لا شيء الآن سوى أني سأعتبر كل من حولي مجانين وأني العاقل الوحيد وسط هذا الكم البشري الذي لا هوية له.

سأغمض عيني وأحاول أن أنام على جنوني الذي اختاروه لي لكي لا أرى الخراب الكبير الذي ينسج عقدة عقدة مثل زربية سوداء، معشقة بالألوان الوهمية.